كفارة المسيح



كنيسة قصر الدوبارة

كفارة المسيح

عوض سمعان

كنيسة قصر الدوبارة
٧ شارع الشيخ ريحان
جاردن سيتي ـــ مصر

رقم الإيداع بدار الكتب/٤٥٢٣

دار الطباعة القومية بالفجالة ـــ القاهرة

هذا الكتاب ..

إن أعظم أمنية يتطلع اليها المؤمنون بالله في كل دين من الأديان ، هي الحصول على الغفران . لذلك نرى داود النبي يرنم : « طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته . طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية » (مزمور ٣٢ : ١، ٢) .

لكن مما يُؤسف له أن معظم هؤلاء المؤمنين يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً من جهة السبيل إلى الغفران . فيقول فريق منهم إنه يكون بالصلاة والصوم ، ويقول فريق آخر إنه يكون بالتوبة والصَّدقة ، ويقول فريق غيرهم إنه يكون بشفاعة القديسين والصالحين ، أو بهذه الوسائل مجتمعة . ومما زاد الموقف غموضاً وتعقيداً لديهم ، أن الذين يقومون منهم بهذه الأعمال بكل دقة وإخلاص ، لا يثقون أنهم حصلوا على الغفران الذي ينشدونه . فإذا سألنا واحداً منهم : هل يثق أن الله غفر كل خطاياه ؟ أجابنا بالقول : إن الثقة بذلك هي من باب الرجم بالغيب ، لكنه يقوم بالأعمال المذكورة ، عسى أن يغفر الله له .

والآن لنسأل أنفسنا سؤالين : (الأول) هل يمكن أن يضع الله أكثر من سبيل واحد للغفران ؟ و(الثاني) هل يليق بكماله تعالى أن يتركنا طوال وجودنا على الأرض في شك من جهة الصفح عن خطايانا ؟ والاجابة عن هذين السؤالين هي طبعاً : كلا وكلا .

ولما كان الأمر كذلك ، درس الكاتب السُّبل السابق ذكرها في ما استطاع الحصول عليه من كتب القائلين بها ، كما درس السبيل الذي أعلن الكتاب المقدس أنه يضمن للسالكين فيه الحصول على الغفران التام منذ الآن ، فأسفرت الدراسة عن إصدار هذا الكتاب .

في هذا الكتاب ...

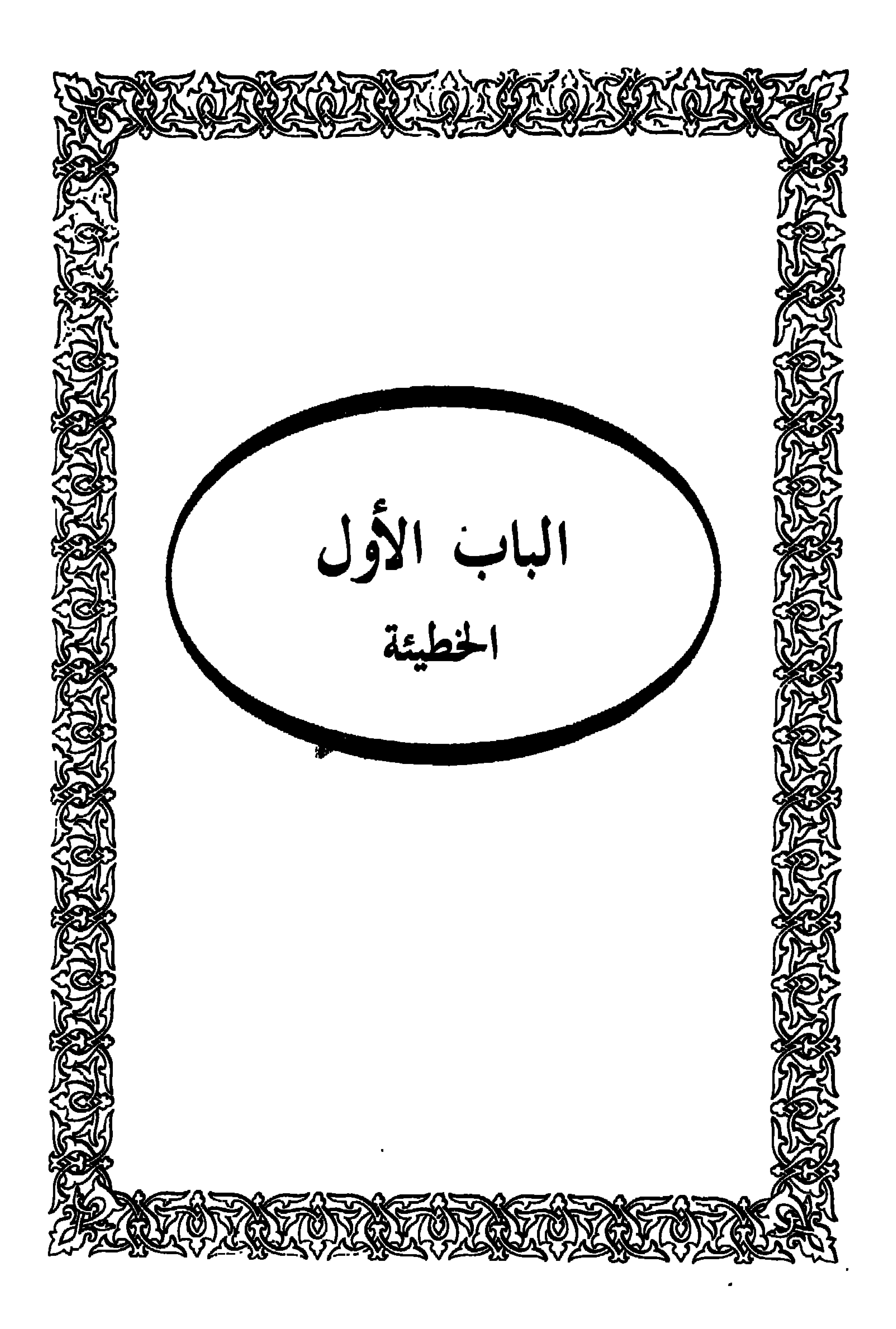
القسم الأول ــ لزوم كفارة المسيح

القسم الثاني ــ كيف ننتفع بكفارة المسيح ؟

القسم الأول

لزوم
كفارة المسيح





الباب الأول

الخطيئة

— ١ —
ما هي الخطيئة ؟

اختلف الناس في أمر الخطيئة لاختلاف أفكارهم وميولهم ، فلكي نتحقق من ماهيتها ، دعنا نفكر على سبيل المثال في العبارة المألوفة « أخطأ الهدف » ، فما معناها ؟ طبعاً معناها : « لم يُصِبْ الهدف أو انحرف عنه » — فمن هذه العبارة يتّضح لنا أن الخطيئة ليست هي الشر الشنيع فحسب كما يظن بعض الناس ، بل إنها أيضاً الانحراف عن حق الله بوصفه القاعدة التي وضعها لسلوكنا في العالم الحاضر . ولما كان حق الله ينهى عن الشر ويأمر بالخير ، لذلك فالخطيئة لا تكون بالانحراف إلى الشر فحسب ، بل وبالانحراف عن الخير أيضاً .

أما قول السفسطائيين « ليس هناك خير أو شر ، وإن ما يراه الإنسان خيراً فهو خير ، وإن ما يراه شراً فهو شر » ، فلا نصيب له من الصواب . لأن ما يراه إنسان شراً قد يراه آخر خيراً ، والشيء الواحد لا يكون شراً وخيراً ، وإلا لما كان هناك مقياس للأخلاق أو قانون لمعاقبة المجرمين ، ولسادت الفوضى كل العالم تبعاً لذلك .. نعم إن الصدق قد يعود علينا أحياناً في العالم الحاضر بالخسارة ، وان الكذب قد يعود علينا فيه بالربح ، لكن مع ذلك يظل الصدق خيراً والكذب شراً ، لأن الخير لا يُقاس بما نحصل عليه من ربح ، والشر لا يُقاس بما نتعرض له من خسارة ، إذ أن الخير والشر لا يُقاسان بالنسبة إلى الكمال ، والكمال لا شأن له بالربح أو الخسارة — ولقد صدق « فولتير » في قوله : « الواجب واحد في كل مكان . سواء على أعتاب عرش الله ، أو في قرار الهوة السحيقة » . ومن ثمَّ فالحكم على تصرفاتنا لا يكون لشعورنا أو ضمائرنا ، كما يقول بعض الناس ، بل لكلمة الله دون سواها ، لأن هذه ثابتة راسخة إلى الأبد .

١ — **الانحراف إلى الشر** : الله روح ولا نعني أنه روح مثل الأرواح ، بل نعني أنه منزه عن الجسدانية ، ولا يُدرَك بالحواس البشرية . والروح لا يتعامل إلا مع عنصر روحي يتناسب معه ، إذاً فعلاقة الله بنا وعلاقتنا به لا تكون عن طريق أجسادنا بل عن طريق أرواحنا . ومن ثم إذا انحرفت روح إنسان منا عن قداسة الله ، يكون قد أخطأ اليه حتى إذا لم يظهر هذا الانحراف في عمل خارجي . ولا مجال للاعتراض على ذلك ، لأن من يشتهي مال غيره ، يكون في الواقع لصاً ، إذ أن شخصاً مثله لا يمنعه من السرقة كراهيته لها ، بل خوفه من عقوبة القانون أو احتقار الناس له . فإذا وثق أنه لا يتعرض

لهذا أو ذاك ، لما تردد في سرقة ما اشتهاه ، لذلك قال الوحي : « لا تشته بيت قريبك ، ولا شيئاً مما لقريبك » (خروج ٢٠ : ١٧) .

ولما كانت الخطيئة هي مجرد الانحراف الباطني إلى الشر كما ذكرنا ، قال الوحي أيضاً : « فكر الحماقة خطيئة » (أمثال ٢٤ : ٩) . و« كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس » (١يوحنا٣ : ١٥) . و« كل من ينظر إلى إمرأة ليشتهيها . فقد زنى بها في قلبه » (متى ٥ : ٢٨) . و« من قال يا أحمق ، يستوجب نار جهنم » (متى ٥ : ٢٢) . و« كل كلمة بطّالة يتكلم بها الناس . سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » (متى ١٢ : ٣٦) . كما نهانا عن الكذب والسُّكر والغضب ، والمكر والرياء والحسد ، والربا والسحر والطمع (أف ٤ : ٢٥ — ٣١ ، ٥ : ٤ ، ٥ و١بطرس ٢ : ١ ومزمور ١٥ : ٥ ورؤيا ٢١ : ٨) . حتى نكون قديسين كما أنه تعالى قدوس (١بطرس ١ : ١٥) ، إذ بدون القداسة ، أو بالحري التنزه عن النقائص ، لن يرى أحد الرب (عبرانيين ١٢ : ١٤) .

وقد عرف الأنبياء شر الخطايا الباطنية ، ولذلك صرخ مرة أحدهم لله قائلاً : « من الخطايا المستترة ابرئني » (مزمور ١٩ : ١٢) . كما قال له : « اختبرني يا الله واعرف قلبي . امتحني واعرف أفكاري . وانظر إن كان فيّ طريق باطل . واهدني طريقاً أبدياً » (مزمور ١٣٩ : ٢٣ ، ٢٤) ، لأن الإنسان قد يجهل أفكار الشر التي تجول في نفسه أو لا يحسب لها حساباً ، وتكون النتيجة النهائية أنه يرى نفسه دون أن يدري ، بعيداً عن الله بعداً عظيماً .

٢ — الانحراف عن الخير : وهذا الانحراف يشمل الأمور التالية :

(ا) التقصير في عمل الخير : بما أن الله ، كما أنه قدوس يكره الشر ، هو أيضاً صالح يحب الخير ، لذلك فمن أراد أن يحيا حياة التوافق مع الله أو بالحري حياة البُعد عن الخطيئة ، يجب أن لا يمتنع عن الشر فحسب ، بل وأن يفعل الخير أيضاً . ولا مجال للاعتراض على ذلك ، لأن من لا يعطف على الفقير أو يمتنع عن مساعدة المسكين ، يكون بعيداً عن الله ، ومن ثم يكون خاطئاً حتى إذا لم يفعل شراً من الشرور السابق ذكرها . لذلك قال الوحي لنا : « من يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل ، فذلك خطيئة له » (يعقوب ٤ : ١٧) . كما قال « لنعمل الخير للجميع » (غلاطية ٦ : ١٠) .

(ب) القيام بأعمال الخير لأغراض شخصية : بما أن الذين يعملون الخير للحصول على ثواب من الله أو مديح من الناس ، يسعون في الواقع وراء منفعتهم الشخصية . وأن

الذين يقومون بالوعظ والارشاد للحصول على نصيب من المال أو لنشر تعليم خاص ، لا يهتمون في الواقع بجوهر الدين الذي هو العلاقة الروحية بين الانسان وبين الله ، بل بالمظهر الخارجي للدين فحسب ، حتى يكون لهم مركز مرموق في العالم الحاضر . إذاً فأعمال الخير والوعظ التي لا تُعمل بدافع المحبة وحدها ، ولأجل مجد الله وخير الناس فحسب ، تكون أعمالاً تجارية أو مصلحية . ومن ثم لا يكون فاعلوها قد أتوا خيراً أمام الله ، وبالتبعية لا يكونون أبراراً أمامه .

ولذلك قال الوحي : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم [ليس خوفاً منهم ، بل مشاركة لله في عطفه عليهم ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إليه طالبين عفوه وغفرانه] . واقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً ، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات . فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين (متى ٥ : ٤٣ — ٤٥ ، لوقا ٦ : ٣٥) . وقال : وأما أنتم فمتى صنعتم صدقة فلا تعرّفوا شمالكم ما تفعل يمينكم . لكي تكون صدقتكم في الخفاء . فأبوكم الذي يرى في الخفاء هو يجازيكم علانية (متى ٦ : ١ — ٤) . فضلاً عن ذلك ، سجل لنا أن المسيح سيخاطب المتظاهرين بخدمته ، الذين سينادونه في اليوم الأخير قائلين « يارب يارب ، أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين » بالرد الحازم القاطع « إني لم أعرفكم قط . اذهبوا عني يا فاعلي الإثم » (متى ٧ : ٢٢ — ٢٣) .

مذكرة توضيحية : يراد بالتنبؤ في الكتاب المقدس الإنباء بالغيب ، ويراد به أيضاً الإنباء عن الله بالوعظ والتعليم (أعمال ١٥ : ٣٢) (١كورنثوس ١٤ : ٣) ، كما هي الحال في اللغة العربية . فإن كلمة « النبي » مشتقة من « النبأ » أي « الخبر » ومن ثم يكون الأشخاص المذكورين قد تنبأوا باسم المسيح أو وعظوا عنه ، والحال أن قلوبهم لم تكن مقدسة تماماً له ، مَثَلهم في ذلك مَثَل شاول الملك الذي مع أنه كان يتنبأ مع الأنبياء (١صموئيل ١٠ : ٦) ، غير أنه كان بعيداً بقلبه عن الله (اصموئيل ١٥ : ٢٦) . أو مثل الوعاظ الذين ينادون بكلمة الله ، ومع ذلك لا يعملون بها — وهكذا الحال من جهة إخراج الشياطين . فالله قد يعطي بعض الناس سلطاناً على إخراجها لكي يستثمروه في خدمة المحتاجين إليه . لكن إذا انحرفوا عنه تعالى كان عذابهم وبيلاً ، مثلهم في ذلك مثل يهوذا الاسخريوطي ، فقد كان يصنع معجزات مثل الرسل ، لكن لشره هلك إلى الأبد .

(جـ) حصر اهتمام النفس في العالم الحاضر : إن السعي وراء العيش وتحصيل المال اللازم لنا في هذا العالم ، أمر واجب طالما نحن نحيا فيه . لكن إذا طغى هذا السعي على النفس وصرفها عن الصلة بالله والتوافق معه ، كان ذلك دليلاً على انحرافها عنه ، أو بالحري على عدم ثقتها فيه وتقديرها لفضله عليها ، ومن ثم يكون السعي المذكور خطيئة أيضاً . لذلك قال الوحي إن الناسين الله أشخاص أشرار مآلهم الهاوية مثل الخطاة سواء بسواء (مزمور ٩ : ١٧) . كما قال « إن محبة العالم (أو بالحري الانصراف اليه) عداوة لله » (يعقوب ٤ : ٤) ، لأن كل ما في العالم « شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة » (١يوحنا ٢ : ١٦) . ومن الناحية الأخرى أوصانا قائلاً : « تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل قدرتك ، ومن كل فكرك » (لوقا ١٠ : ٢٧) — المحبة لله ، وإن لم تكن عين الطاعة له ، بل هي الشوق القلبي إليه ، والحنين المقدس للوجود في معيته ، لكنها تقودنا طبعاً للطاعة له . والطاعة له في هذه الحالة لا تكون عن خوف ورعب مثل طاعة العبيد لسيدهم القاسي ، بل تكون عن حب وإخلاص مثل طاعة الأبناء لأبيهم البار بهم . ولا مغالاة في هذه الوصية على الاطلاق ، فالله هو خالقنا وصاحب الفضل علينا ، ومن الواجب أن يكون له المقام الأول في حياتنا . كما أن المحبة له ، إن لم تكن من كل القلب ومن كل النفس ومن كل القدرة ومن كل الفكر ، لا تكون محبة كاملة ، والمحبة غير الكاملة لا تليق بالله . لذلك قال داود النبي مرة له : « وحّد قلبي لخوف اسمك » ، « أنت سيدي خيري لا شيء غيرك » (مزمور ٨٦ : ١١ ، ١٦ : ٢) .

٣ — مستوانا الروحي في ضوء الله :

(ا) إن الخاطي (في نظر الله) ليس من يعمل خطايا كثيرة فحسب ، بل ومن يعمل أيضاً خطيئة واحدة (سواء كانت بالفعل أم القول أم الفكر) ، فقد قال الوحي : « من حفظ كل الناموس ، وإنما عثر في واحدة ، فقد صار مجرماً في الكل . لأن الذي قال لا تزن ، قال أيضاً لا تقتل . فإن لم تزن ولكن قتلت ، فقد صرت متعدياً للناموس » (يعقوب ٢ : ١٠ — ١١) . ولذلك لأجل خطيئة واحدة طرح الله بعض الملائكة من السماء (٢بطرس ٢ : ٤) ، ولأجل خطيئة واحدة طُرد آدم وحواء من جنة عدن (تكوين ٣ : ٢٤) ، ولأجل خطيئة واحدة حُرم موسى النبي من دخول أرض كنعان (تثنية ٣٢ : ٥٢) ، ولأجل خطيئة واحدة أمات الله حنانيا وسفيرة في الحال (أعمال ٥ : ١ — ١١) — وقد أدرك الكلبيون أتباع سقراط هذه الحقيقة

ولذلك قالوا : « الإنسان إما أن يكون فاضلاً إلى النهاية أو لا يكون . كالخط ، إما أن يكون مستقيماً ، أو غير مستقيم ، ولا وسط بين الاثنين » .

(ب) فضلا عما تقدم فإن الخطيئة تُحسب (في نظر الله) خطيئة ، ليس فقط إذا كان فاعلها يشعر بها ، بل وإذا كان لا يشعر بها كذلك . فقد قال الوحي : ولا تقل ... إنه سهو (جامعة ٥ : ٦) ، لأن السهو دليل على عدم السلوك بالكمال ، وعدم السلوك بالكمال خطيئة كما سبق القول . ولا غرابة في ذلك ، فنحن نعلم أن مخالفة القانون بسبب الجهل أو السهو لا ينجي المخطىء من القصاص ، إذ المفروض في كل المواطنين ، بل وحتى في الغرباء الساكنين بينهم ، أن يكونوا عارفين بقوانين البلاد وحريصين على تنفيذها ، ولذلك كانت للمواطنين والغرباء شريعة واحدة (خروج ١٢ : ٤٩ ، لاويين ٢٤ : ٢٢) .

مما تقدم يتضح لنا أن الإنسان مهما بلغ أسمى درجات الأخلاق الكريمة وقام بالواجبات الدينية خير قيام ، لكن انحرف مرة عن الله بالفعل أو القول أو الفكر ، يكون خاطئاً . وإذا عاش دون أن ينحرف هذا الانحراف ، لكن لم يعمل كل الصلاح الذي يستطيع القيام به بالحالة التي تتوافق مع كمال الله ، يكون أيضاً خاطئاً . وإذا عمل كل الصلاح الذي يستطيع القيام به بالحالة المذكورة ، لكن أخطأ مرة واحدة سهواً ، يكون خاطئاً أيضاً — فإذا نظرنا إلى أنفسنا في ضوء هذه الحقائق ، نرى أننا نأتي خطايا لا حصر لها دون أن نحسب لها حساباً ، ظناً منا أنها صغائر لا يقيم الله لها وزناً ، لكنها في الواقع ذنوب ومعاص في نظره تعالى . ولذلك قال الوحي عن الإنسان عامة « إن تصوّر أفكار قلبه ، إنما هو شرير كل يوم » (تكوين ٦ : ٥) ، وإن قلبه (أو بالحري موطن الشعور والعواطف فيه) أخدع من كل شيء وهو نجيس (إرميا ١٧ : ٩) ، وإن « من القلب تخرج أفكار شريرة ، زنا ، فسق ، قتل ، سرقة .... تجديف » (مرقس ٧ : ٢١ ، ٢٢) و« إن كل الرأس مريض ، وكل القلب سقيم من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة ، بل جرح وأحباط [الاحباط لغة ، هي الجروح التي تنشأ من السحق ، والمراد بها هنا الخطيئة التي تدمّر نفوس البشر وتسحقها] . وضربة طرية لم تُعصر ولم تُعصب ولم تُليَّن بالزيت » (إشعياء ١ : ٥ ، ٦) ، أي أن الخطيئة ضربت أطنابها في الإنسان حتى أفسدت كيانه بأسره . ولقد أدرك فولتير شيئاً من هذه الحقيقة ، فقال : « كلما رسمت لنفسي صورة الإنسان ، خُيِّل إلي أنه شيطان » .

أما الاعتراضات التي تُوجَّه ضد الحقائق السالفة ، ففيما يلي بيانها والرد عليها :

١ ــ [عدم التفرقة بين الصغائروالكبائر ، يشجع الناس على ارتكاب الكبائر]

الرد : إن الذين يهمهم إرضاء الله ، يمتنعون عن الصغائر كما يمتنعون عن الكبائر . أما الذين لا يبالون بإرضائه ، فلا يتركون الكبائر ، حتى لو سلّم الله لهم بوجود صغائر وكبائر ، ولذلك لا مجال لهذا الاعتراض .

٢ ــ [هل من العدالة أن يضع الله أمامنا مقياساً عالياً للقداسة ، ثم يعاقبنا لعدم استطاعتنا بلوغه ؟]

الرد : نظراً لأن السبيل الوحيد للتمتع بالله هو التوافق معه في صفاته . وبما أنه قدوس كل القداسة ، لذلك إذا أردنا التمتع به يجب أن نكون قديسين في كل سيرة (١بطرس ١ : ١٥) . ومن ثم فالله لم يضع أمامنا مقياساً للقداسة أسمى مما يجب علينا الارتقاء اليه ، بل وضع أمامنا المستوى القانوني الذي يجب أن نحيا فيه في كل حين . ومع كل فعندما نشعر بعجزنا عن بلوغ هذا المستوى ، يتنازل الله بنعمته ليرفعنا إليه ، إذا وجد فينا الرغبة الخالصة لذلك ، كما سيتضح بالتفصيل في الباب السادس ، ومن ثم لا مجال لهذا الاعتراض أيضاً .

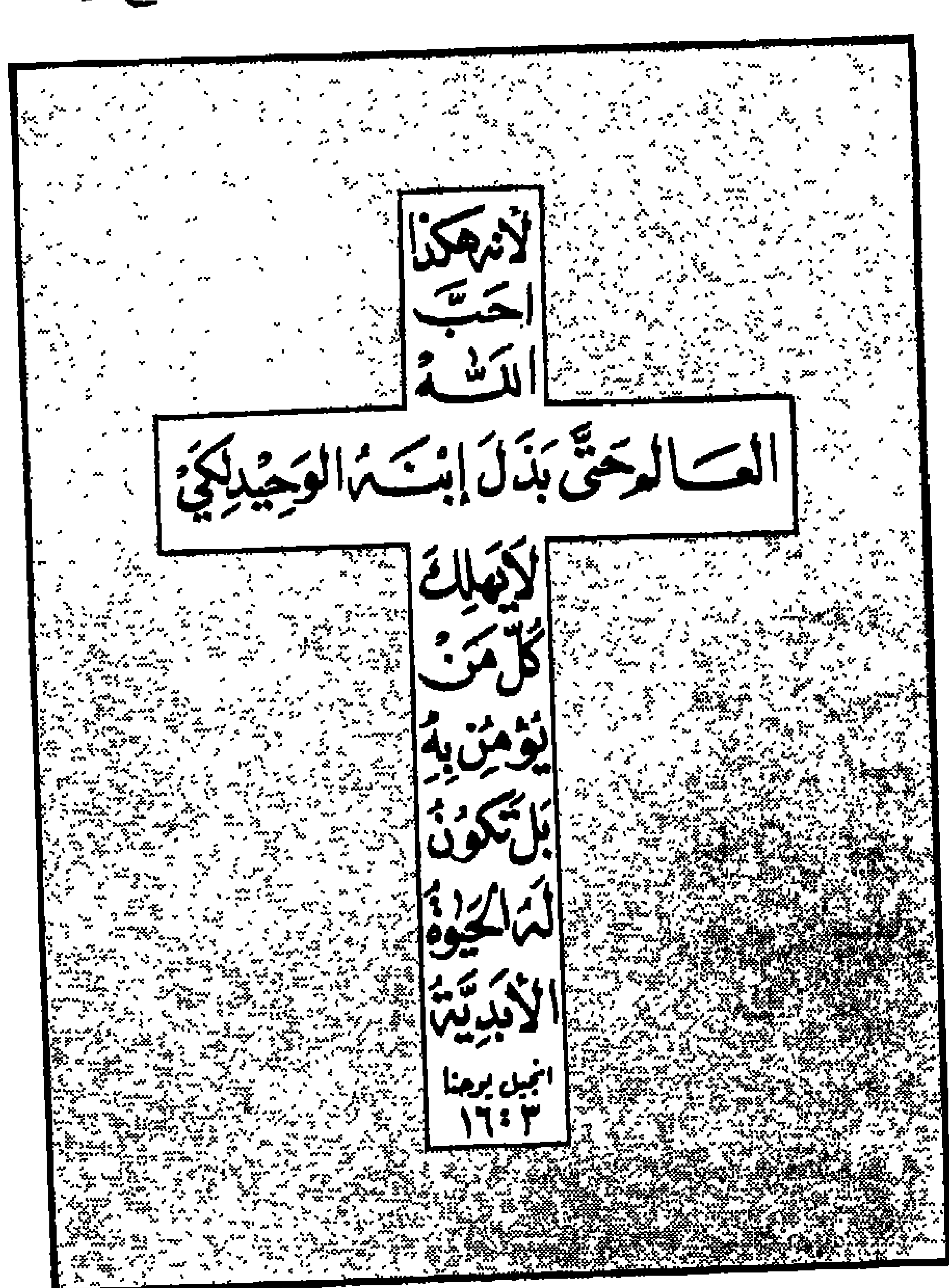
٣ ــ [القول بأن الإنسان كله شر ، لا يتفق مع الصواب ، إذ الواقع يدل على أن به الكثير من الصفات النبيلة] .

الرد : الإنسان مخلوق أصلاً على صورة الله كشبهه (تكوين ١ : ٢٦) والمراد بذلك أن الله خلق الانسان بمؤهلات روحية ، تجعله قادراً على التوافق معه تعالى في صفاته الأدبية السامية ــ وقد عرف هذه الحقيقة كثير من المفكرين . فمثلاً ، قال دكتور الكسندر فندلي : « إن الله خلق الانسان على صورته لكي يبادله حباً بحب ، لأن الله محبة » . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن إنسانية الانسان تقوم أولاً وأخيراً على توافقه مع الله . فاذا انحرف عنه ، حرم نفسه من الإنسانية بكل مميزاتها . لذلك كان من البديهي أن يظل فيه حتى بعد سقوطه في الخطيئة شيء من الصفات النبيلة ، مثل المروءة والشهامة والعطف على المساكين والمحتاجين . لكن طالما أنه منحرف عن كمال الله وقداسته ، فإنه كثيراً ما يمارس هذه الصفات ، إما لأنه أحسّ مرة بقسوة الظروف عليه ، فأراد أن يزيح شبحها من أمامه ، أو لأنه يخشى أن لا يعطف عليه أحد إذا وقع هو في أزمة أو ضائقة ، أو لكي يُشبع رغبة كامنة في نفسه تدعوه لأن يبدو عظيماً أو

صالحاً على نحو ما ، أو لكي يكفّر (حسب زعمه) عن شر ارتكبه حتى تكون له الحظوى لدى الله ــ الأمر الذي يجعل أعماله المذكورة مشوبة بنقائص عدّة . ومع كل فالإنسان الخاطىء وإن كان يتصرّف بشيء من الصفات النبيلة ، لكنه مع ذلك كثيراً ما يأتي الرذائل والموبقات الشنيعة ، ومن ثم لا يكون باراً أو مستقيماً أمام الله .

٤ ــ [المسيحية بقولها إن الإنسان خاطىء بجملته تحط من قدره . كما تجعله فريسة للشر والإثم] .

الرد : المسيحية لا تجعل الإنسان فريسة للشر والإثم ، لأنها تعلن أنه يعمل الخطيئة بمحض إرادته . فضلاً عن ذلك فإنها لا تحط من قدره ، بل تعلن له حقيقة أمره في ضوء الله ، حتى لا يعتقد أنه قريب منه ، ويكون في الواقع بعيداً عنه . كما أن المسيحية على العكس مما يظن المعترض ، تعلن أن الإنسان مخلوق في أول الأمر على صورة الله كشبهه ، ومن ثم فهناك أصل للصلاح في نفسه كما ذكرنا ، وهذا الأصل هو الذي يجعله قادراً على التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر . فإذا سعى بإخلاص نحو الحق والخير ، رفعه الله فوق ما به من نقائص ، كما سيتضح في الباب السابع .



ـ ٢ ـ
تسرُّب الخطيئة إلى البشر عامة

١ ـ **الحالة التي يولد بها البشر** : يقول الرواقيون والبيلاجيوسيون : « إن الانسان يُولد بريئاً ، مَثَله في ذلك مَثَل آدم قبل السقوط في الخطيئة ، إنما أعماله هي التي تكوّن صفاته . لأنه لو كان قد وُلد فاسداً ، لكانت حياته بأسرها حياة الشر والاجرام » . [الرواقيون هم أتباع زينو الفيلسوف اليوناني ، وأطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى الرواق الذي كانوا يجتمعون فيه ، في القرن الرابع قبل الميلاد ـ أما البيلاجيوسيون فهم أتباع بيلاجيوس الذي ظهر في انجلترا في القرن الخامس] .

ويقول الأرمينيوسيون : « إن الانسان وإن كان يولد بريئاً ، لكن يكمن في طبيعته قصور يحول بينه وبين السلوك بالكمال ، وهذا هو السبب في ارتكابه الشر في بعض الأحيان » . [الأرمينيوسيون هم أتباع أرمينيوس الذي ظهر في هولندا في القرن السادس عشر] .

ويقول جان جاك روسو وفولتير وشارل فورييه وغيرهم ، في العصر الحديث : « إن الانسان يُولد كاملاً (أي ليس بريئاً فحسب ، بل وكاملاً أيضاً) ، إنما إذا عاش في بيئة شريرة يتسرب إليه الشر منها . فالخطيئة إذاً ليست أصلية فيه بل طارئة عليه ، ومن ثم من الممكن إزالتها بالتنوير والتعليم » .

والرأي الأول ليس بصواب لأن أعمال الانسان لا تكوّن صفاته ، بل تصدر عنها . إذ أن الانسان لا يكون قاتلاً (مثلاً) في الظاهر ، إلا إذا كان يميل إلى القسوة والانتقام في الباطن . وإذا كان الأمر كذلك ، فصفات الانسان سابقة لأعماله وليست لاحقة لها ، ومن ثم يكون خاطئاً بالقصد قبل أن يكون خاطئاً بالفعل . كما أن عدم ارتكاب كل إنسان شروراً شنيعة ليس دليلاً على أن البشر يولدون أبرياء ، لأن الخطيئة ليست هي الشر الشنيع فحسب ، بل إنها أيضاً مجرد انحراف النفس إلى الشر أو انحرافها عن الخير ، كما ذكرنا في الفصل السابق .

والرأي الثاني ليس بصواب أيضاً ، لأنه ليس من المعقول أن يكون في طبيعتنا قصور يحول بيننا وبين السلوك بالكمال ، ونكون أبرياء كل البراءة . بل لابد أننا نولد وفي طبيعتنا ميل إلى الخطيئة ، لأنه لا يمكن أن نفعلها إلا إذا كان فينا ميل إليها ، إذ أن لكل معلول علة ولكل عمل سبب .

والرأي الثالث ليس بصواب كذلك ، لأن البيئة الشريرة وإن كان لها تأثير عظيم على الانسان ، لكن ليست هي التي تولّد الشر فيه . والدليل على ذلك أن الأطفال الذين لا يعرفون بعد شيئاً عن الحياة الدنيا ، كثيراً ما تبدو عليهم أمارات الأنانية والكبرياء ومحبة الذات ، والحسد والطمع والعناد . كما أنهم كثيراً ما يسطون على ممتلكات الغير ويتشاجرون معهم مدفوعين في ذلك كله بغرائز كامنة في نفوسهم — وطبعاً لا عبرة بالقول إن تصرفات الأطفال المذكورة هي مجرد نقائص ، أو أن الأطفال لا يدركون أن تصرفاتهم هذه هي خطايا ، لأن النقائص خطايا ، وعدم إدراك الخطايا لا يقلل من كونها خطايا . [الغريزة في ذاتها ليست خطيئة ، لأن الله هو الذي أودعها في الانسان لأجل خيره ، إنما الخطيئة هي استخدام الغريزة في غير ما أودعها الله لأجله] .

وإذا كان الأمر كذلك ، اتضح لنا أن الانسان يولد وبه ميل إلى الخطيئة ، وهذا الميل وإن كان لا يبدو بوضوح في الصغر ، غير أنه يأخذ في الظهور كلما شبّ الانسان ونما . فمثل هذا الميل مثل السم الكامن في الثعبان ، فإنه لا يَرِد إليه من الخارج ، بل أن الثعبان يولد وفي جسمه استعداد لتكوينه . وكل ما في الأمر ، أن هذا السم لا يظهر بنتائجه المميتة ، إلا إذا بلغ الثعبان سناً معينة .

ومما يؤيد صدق هذا الاستنتاج (أولاً) أن الذين قالوا بسلامة الفطرة الانسانية وكمالها ، وبذلوا كل ما لديهم من جهد لتحسين حالة الفقراء والبؤساء ، لاقوا من أولئك وهؤلاء الكثير من المتاعب والمضايقات ، ومن ثم خابت آمالهم الطيبة من جهتهم جميعاً خيبة ليس بعدها خيبة . كما حدث مع سان سيمون وروبرت أوين وغيرهما . (ثانياً) إن التعليم لا يستأصل الخطيئة من نفس الانسان ، بل يعمل فقط على إخفاء بعض مظاهرها الشنيعة . والدليل على ذلك أن المتعلمين يفعلونها كما يفعلها غيرهم سواء بسواء ، وكل ما في الأمر أنهم يستترون بفعلها وراء أسماء مفتعلة مثل المدنية أو الحرية أو المصلحة الذاتية أو الحكمة البشرية . ومن ثم يكون مثلهم مثل القبور التي تحيطها الأزهار والرياحين ، بينما لا يوجد في باطنها إلا العفونة التي لا تُطاق .

هذا وقد أدرك كثير من الفلاسفة أن في الانسان ميلاً للشر يسيطر على كيانه بأسره ، فقال أرسطو: « إن أكثر أعمال الانسان محكومة بالعواطف والشهوات . لذلك فإنه يقع في الخطأ مهما علم العقل بضرره . فالانسان يفكر جيداً ويرشده فكره إلى الصواب ، لكن تتغلب عليه شهوته الكامنة فيه فتغويه » . وقال سانت هيلير « ليس ما يقع فيه الانسان من إثم ناشئاً عن خطأ في الموازنة بين اللذة الحاضرة والآلام المستقبلة ، ولا ناشئاً عن جهل بطبيعة الأشياء . إنما منشؤه فساد في الخُلُق يحمل الانسان إلى

تفضيل الشر على الخير ، وهو عالم بهما وبنتائج كل منهما . فإن الشرير لا يجهل البتة ما يفعله من سوء بل يشعر به وبما يلحقه من خسران بسببه ، ومع ذلك يسعى إلى هذا الخسران وهو آسف » . وقال غيره :« إن الناس الذين نشأوا في الغابات بعيداً عن الأخطاء التي درج عليها غيرهم من سكان المدن ، ليسوا أبرياء كما يُقال ، بل هم حيوانات ماكرة ، ولذلك فإنهم ليسوا أفضل من المتحضرين في شيء من الناحية الأدبية » . وقال هكسلي : « إن الاعتقاد بأن الأطفال يُولدون في حالة الصلاح ، وإن الهيئة الاجتماعية الفاسدة هي التي تنحرف بهم إلى الشر ، ليس له نصيب من الصواب » . وقال سير سيدني سميث : « إن الأطفال يأتون إلى العالم وفي طبيعتهم العناد والشر والأنانية » .

٢ ـــ سبب ولادة الانسان بطبيعة تميل إلى الخطيئة : بناء على قانون الوراثة لا يمكن لكائن أن يلد آخر مغايراً له ، كما يقول علماء الأحياء وعلى رأسهم ماندل . فالخنزيرة (مثلاً) لا يمكن أن تلد حملاً ، والشوك لا يمكن أن ينتج عنباً . وبما أن آدم الذي وُلد منه البشر جميعاً كان قد فقد بعصيانه حياة الاستقامة التي خلقه الله عليها وأصبح خاطئاً قبل أن ينجب نسلاً ، إذاً كان أمراً بديهياً أن يولد أبناؤه جميعاً خطاة بطبيعتهم نظيره ، لأننا مهما جلنا بأبصارنا في الكون ، لا نجد لسنة الله تبديلاً أو تحويلاً . ولذلك قال الوحي:« بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم » (رومية ٥ : ١٢ ـــ ٢١) . وقد شهد داود النبي بهذه الحقيقة من قبل ، فقال عن نفسه:« هأنذا بالاثم صُوِّرت وبالخطيئة حبلت بي أمي » (مزمور ٥١ : ٥) . وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الفلاسفة والعلماء ، فقال هكسلي وكانت : « هناك أصل للشر في الطبيعة البشرية ، مما يدل على أن قصة السقوط (أي سقوط آدم في الخطيئة) صحيحة » .

٣ ـــ آراء الذين ينكرون تسرب الخطيئة من آدم إلى البشر جميعاً : أما الذين أنكروا تسرب الخطيئة من آدم إلى البشر جميعاً ، فقد ذهبوا مذاهب متعددة ، وفيما يلي هذه المذاهب مصحوبة بالرد عليها :

(ا) [إن البشر لم يولدوا من رجل واحد مثل آدم ، حتى كان من الجائز أن يشتركوا معاً في طبيعة خاطئة واحدة] .

الرد : إن وجود أصل واحد للبيض والزنوج (كما قال السير أرثر كيث وغيره من العلماء) ، ووحدة أصل اللغات (كما قال مكس مولر وغيره من العلماء)، وتشابه

الناس جميعاً في أجسامهم وكيفية تغذيتهم وتناسلهم ودرجة حرارتهم وسرعة نبضهم (كما نعلم جميعاً) ، كل ذلك يدل على أنهم مولودون من أصل واحد ، أو بالحري من رجل واحد .

(ب) [إن الله خلق منذ القديم أرواح البشر جميعاً وأوصاها أن تطيعه وتحفظ وصاياه ، غير أنها تمردت عليه وخالفت هذه الوصايا ، لذلك أوجدها في ذرية آدم ليعطيها فرصة أخرى لاظهار طاعتها له . ومن ثم تكون خطايا البشر جميعاً خطايا ذاتية لا شأن لها بآدم] .

الرد : ليس هناك أي دليل ديني أو عقلي أو تاريخي يثبت أنه كان لنا وجود فعلي قبل ولادتنا من أمهاتنا ، أو أننا فعلنا خطيئة ما قبل ولادتنا منهن .

(جـ) [إن وجود الطبيعة الخاطئة في البشر ليس ناشئاً عن ولادتهم من آدم ، بل عن عصيانهم الشخصي معه ، لأن ناسوت آدم وناسوتهم جوهر عام واحد] .

الرد : (ا) بنى اصحاب هذا المذهب قولهم المذكور على المُثُل الأفلاطونية ، فزعموا كما قال أفلاطون إن الله أوجد البشرية قبل أفرادها ، مثّلها في ذلك مثَل المغناطيسية التي أوجدها تعالى في العالم قبل ظهور حجر المغناطيس . وبناء على ذلك يقولون إن البشرية القديمة تحل بكل خواصها في كل إنسان يُولد في العالم ، كما تحل المغناطيسية بكل خواصها في حجر معيّن ، فيصبح حجر المغناطيس . وهذا المذهب لا نصيب له من الصواب ، لأن حجر المغناطيس لم ترد إليه المغناطيسية من الخارج في أي عصر من العصور ، بل وُجد ، أول ما وجد ، والمغناطيسية كامنة فيه .

(ب) كما أنه ليس هناك دليل على أننا كنا متحدين مع آدم في الجنة بأي شكل من الأشكال ، أو أننا أخطأنا بالفعل معه هناك . فضلاً عن ذلك فكل منا مستقل بذاتٍ تمام الاستقلال . فلآدم ، كما لكل واحد منا ، شخصيته التي لا يشترك معه فيها إنسان غيره . ومن ثم فإن الطبيعة الخاطئة وإن كانت قد انتقلت إلينا من آدم ، غير أننا لم نرتكب شخصياً أية خطيئة عملها آدم أو شخص غيره .

(د) [إن سبب الخطيئة هو : اضطراب في النفس أو في الغدة النكفية ، أو مركب النقص الموجود في اللاوعي] .

الرد : إن اضطراب النفس والغدة النكفية ، وأي مركب نقص في اللاوعي ، لا يؤدي إلى عمل الخطيئة ، الا إذا كان الميل إليها قابعاً في الطبيعة البشرية . فاضطراب مياه البحار بواسطة العواصف (مثلاً) ، ليس هو الذي يكوّن الأعشاب البحرية في

البحار ، بل يهيىء لها فقط سبيل الظهور على سطح البحار .

وإذا كان الأمر كذلك ، أدركنا أن أصحاب هذه المذاهب قد شطوا عن جادة الصواب ، لكي تكون لهم فقط آراء خاصة . أما الحقيقة التي شهد بها وأيدها الاختبار ، فهي أن الطبيعة الخاطئة التي فينا قد تسربت إلينا بالولادة من آدم الذي تناسلنا منه جميعاً ، كما اتضح لنا مما سلف .

٤ ــ نتائج ولادة البشر بالخطيئة : بما أن الخطيئة تسربت وتتسرب إلى البشر بالوراثة ، وبما أن قانون الوراثة قانون عام تخضع له جميع الكائنات الحية ، لذلك كان أمراً بديهياً بعد أن تسربت الخطيئة إلى البشر ، أن يصيروا جميعاً خطاة بأفعالهم كما وُلدوا خطاة بطبيعتهم . ولذلك قال الوحي : « ليس بار ولا واحد . ليس من يفهم (فهماً روحياً) ليس من يطلب الله . الجميع زاغوا وفسدوا معاً ، ليس من يعمل صلاحاً ، ليس ولا واحد » (رومية ٣ : ١٠ ــ ١٢) . كما قال: « لأنه لا فرق ، إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله » (رومية ٣ : ٢٢ ، ٢٣) ، ولذلك صاح داود النبي مرة قائلاً لله : « لا تدخل في المحاكمة مع عبدك ، فإنه لن يتبرر قدامك حي » (مزمور ١٤٣ : ٢). [اعتاد الناس أن يفرقوا بين إنسان وآخر ، فيقولون مثلاً : إن هذا الانسان أفضل من ذاك . لكن ليس هذا هو الحال في نظر الله ، لأنه ليس هناك واحد من البشر لم يفعل خطيئة واحدة في حياته ، ومن يفعل خطيئة واحدة ، يكون خاطئاً لا باراً] .

أما الاعتراضات التي توجه ضد الحقائق السابقة ، ففيما يلي بيانها والرد عليها :

١ ــ [أليس للبيئة تأثير عظيم على الانسان] ؟

الرد : طبعاً لها تأثير عظيم عليه ، فإن كانت شريرة ساعدت على نمو الخطيئة واستفحال أمرها في الانسان . وإن كانت صالحة حدّت من نشاط الخطيئة لديه . لكن لا قدرة للبيئة الصالحة على استئصال الميل إلى الخطيئة من الانسان ، أو الحيلولة دون تسرب هذا الميل إليه . والدليل على ذلك أن الخطيئة توجد في أرقى البيئات ، كما توجد في أدناها سواء بسواء .

٢ ــ [ليس كل أبناء الأشرار يعملون شروراً مثل آبائهم ، فكيف يقال إن كل البشر يولدون خطاة بالطبيعة لأن آدم ، الذي وُلد منه أجدادهم منذ آلاف السنين ، قد أخطأ مرة ؟] .

الرد : وإن كان بعض أبناء الأشرار لا يعملون شروراً مثل آبائهم ، لكن ليس هناك واحد منهم لم يخطيء على الاطلاق ، لذلك يكونون جميعاً خطاة ولا محالة . ومن ثم يكون السبب في وجود الخطيئة في البشر عامة يرجع إلى تناسلهم من آدم الذي هو أبوهم جميعاً كما ذكرنا . ولا غرابة في ذلك فإن خطيئته لم تكن إصابة في جسده حتى كانت لا تنتقل إلى أبنائه ، بل كانت إصابة في نفسه بعينها . كما أن هذه الاصابة لم تكن إصابة هيّنة ، بل إصابة غيّرت اتجاه نفسه تغييراً تاماً ، إذ بعد أن كانت في براءتها لا تهوى إلا خالقها ولا تعمل إلا ما يريده ، أصبحت تتوارى من حضرته وتعمل ما نهاها عنه ، وإصابة مثل هذه تنتقل طبعاً من الأب إلى أبنائه ، كما تنتقل العلل النفسية

٣ — [كيف يكون كل البشر خطاة ، ونحن نرى بينهم كثيرين من الصالحين] .

الرد : إن الصلاح (بمعنى عدم إتيان أي خطيئة بالقول أو الفكر ، مع القيام بكل أعمال الخير لكل الأصدقاء والأعداء على السواء ، دون انتظار لأي جزاء أو ثواب كما ذكرنا) ليس له وجود في البشر على الاطلاق . لذلك قال الوحي : « ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله » (لوقا ١٨ : ١٩) . أما أفضل البشر فهم أشخاص يقومون بخير أكثر من غيرهم ويخطئون أقل من غيرهم ، ومن ثم فالفرق بين البشر من جهة الخطيئة هو فرق نسبي فحسب ، لأنهم جميعاً خطاة بطبيعتهم وخطاة أيضاً بأعمالهم ، سواء كثرت هذه الأعمال أم قلّت .

ولعل أوضح دليل على ذلك أن نوحاً (تكوين ٩ : ٢١) وابراهيم (تكوين ١٢ : ١٢ ، ١٣) وأيوب (أيوب ٤٢ : ٢) وموسى (العدد ٢٠ : ٦ — ١١) وداود (مزمور ٥١ : ١) وإشعياء (إشعياء ٦ : ٥) وزكريا (لوقا ١ : ٢٠) وبطرس (لوقا ٢٢ : ٦١) ، وبولس (أعمال ٢٣ : ٣) ، وغيرهم من الرسل والأنبياء قد أخطأوا مثل غيرهم من الناس ، أما العصمة المسندة إلى الرسل والأنبياء في المسيحية ، فهي فقط في تبليغهم للرسائل التي كان الله يُوحي بها إليهم ، لأنهم كانوا عند تبليغها يقعون تحت سلطانه المطلق . ومن ثم لم يضيفوا إليها كلمة أو يحذفوا منها أخرى . ولذلك قيل بالوحي : « إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من شريعته » (متى ٥ : ١٨) . أما قول الوحي عن نوح إنه كان رجلاً باراً وكاملاً في أجياله (تكوين ٦ : ٩) ، وعن أيوب إنه كان رجلاً كاملاً ومستقيماً يتقي الله ويحيد عن الشر (أيوب ١ : ١) ، وعن زكريا وامرأته إنهما كانا بارين (لوقا ١ : ٦) ، فلا يُراد به أنهم لم يفعلوا خطيئة طوال حياتهم ، بل أنهم كانوا يهابون الله ويحاولون جهد الطاقة أن ينفذوا وصاياه ، كما كانوا يسرعون إلى تقديم الذبائح الكفارية له

عن كل خطيئة يفعلونها ، كما سيتضح بالتفصيل في الباب الثالث .

٤ ــ [إذا كان كل الناس خطاة ، أفليس أقلهم خطأ يمكن أن يكون مقبولاً لدى الله ؟] .

الرد : لنفرض أن طبيعة عمل ما تتطلب من الراغبين في الالتحاق به ، أن يكون مقياس نظرهم (٦ : ٦) . لكن بفحصهم وُجد أن نظر فريق منهم (٦ : ٩) ، ونظر فريق آخر (٦ : ١٢) ، فهل يجوز للفريق الأول أن يطالب بأحقيته في الالتحاق بهذا العمل دون الثاني ؟ طبعاً كلا . لماذا ؟ لأن مقياس النظر الذي يتطلبه العمل المذكور هو (٦ : ٦) . وهكذا الحال من جهة الكليات ، فإنه إذا اشترطت أشهرها (مثلاً) في طالب اللحاق بها أن يكون حاصلاً (مثلاً) على ٩٠٪ أو أكثر من مجموع الدرجات ، فان مَنْ كان مجموعه ٨٩٪ يتساوى مع من كان مجموعه أقل من هذه النسبة بقليل أو كثير ، لأن كليهما لا يُقبَل في هذه الكلية ــ وعلى هذا النسق نقول : بما أن اقترابنا إلى الله لا يتوقف على مستوانا الروحي في نظرنا أو نظر الناس ، بل على هذا المستوى في نظره تعالى . وبما أن الله كامل ولا يتوافق مع الكامل إلا الكمال ، إذاً ليس بيننا بكل أسف شخص ، مهما قلَّت خطاياه ، يستطيع أن يحظى في ذاته بالقبول لدى الله ــ هذه هي الحقيقة (أو بالحري الحقيقة المرة) ، التي يجب أن نضعها أمامنا من الآن ، حتى يتضح لنا السبيل الإلهي .

٥ ــ [مع قول المسيحية الطبيعة الخاطئة انتقلت إلى البشر بالوراثة ، تجعلهم غير مسئولين عن الخطايا التي تصدر منهم ، وهذا ما لا يتفق مع الحق على الإطلاق] .

الرد : (ا) إن المسيحية مع قولها إن الطبيعة الخاطئة انتقلت إلى البشر بالوراثة ، تعلن أنهم يعملون الخطيئة ، ليس رغماً عنهم ، مدفوعين في ذلك بغرائزهم وحدها ، كما هي الحال مع الحيوان ، بل يعملونها بإرادتهم أو بالحري نتيجة لموافقتهم الشخصية على تلبية رغبات هذه الغرائز . ومن ثمّ يكونون مسئولين عن كل خطيئة يعملونها ، لأن المسئولية لا تُرفع إلا عن الأطفال وفاقدي الرشد والصواب . ولذلك قال الوحي إن كل واحد منا سيعطي عن نفسه حساباً لله (رومية ١٤ : ١٢) ، كما قال إن الله سيحضر كل عمل من أعمال الناس إلى الدينونة ، سواء كان خفياً أم ظاهرياً (جامعة ١٢ : ١٤) فضلاً عن ذلك ليس هناك مجال أمام إنسان للاعتذار عن خطاياه بدعوى ضعف الإرادة ، لأنه لو أتى ضعيف الإرادة بإخلاص إلى الله ، لأعطاه الله طبيعة روحية جديدة تسمو به فوق أهواء الجسد سمواً عظيماً ، كما سيتضح في الباب السادس .

٦ — [هل من العدالة أن يُضار البشر جميعاً بسبب خطيئة ارتكبها آدم وحده ؟] .

الرد : الحقائق الراهنة أثبت من منطقنا نحن البشر ، لأن إدراكنا ليس كاملاً في كل الأمور . ومن هذه الحقائق مثلاً ، أن بعض الأبناء البررة يرثون من آبائهم العلل والعاهات التي تقشعر منها النفس . وإذا حاولنا أن نحكم عقولنا في أسباب انتقالها إليهم بشيء يسمى عدالة أو ظلماً، لا يسعنا إلا أن نقف مكتوفي الأيدي مقيّدي الفكر — وهذا ما يواجهنا تماماً في حالة آدم وانحدار الطبيعة الخاطئة منه إلينا جميعاً .

فآدم بحكم مركزه هو أبونا والنائب عنا جميعاً ، وهذه حقيقة لا يستطيع المنطق أن ينكرها ، سواء كانت معقولة عند بعض الناس أم غير معقولة . وهو بطبيعة مركزه هذا لا يمكن إلا أن تعود نتائج خطيئته علينا دون أن يكون لنا يد في ارتكابها ، مثله في ذلك مثل الآباء الذين تعود نتائج فجورهم وشرورهم على أبنائهم البررة . ومن ثم لا سبيل للاعتراض على اشتراكنا في نتائج خطيئة آدم بحال . ومع ذلك لا داعي لليأس أو الاعتراض ، فلقد تداخلت نعمة الله الغنية في أمرنا ، ففتحت لنا جميعاً باب الخلاص من الخطية ونتائجها مجاناً ، كما يتضح من البابين الرابع والخامس .

٧ — [لماذا لم يخلق الله إنساناً كاملاً من أول الأمر ، فكان يجنّب ذريته نتائج الخطيئة المريعة ؟]

الرد : خلق الله آدم في أحسن تقويم ، إذ خلقه في غاية البراءة دون أن يكون هناك ميل إلى العصيان فيه . ومن ثم لو كان الله قد خلق عوضاً عن آدم أي إنسان آخر ، لكان قد فعل ما فعله آدم مهما كان شأنه (ولا غرابة في ذلك فكل مخلوق يكون محدوداً ، وكل محدود لا يكون معصوماً من الخطأ) ، ولأصبح نسل الإنسان المذكور خطاة مثله أيضاً — ومع كلّ فقد أعلن الله لنا في كتابه أنه كما انتقلت الطبيعة الخاطئة إلينا دون ذنب جنيناه ، يأتي إلينا الخلاص منها ، ومن عقوبة الخطايا التي تصدر عنها كذلك ، منحة مجانية منه تعالى ، أو بالحري دون أي عمل من جانبنا سوى الإيمان الحقيقي ، كما سيتضح في الباب السابع .

فضلاً عن ذلك ، سيتضح لنا في الباب الأخير ، أنه كان خيراً لنا أن نولد كلنا من رجل واحد ونرث منه طبيعته الخاطئة ، من أن يُخلَق كلُ واحد منا بمفرده ويكون مسئولا بشخصه عن كل خطيئة يفعلها ، لأنه في الحالة الأولى يكون لنا جميعاً امتياز الحصول من الله على غفران كامل شامل بفضل نائب آخر اسمى من آدم بما لا يُقاس .

— ٣ —
تأثير الخطيئة بالنسبة لله

١ — **أسباب تأثيرها بالنسبة إلى الله** : يعتقد بعض الناس أن الخطيئة إذا كانت بين الإنسان وبين نفسه ، انحصر تأثيرها فيه وحده ، وإذا كانت بينه وبين إنسان غيره ، انحصر تأثيرها فيهما ، لأن الله بسبب روحانيته المطلقة هو أرفع من أن يتأثر (كما يقولون) بأي مؤثر خارجي — لكن هذا الاعتقاد لا نصيب له من الصواب للسببين الآتيين :

(ا) كلنا يعلم أن الكامل يُسرّ بالخير ويكره الشر ، إذ لا يُسر بالشر و يكره الخير إلا الكائن الذي لا يدرك معنى الكمال ، أو الجماد الذي لا حياة فيه أو شعور على الإطلاق . وبما أن الله فضلاً عن كونه كاملاً كل الكمال وحيّ إلى أبد الآباد ، هو الذي نهانا عن الشر وأوصانا بالخير ، إذاً فهو مع روحانيته المطلقة يتأثر بما نفعله من شر أو خير على نحو يتفق مع روحانيته هذه . لذلك قال الوحي عن الله إنه لا يطيق الإثم (إشعياء ١ : ١٣) ، وإن عينيه أطهر من أن تنظرا الشر (حبقوق ١ : ١٣) ، ومن ثم إذا فعل أحدنا خطيئة ضد نفسه أو ضد غيره ، لا يكون قد أساء إلى نفسه أو غيره فحسب ، بل وإلى الله قبل كل شيء آخر .

(ب) إن لله علاقة وثيقة بنا ، إذ فضلاً عن أنه خلقنا على صورته كشبهه مؤيداً إيانا بالمواهب العقلية والأدبية التي تفكر فيه وتسعى إليه ، فإنه بعث الينا بالكثير من الرسل والأنبياء ليعلنوا لنا أفكاره الطيبة من نحونا وما يجب علينا من تصرف إزاءه . وبما أن كل علاقة بين طرفين تتأثر بتصرفات أحدهما ، إذاً فكل خطيئة نأتيها ، تؤثر على علاقة الله بنا . وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الفلاسفة ، فمثلاً قال بسكال : « إن الإنسان يعتبر الله كأنه وثن ، إذا جعله موضوعاً للمعرفة فحسب ، وجرّده من عمله الجوهري الخاص بعلاقته معنا . أما الفلاسفة الذين يقولون إن الله لا يعبأ بشر الناس أو خيرهم ، رغبة منهم في تنزيهه تنزيهاً مطلقاً ، فهم في الواقع لا يسندون إليه الكمال المطلق كما يقولون ، بل يجردونه من صفات الكائن الأدبي تجريداً تاماً ، أو بالحري يجعلونه اسماً دون مسمى . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن كل خطيئة نأتيها ضد أنفسنا أو ضد غيرنا من الناس ، تكون موجهة ضد الله أولاً كما ذكرنا . ولذلك عندما أخطأ داود النبي ضد أوريا وامرأته قال لله : « **اليك وحدك** أخطأت ، والشر قدام عينيك

صنعت » (مزمور ٥١ : ٤) . كما أن يوسف الصديق عندما أبى أن يلبي الرغبة الآثمة التي عرضتها عليه امرأة فوطيفار ، قال لها : « كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله ؟! » (تكوين ٣٩ : ٩) .

٢ ــ مدى الإساءة التي نوجّهها إلى الله بسبب الخطيئة : وإن كنا لا نستطيع تحديد هذه الإساءة بسبب سمو الله عن إدراكنا سمواً لا حد له ، لكن نعلم أنه بارتكاب الخطيئة (أولاً) نحُول بين الله وبين الصلة الروحية الطيبة التي يريد أن تكون بينه وبيننا ، لأنه لم يخلقنا على صورته كشبهه إلا لتكون لنا هذه الصلة به . (ثانياً) ننكر فضله علينا ونستهين بعواطفه الكريمة من نحونا . (ثالثاً) نرفض شريعته ونكسر ناموسه ، وبذلك نتمرد عليه ونهينه في أرضه وعلى مرأى منه .

لذلك قال الوحي عن الخطاة إنهم لا يخشون الله (أرميا ٢ : ١٩) ويبغضونه بلا سبب (مزمور ٦٩ : ٤) ، ويرفضون شريعته (إرميا ٦ : ١٩) ، وينقضون عهده (يشوع ٧ : ١١) ، ويتمردون على شخصه (هوشع ١٣ : ١٦) ، ويسلبون حقوقه (ملاخي ٣ : ٨) ، ويُفسدون أمامه (نحميا ١ : ٧) ، ويهينون مقامه (مزمور ١٠ : ١٣ ، إشعياء ١ : ٢ و٣ ، ٤) ، ويحتقرون اسمه وينجسونه أيضاً (ملاخي ١ : ٦ ، حزقيال ٣٦ : ٢٠) ، لأن لسان حالهم إزاءه « ابعُدْ عنا ، وبمعرفة طرقك لا نُسرّ » (أيوب ٢١ : ١٤) ــ فالخطيئة ، علِمْنا أم لم نعلم ، هي أكبر إساءة نوجهها إلى الله ، ولذلك قال الوحي: « الخطيئة خاطئة جداً » (رومية ٧ : ١٣) . أما الاعتراض الذي يُوَجَّه ضد ما ذكرناه ، ففيما يلي بيانه والرد عليه :

[أليس الله أرفع من أن نهينه أو نسيء إليه بعصياننا] ؟

الرد : حقاً إننا لا نستطيع بعصياننا أن ننتقص شيئاً من مجد الله في ذاته ، كما أننا لا نستطيع بطاعتنا له أن نضيف شيئاً إلى مجده هذا ، لأنه كامل في ذاته كل الكمال ولا يتعرض للزيادة أو النقصان . لكن من ناحية علاقتنا به ووجوب طاعتنا له بوصفه خالقنا وولي نعمتنا ، فإننا بعمل الخطيئة نهضم من زاويتنا الخاصة حقوقه علينا ــ وهضمنا لحقوقه علينا إنكار لها وإساءة لشخصه أيضاً ، إذ يكون تعالى كما لو لم يكن هو خالقنا ووليّ نعمتنا !! فمجد الله الذاتي ، وإن كان كاملاً كل الكمال ولا يتعرض للزيادة أو النقصان ، بغض النظر عن طاعتنا لله أو عدم طاعتنا له كما ذكرنا ، لكن مجده الظاهري في علاقته بنا مرتبط كل الارتباط بتصرفنا إزاءه . ولذلك يقول تعالى : « الابن يكرم (بطاعته) أباه ، والعبد يكرم (بطاعته أيضاً) سيده . فإن كنت أنا أباً فأين كرامتي (في نظركم) ؟ وإن كنت سيداً فأين هيبتي (عندكم) » (ملاخي ١ : ٦) .

— ٤ —
تأثير الخطيئة بالنسبة للبشر

كلنا يعلم أننا إذا نقلنا حيواناً (مثلاً) من المنطقة الحارة إلى المتجمدة أو من هذه إلى تلك ، اضطرب جسمه وتعرض للموت تبعاً لذلك . وهكذا الحال ، إذا نقلنا حيواناً بحرياً إلى البر أو برياً إلى البحر . لكن إذا ظل كل حيوان في المجال الذي خُلق ليعيش فيه ، نما جسمه وعاش حياة طيبة — وعلى هذا النسق نقول : بما أن الله خلقنا لا لكي نعيش بمعزل عنه ، بل لكي نعيش في رفقته ومعيّته كما ذكرنا ، وبما أن كل كائن يبتعد عن المجال الذي خُلق للعيش فيه ، لا يمكن أن يهنأ أو يستريح ، إذاً كان أمراً بديهياً أن كل من يبتعد عن الله يتعرض للتعب والشقاء . وقد أشار الله إلى هذه الحقيقة فقال : « من يخطيء عني يضرّ نفسه » (أمثال ٨ : ٣٦) ، والأضرار التي يتعرض لها الانسان في العالم الحاضر بسبب الخطيئة ثلاثة أنواع : أضرار نفسية ، وأضرار أدبية ، وأضرار مادية ، كما يتضح مما يلي :

١ — **الأضرار النفسية** : فنحن نرى أن من يركض وراء الخطيئة ، كثيراً ما يحيا حياة القلق وعدم الاستقرار ، كما يتعرض أحياناً للأمراض النفسية التي يتعذر شفاؤها ، لأنه لا يجد في نهاية جهاده على الأرض هدفاً ثابتاً أمامه ، أو رجاء منيراً قدامه .

وإذا لم يتعرض لهذه الأمراض ، فإنه يحصر غايته في ثروة لا يلبث أن يتركها أو تتركه . أو في لذة (أو بالحري نشوة) سرعان ما يهجرها أو تهجره . أو في ولد إذا امتد به العمر فإنه يبكيه إذا توفي ، ثم لا يلبث أن يهتم بشئونه الخاصة وينساه . لذلك قال الوحي عن الخطيئة إنها تحني النفس (مزمور ٤٤ : ٢٥) وتملؤها بالذل والهوان (مزمور ١٢٣ : ٤) ، وتحرمها من الراحة والسلام (اشعياء ٤٨ : ٢٢) ، وتسلبها الوعي الروحي فتصبح أحط من نفس الحيوان (اشعياء ١ : ٣) .

٢ — **الأضرار الأدبية** : ولوجود الطبيعة الخاطئة في الانسان ، يصبح (إذا لم يتلقَّ حياة روحية من الله) عاجزاً عن الارتقاء فوق خطاياه . ومن ثم إذا تعهد يوماً بالاقلاع عنها ، وبذل كل ما لديه من جهد في سبيل تنفيذ تعهده هذا ، سرعان ما يُغلب على أمره . فإن لم يفعل الخطيئة في الظاهر ، قد يفكر فيها ويشتهيها في الباطن ، ومن ثم يعود من حيث أتى . لذلك فمثل الانسان في مقاومة الخطيئة بقوته الذاتية ، مثل الماء الذي لا يستطيع الارتفاع من تلقاء ذاته إلى مستوى أعلى من المستوى الذي هبط منه في أول الأمر ، كما نرى في تجارب الأواني المستطرقة . أو مثل الطائر الذي يسعى إلى الانطلاق

نحو السماء وهو مقصوص الجناح ، فإنه مهما حاول وجاهد لا يستطيع أن يرتفع فوق الأرض شبراً واحداً ــ وأول من شعر بهذه الحالة المريرة هو آدم وحواء ، فعندما أخطئا ، فقدا الصلة الروحية بالله ، كما أحسا بأنهما لا يستطيعان العودة إلى حالة البراءة التي كانا يتمتعان بها من قبل (تكوين ٣ : ٨) . وهذا العجز وذاك الفقدان يُعبَّر عنهما بالموت الأدبي ، والموت الأدبي هو أشر موت لمن يقدّر أهمية التوافق مع الله حق التقدير .

ولذلك قال الرسول للمؤمنين عن حياتهم السابقة في الخطيئة: « وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا » (أفسس ٢ : ١) ، كما قال عن نفسه قبل تمتعه بخلاص الله الكامل « الخطية قتلتني (أو بالحري قتلتني أدبياً) ، وأنها عاشت فمتُّ أنا (أو بالحري مت أدبياً) » (رومية ٧ : ٩ ــ ١١) . كما قال بعد ذلك: « لأن الارادة (لحياة الصلاح) حاضرة عندي ، وأما (عن القدرة التي تؤهلني) أن أفعل الحسنى (كما يريدها الله) فلست أجد (إليها سبيلاً) . لأني لست أفعل الصالح الذي أريده ، بل الشر الذي لستُ أريده إياه أفعل (بسبب الطبيعة الخاطئة الكامنة فيّ) . فإني أُسرّ بناموس الله بحسب الانسان الباطن (بسبب إخلاصي للحق) ، ولكن أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني (الذي يريد الصلاح) ، ويسبيني إلى ناموس الخطيئة الكائن في أعضائي . ويحي أنا الانسان الشقي ، من ينقذني من جسد هذا الموت » (رومية ٧ : ١٨ ــ ٢٤) ؟!

وليس هذا هو اختبار الرسول المذكور وغيره من الرسل والقديسين فحسب ، بل إنه أيضاً اختبار كثيرين من الفلاسفة والمفكرين . فمن المأثور عن هكسلي أنه قال : « إن الانسان قد برهن على أنه خاضع لعنصر وضيع يسيطر على كيانه بقوة هائلة . إذ أنه فريسة عمياء للدوافع نفسية متعددة تقوده إلى الشر والدمار ، وضحية مسكينة لأوهام لا حصر لها » .

٣ ــ الأضرار المادية : (ا) وبسبب الخطيئة كم من قويّ تهدمت صحته ، وشاب في مقتبَل العمر ذبلت نضارته ، ومثقف كان يزدان به المجتمع فقَدَ مكانته ! وكم من غني أصبح فقيراً وعظيم أضحى حقيراً ، ومحترم أمسى مهاناً ذليلاً ، وبسبب الخطيئة كم من خصام دبَّ بين العائلات راح ضحيته كثير من الأبرياء ، وكم من أمّة انحلّت عُراها فدالت دولتها وأصبحت أثراً بعد عين ــ لذلك قال الوحي إن الأهواء التي تجيش في نفوس الناس ، هي السبب في قيام الحروب والخصومات بينهم (يعقوب ٤ : ١) ،

وإنه بسبب امرأة زانية قد يفتقر الانسان إلى رغيف خبز (أمثال ٦ : ٢٦) ، وإنه بسبب الخمر يحل الشقاء والكرب (أمثال ٢٣ : ٢٩ و ٣٠) وإن الخطيئة بصفة عامة تمنع الخير عن الناس (ارميا ٥ : ٢٥) ، وتجلب عليهم العار (أمثال ١٤ : ٣٤) ، وتسبب لهم العلل والأمراض (تثنية ٢٨ : ٢٢) .

إننا لا ننكر أن أشراراً كثيرين يحيون حياة الرغد والسعة في العالم الحاضر ، وأن أتقياء كثيرين يحيون حياة الضيق والضنك فيه . لكن ليس هذا دليلاً على أن الخطيئة لا تورّث المتاعب والآلام (لأن هذا أمر لا يختلف فيه اثنان) ، بل دليلاً على أن الله في حكمته السامية يعامل كل إنسان بالمعاملة التي تُصلح من شأنه . فقد يُحسِن بخير جزيل إلى إنسان شرير ، لكي يتأثر ضميره ويتوب عن شره . وقد يسمح بالتجارب لإنسان يتّقيه ، إذا وجد أن حياة الرغد والسعة تحول بينه وبين التقدم في حياة التقوى ، التي هي أعظم حياة في الوجود .

(ب) وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، لأن الموت الجسدي الذي ترتعد لذكره فرائصنا وتتحطم عنده آمالنا وأمانينا ، ويورثنا الكثير من الحزن والأسى ، ليس إلا النتيجة الختامية للخطيئة في العالم الحاضر . فقد قال الله لآدم عن الشجرة المنهيّ عنها : « لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » (تكوين ٢ :١٧) ، كما قال له بعد الأكل منها : « لأنك تراب وإلى تراب تعود » (تكوين ٣ : ١٩) .

أما الاعتراضات التي تُوجَّه ضد هذه الحقائق ، ففيما يلي بيانها والرد عليها :

١ ــ [إذا كان الموت هو قصاص الخطيئة ، فلماذا لم ينفذ الله هذا القصاص في آدم بعد عصيانه مباشرة] .

الرد : إن الله لم يفعل ذلك لسببين : (الأول) بعد قيادته لآدم إلى التوبة والإيمان برحمته تعالى عن طريق نسل المرأة العتيد أن يسحق رأس الشيطان (تكوين ٣ : ١٥) ، نفذ حكم الموت الجسدي الذي كان يجب أن يحل بآدم ، في حيوان عوضاً عنه . وهذا الحيوان وإن كان في حد ذاته ليس بكاف للتعويض عن آدم لأنه أقل قدراً منه ، لكن لأنه كان رمزاً إلى كفارة أسمى منه بما لا يقاس (كما يتضح بالتفصيل في البابين الثالث والرابع) ، اكتسب وقتئذ القدرة الكافية للتعويض عن آدم أمامه تعالى . ومن ثم صار لله أن يطيل عمر آدم ما شاء ، كما لو كان مخلوقاً جديداً (الثاني) إن الله لم يخلق الأرض عبثاً بل هيأها للسكن (إشعياء ٤٥ : ١٨) ، لذلك كان من

البديهي أن يُبقي الله آدم بعد فدائه ، لكي يأتي بنسل يملأ الأرض وينعَم فيها بفضله تعالى من جهة الأمور الروحية والمادية معاً .

٢ — [إن موت آدم كان أمراً طبيعياً ولم يكن قصاصاً عن الخطيئة التي ارتكبها ، لأن جسده قابل للموت من تلقاء ذاته مثل أجسادنا] .

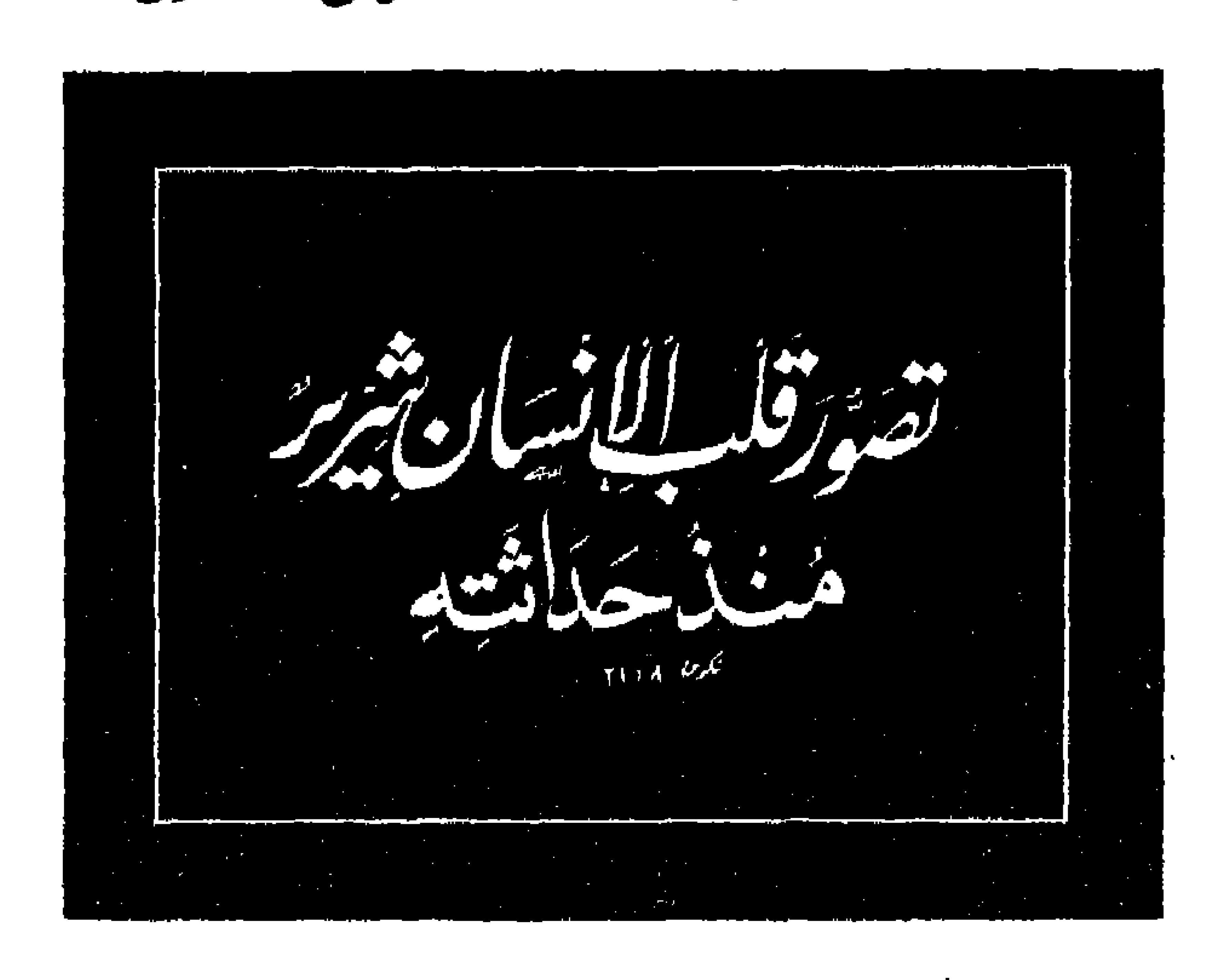
الرد : إننا لا نستطيع الجزم بما كان عليه جسد آدم في أول الأمر ، ولكن ما نستطيع الجزم به ، وهو أن جسده أصبح ، بعد السقوط في الخطيئة ، مثل أجسادنا تماماً ، قابلاً للموت والانحلال . فقد قال الوحي :« بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت ، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » (رومية ٥ : ١٢) .

ولو فرضنا جدلاً أن جسد آدم كان قد خُلق من أول الأمر قابلاً للموت ، وأنه عاش بعد ذلك في الجنة دون أن يعصى الله ، لكان تعالى قد حوّل جسده إلى جسد غير قابل للموت ، وذلك للأسباب الآتية (الأول) إن هذا التحول لم يكن يتعارض مع ناموس الطبيعة الثابت ، فدودة القز مثلاً ، تتحول إلى عذراء ثم إلى فراشة تطير في الهواء ، دون أن يعتريها بذلك أي تغيير في ذاتيتها.(الثاني) إن آدم بجسمه وروحه خُلق أصلاً للبقاء ، ويكفينا دليلاً على ذلك أن كل الأديان تنادي بأن البشر عامة سيقومون بعد موتهم بأجساد تبقى إلى الأبد . ومن ثم لا غرابة لو كان الله قد حوّل جسد آدم إلى جسد غير قابل للفناء ، لو كان آدم قد استمر في حالة الطاعة له تعالى . (الثالث) إن الوحي سجل لنا أن الله قبل أن يخلق آدم ، كان قد أعد له وسيلة كان من الممكن أن يحيا بها إلى الأبد ، وذلك في شجرة وضعها في الجنة أطلق عليهااسم « شجرة الحياة » (تكوين ٣ : ٢٢) ، (الرابع) إن العلم أنبأنا في العصر الحاضر أنه من الممكن إطالة عمر الانسان كثيراً ، وذلك بمحاربة أمراض الشيخوخة التي يتعرض لها — وقدرة الله على إطالة عمر الانسان ، بل وإطالته إلى الأبد ، تفوق قدرة العلم بدرجة لا تحد .

مذكرة توضيحية عن جنة عدن ، وعن شجرة الحياة :

الجنة التي خلقها الله لآدم كانت جنة مادية بها طعام وشراب ماديان ، وهذه الجنة قد اندثرت تماماً بواسطة الكوارث ، ولا سيما الطوفان الذي حلّ بالأرض في أيام نوح ، فلم يبقَ لها أثر على الإطلاق . ولذلك فالمؤمنون الحقيقيون لا يذهبون إلى الجنة بعد انتقالهم من العالم الحاضر كما يظن بعض الناس ، بل يذهبون (كما قال الوحي) إلى الفردوس ، أو بالحري إلى السماء الثالثة (٢ كورنثوس ١٢ : ٢ — ٤) ، وفي هذه السماء لا مجال للمتع الجسدية على الإطلاق . فقد قال الوحي عن الذين سيحظون بالوجود هناك ، إنهم لا يزوجون ولا يتزوجون كما أنهم لا يأكلون ولا يشربون ، إذ أن متعهم هناك ستكون من أولها إلى آخرها متعاً روحية محض (متى ٢٢ : ٣٠ ، رومية ١٤ : ١٧) . لأن هذه المتع هي التي تتوافق مع الأجساد الممجدة التي سيلبسونها في السماء ، كما تتوافق مع روحانية الله المطلقة .

وشجرة الحياة تكن هي شجرة « معرفة الخير والشر » التي نهى الله آدم عن الأكل منها من قبل ، بل كانت شجرة غيرها (تكوين ٢ : ٩) . كما أن شجرة الحياة هذه لم تكن في ذاتها هي التي ستمنع الموت عن آدم وزوجته لو كانا قد أكلا منها ، لأنها كانت شجرة مادية ، والأشياء المادية لا تستطيع أن تهب حياة أبدية لمن يأكل منها ، لكنها كانت رمزاً إلى المسيح (رؤيا ٢٢ : ١٤) الذي يستطيع أن يهب هذه الحياة ، لكل من يتغذى روحياً به (يوحنا ٦ : ٥١) . وطبعاً لم يسمح الله لآدم بالأكل من شجرة الحياة بعد سقوطه في الخطيئة (تكوين ٣ : ٢٤) ، لئلا يحيا إلى الأبد في خطاياه ، فيكون ذلك وبالاً عظيماً عليه وعلى نسله إلى الأبد .



ــ ٥ ــ

الخطيئة والآلام الذاتية الأبدية

١ ــ **تأثير حضرة الله** : إن معظم الذين يفعلون الخطيئة في الزمن الحاضر لا يدركون شناعتها أو خطورتها ، ولذلك لا يحسبون لها حساباً . غير أن موقفهم هذا سوف لا يدوم طويلاً ، لأنه سيأتي يوم ــ ولابد أن يأتي ــ فيه يرون أنفسهم وجهاً لوجه أمام الله الذي كانوا يسيئون إليه ويتجاهلون حقوقه ، وحينئذ يدركون أن خطاياهم شنيعة وخطيرة بدرجة لم تكن تخطر لهم ببال ، ومن ثم فإنهم سيرتعبون رعباً ليس بعده رعب ، ويفزعون فزعاً ليس بعده فزع . فقد ذكر الوحي أن بيلشاصر الملك [أحد ملوك بابل القدامى ، وكان قد أهان في كبريائه الله جل شأنه إهانة بالغة]عندما شعر بقضاء الله يهبط عليه « تغيّرت هيئته وأفزعتْهُ أفكاره وانحلّت خرز حقويه واصطكت ركبتاه » (دانيال ٥ : ٦) ، كما ذكر أن الملوك والعظماء (الذين سيكونون أحياء على الأرض عند ظهور الرب للدينونة) ، سوف يخفون أنفسهم في الكهوف والشقوق ، وهم يقولون للجبال والصخور : اسقطي علينا واخفينا من وجه الجالس على العرش (رؤيا ٦ : ١٦) . لكن لن تسمع الجبال لندائهم ولن تستجيب الصخور لصراخهم ، إذ ليس هناك شيء في الوجود يستطيع أن يحجبهم عن الله ، ومن ثم سوف يظلون في رعب ليست له نهاية .

٢ ــ **تأثير الضمير** : كلنا يعلم أن الضمير أُودع فينا ليهدينا سواء السبيل ، وذلك بالتأنيب على فعل الشر والتشجيع على فعل الخير . وبما أن الذين يأتون الخطيئة في العالم الحاضر ، كثيراً ما يلتمسون الأعذار لأنفسهم ، فيخدّرون ضمائرهم ويُخمدون أصواتها . وبما أنه ليس في عالم الروح مجال لتخدير الضمير واخماد صوته ، لذلك فالضمائر النائمة الآن ، لابد أن تستيقظ في الأبدية ، وهناك سيرى الخطاة بطلان الأمور الدنيوية التي كانوا يفنون فيها صحتهم ويضيّعون فيها ثرواتهم ووقتهم ، فيندمون ويتحسرون ، ويكتشفون خيبتهم في تضليل أنفسهم بالتماس الأعذار الواهية ، فينوحون ويتوجعون ، ثم يقدّرون إحسان الله الذي كان يتهاطل عليهم دون أن يعبأوا به ، فيبكون ويولولون ، إلى أبد الآباد ، لأنه ليس هناك من يرحمهم أو يشفق عليهم .

٣ ــ **الوحشة في الأبدية** : وبما أنه لا يوجد في عالم الروح أثر للشهوات التي يلهو بها الناس في دنياهم ، أو العلاقات التي يجدون فيها سلواناً لأنفسهم ، أو الأعمال التي تشغل أفكارهم وتصوراتهم ، لأن عالم الروح لا تأثير فيه لغير الله . لذلك فالأشرار

سوف يشعرون بوحشة لا نظير لها ، إذ لن تكون لهم علاقة ، ليس مع الله أو قديسيه فحسب ، بل ولا مع الأشرار الذين كانوا على شاكلتهم في العالم الحاضر أيضاً ، ومن ثم سوف لا يكون هناك من يواسي الخطاة ويعزيهم ، أو يُنسيهم همومهم وآلامهم ، أو يهوّن عليهم من خَطْبهم ومصابهم .

٤ ــ **القصور الذاتي** : إن الطبيعة البشرية المنحرفة عن الله ، لا تتغير على الإطلاق مهما نال المرء الكثير من التهذيب والتعليم،كما ذكرنا في الفصل الثاني . ولذلك فالذين لم يحصلوا في العالم الحاضر على طبيعة روحية من الله تؤهلهم للتوافق معه في صفاته الأدبية السامية ، سوف يجدون أنفسهم في الأبدية عاجزين أيضاً عن هذا التوافق مهما بذلوا في سبيله من جهد . وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من العلماء ، فقال صموئيل جونسون : « إن الحالة التي تسود علينا في العالم الحاضر ، ستظل سائدة علينا في العالم الآخر » .

ولذلك لو فرضنا أن الخطاة استطاعوا أن يفلتوا من مصيرهم المرعب ، وينطلقوا لكي يسترضوا الله ويدخلوا في علاقة جديدة معه ، لا يمكن أن يظلوا في حضرته لحظة واحدة . ومن ثم فلن يسعهم سوى النكوص على أعقابهم متباعدين بعداً عظيماً عنه ، مثَلهم في ذلك مثَل الحشرات التي ألفت العيش في الظلام بسبب موافقته لطبيعتها ، فإنها إذا خرجت إلى سطح الأرض ليلاً وأحست بضوء ما ، سرعان ما تعدو إلى جُحرها لتختبيء وتتوارى في ظلمته ــ هذا هو القصور الذاتي الذي يحول بين الخطاة وبين تغيير سلوكهمْ في الأبدية ، ويقطع من أمامهم كل أمل في النجاة من الشر الذي تشكلوا به في دنياهم ، ويورثهم آلاماً مريعة تحزّ في نفوسهم حزّاً وتوخزها وخزاً . وقد أشار الوحي إلى هذه الآلام فقال عن الخطاة إن نصيبهم في الأبدية هو البكاء وصرير الأسنان (متى ٨ : ١٢) البكاء بسبب شدة الألم ، وصرير الأسنان بسبب شدة الندم .

أما الاعتراضات التي تُوجَّه لهذه الحقائق ، ففيما يلي بيانها والرد عليها :

١ ــ [إن الإنسان ليست له روح قائمة بذاتها ، بل هو مجموعة مواد متآلفة معاً تقوم بأعمالها من تلقاء ذاتها] .

الرد : (ا) إن خلايا الجسم ، كما يقول العلماء ، في تغيير مستمر ، وإن الجسم اليوم غيره منذ شهور . ولكن على الرغم من ذلك ، نرى الانسان باق بذات كيانه الفكري والأدبي والاجتماعي ، كما يتذكر جيداً ما فعله أو صادفه منذ عشرات السنين ، ومن ثم لا

يمكن أن يكون مجرد مجموعة مواد متحدة معاً (كما يقال) ، بل لابد أنه قائم أيضاً بجوهر لا يتأثر بتغيير ذرات جسمه ، وهذا الجوهر هو ما يطلق عليه الوحي اسم « الروح » .

(ب) كما أن التلباثي (أي تبادل الأفكار بين إنسان وآخر) والهيبنوتزم (أي التنويم المغناطيسي) يدلان أيضاً على أن الانسان ليس مجرد مواد متحدة ، بل أنه قائم أيضاً بجوهر روحي،يرسل ويستقبل الأفكار المعنوية بطريقة غير مرئية. فضلاً عما تقدم ، فإن اهتداء الفنانين والعلماء أثناء نومهم إلى الموضوعات التي كانوا يعجزون عن الوصول إليها في يقظتهم ، يدل كذلك على أن الانسان قائم بجوهر روحي يمكن أن ينشط عندما يتحرر الانسان من المؤثرات الخارجية ، وهذا الجوهر هو ما يُسمّى الروح كما ذكرنا .

(جـ) هذا وقد أعلن الوحي بعبارات واضحة عن وجود روح الانسان ، فقال : إنه يوجد روح في الناس ، ونسمة القدير تعقّلهم (أيوب ٣٢ : ٨) . وقال أيضاً : « روح الانسان في داخله » (زكريا ١٢ : ١) ، وأيضاً « روح الانسان التي فيه » (١كورنثوس ٢ : ١١) . ولذلك قال داود النبي لله : « في يدك استودع روحي » (مزمور ٣١ : ٥) .

٢ — [إن كانت للانسان روح ، فهي لا تفرق شيئاً عن روح الحيوان]

الرد : (ا) إن جميع الحيوانات لم تظهر منذ نشأتها تقدماً ما ، وما كانت تعمله قديماً بالغريزة هو هو ما تعمله الآن دون تحسين أو تغيير ، فلغاية الآن لا يعمل الطائر سوى عشه ، والثعلب سوى جُحره ، والنحل سوى خليته ، وهكذا ... وإن كانت بعض الحيوانات قد تعلمت شيئاً جديداً ، فالفضل في ذلك للانسان الذي روّضها وهذبها . أما الانسان فقد أظهر منذ وجوده على الأرض ، ومن تلقاء ذاته أيضاً ، رقياً وتقدماً في كل الميادين العلمية والاجتماعية والسياسية والأدبية والدينية . كما أننا إذا رجعنا إلى التاريخ نرى أن ذكاء القدامى لا يقل عن ذكاء الناس في الوقت الحاضر . وحضارة قدماء المصريين والبابليين والأشوريين والكلدانيين التي ظهرت قبل الميلاد بآلاف السنين خير دليل على هذه الحقيقة ، الأمر الذي يدل على أن ذكاء الانسان فطري وليس مكتسباً . وقد شهد بهذه الحقيقة « برانكو » أعظم علماء الحفريات ، فقال بعد بحوثه الطويلة : « إن الانسان ظهر على الأرض فجأة بذكائه الموجود عليه الآن ، في أواخر العصور الجيولوجية » .

(ب) فضلاً عن ذلك ، فان الانسان لديه مبادىء سامية ليس لها نظير لدى الحيوان (مثل الأمانة والاخلاص والنزاهة والشرف والتضحية والعفاف) ، كما أن لديه القدرة على التمييز بين الخير والشر ، وعلى الاختراع والابتكار ، والارتقاء فوق الغرائز والميول . وليس ذلك فقط ، بل وعلى التفكير المنطقي المرتب ، والتعبير عن هذا التفكير باللسان والقلم . أضف إلى ذلك أن لكل إنسان شخصية قائمة بذاتها لها مميزاتها الأدبية والخُلُقية والنفسية التي لا يشترك معه فيها غيره . الأمر الذي لا يتوافر في الحيوان ، إذ أن كل نوع منه ، مع اختلاف أفراده الظاهري في اللون والشكل والحجم ، له صفات وخصائص واحدة .

(جـ) مما تقدم يتضح لنا أن الإنسان ليس مجرد جسم يتحرك بفعل الغرائز والحياة الطبيعية كما يفعل الحيوان ، حتى يجوز التساؤل إن كانت له روح تميزه عن الحيوان.، بل إنه قبل كل شيء هو عقل وفكر وإدراك . ومن ثم فإنه قائم بروح لا نظير لها في الحيوان ـــ وقد أدرك هذه الحقيقة سارتر فيلسوف الوجودية الحديثة ، فإنه مع عدم تديُّنه قال « إن الانسان يتميَّز عن الحيوان بوجود العقل فيه . فالحيوان عبد للطبيعة محكوم من الخارج بقوانينها ومن الداخل بغرائزه . أما الانسان فهو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يقاوم الطبيعة ، لأن له عقلاً يفهم به الأشياء : عقلاً لم يحْظَ الحيوان به . فالانسان إذاً لا شبيه له في الكون » ـــ وهذا العقل لا يمكن أن يكون شيئاً معنوياً كالصفات ، بل لابد أن يكون شيئاً حقيقياً ، له وجود ذاتي ، ومن ثم لا يكون سوى الروح الفاهمة ، عرف سارتر هذه الحقيقة أم لم يعرف .

٣ ـــ [إذا كان للإنسان روح تميزه عن الحيوان ، فهل يكون لها وجود بعد موته ، حتى يمكن أن تشقَى أو تسعَد ؟]

الرد : (ا) إذا كان جسم الإنسان المادي لا يفنى ، وأن كل ما يطرأ عليه من تغيير بعد الموت هو تحلله إلى عناصر منظورة أو غير منظورة بسبب تكوُّنه من مواد مختلفة ، فمن المؤكد أن الروح ، التي هي العنصر الجوهري في الإنسان ، لا تفنى أيضاً . كما أنها لا يمكن أن تتحلل إلى عناصر ، لأنها ليست مادية بل روحية .

فضلاً عما تقدم ، فإذا كان وجود الغرائز في الإنسان دليلاً على أن هناك مجالاً لاستثمارها وإشباعها كما نعلم جميعاً ، لذلك فإن غريزة حب البقاء التي تسيطر عليه دليل على أنه إذا مات جسده ، لا تفنى روحه بل تبقى . كما أننا إذا وضعنا أمامنا أن لكل مجهود يبذله الإنسان في هذا العالم ، نتيجة تتكافأ معه ، فالمجتهد له الثواب والمهمل

له العقاب ، أدركنا أنه لا يمكن أن يكون القبر هو النتيجة التي تنتهي إليها حياة الإنسان الصالح والطالح معاً ، بل لابد أن هناك عالماً آخر يحصد فيه كل منهما نتائج عمله ، الأمر الذي يدل على وجود روح الإنسان .

(ب) والحق أن الحياة لو كانت مقصورة على العالم الحاضر لكانت في جملتها بلا فائدة أو جدوى ، وهذا هو ما انتهى إليه الفيلسوف شوبنهور فقال:« الحياة سلسلة متواصلة من الألم . فأولها ألم وآخرها ألم ، وهي كوميديا مفجعة يتكرر تمثيلها من وقت إلى آخر » . والذين نسجوا على منواله احتقروا الحياة واستسلموا لليأس ، فضاقت الدنيا على سعتها في أعينهم ، ومن ثم انتحروا أو عاشوا حياة البؤس والشقاء — وهذا ما دعا روسو إلى القول:« إن فكرة عدم الخلود تحطم روح الإنسان ، وتدمر أنبل عواطفه » .

لولا الخلود ، لكانت الحياة خطأ في خطأ ، إذ تكون تعباً وعناء ثم فناء إلى الأبد ، الأمر الذي لا يتفق مع ناموس الكون الدقيق الذي نعيش فيه . فإذ أضفنا إلى ذلك (أولاً) أن روح الإنسان ، دون غيره من الكائنات ، هي نسمه أو نفخة من الله (تكوين ٢ : ٧) ، وأن الله خالد إلى الأبد ، ومن ثم فإن روح الإنسان لابد أن تبقى بمشيئته إلى الأبد أيضاً.(ثانياً) إن الله خلق الإنسان دون غيره من الكائنات على صورته كشبهه ، كما أرسل له دون غيره من الكائنات الرسل والأنبياء ، لكي يرشدوه إلى الحق والصواب ، الأمر الذي يدل على محبته الشديدة له — اتضح لنا أن الموت لا يمكن أن يكون نهاية حياة الإنسان ، بل وسيلة ينتقل بها إلى عالم آخر ، يكون فيه تحت تأثير الله دون سواه .

(جـ) وهناك آيات كثيرة تدل على أن الروح لا تفنى بعد موت الجسد ، فمثلاً قال الحكيم ، إن الروح ترجع إلى الله الذي أعطاها ، كما يرجع التراب إلى الأرض كما كان (جامعة ١٢ : ٧) . وقال إشعياء النبي لله:« تحيا أمواتك . تقوم الجثث » (٢٦ : ١٩) . وقال أيوب:« بعد أن يفنى جلدي هذا ، وبدون جسدي أرى الله » (١٩ : ٢٦) . وفي العهد الجديد أنبأنا المسيح في قصة الغني ولعازر أن الروح تبقى بعد موت الجسد لتُكافأ أو تُعاقب (لوقا ١٦ : ١٩ — ٣١) . كما قال للمؤمنين به:« لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها . بل خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم » (متى ١٠ : ٢٨) . وقال بولس الرسول:« لي اشتهاء أن أنطلق (أو بالحري أنطلق بروحي) وأكون مع المسيح ، ذاك أفضل جداً » (فيلبي ١ : ٢٣) . وقال بطرس الرسول إن أرواح الذين عصوا الله في أيام نوح ، موجودة الآن في السجن (أي الهاوية) (١ بطرس ٣ : ١٩) .

وقال يوحنا إن الذين قُتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله ، عاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة (رؤيا ٢٠ : ٤) . وقال يهوذا إن سكان سدوم وعمورة الأشرار سيكابدون عقاباً أبدياً (٧) .

(د) أخيراً نقول وإن كانت شهادة الوحي عن خلود الروح لا تحتاج إلى دليل بشري لتدعيمها ، لكن لفائدة الذين يريدون معرفة أقوال الفلاسفة بشأن هذا الموضوع نقول : إن المشهورين منهم نادوا ببقاء الروح . فقال سقراط « إنها لاتفنى » ، وقال أفلاطون « إن التفكك والفساد يلحقان بالمادة . وبما أن النفس بسيطة وإلهية ، لذلك فهي أبدية » . كما قال « إن كل كائن يسهم في فكرة معينّة لا يقبل ضدها . وبما أن النفس هي مصدر الحياة ، لذلك لا يمكن أن تقبل ما هو ضدها ، وهو الموت » . وقال ارسطو « إن في الإنسان كائناً يظل في الوجود بعد موته . وهذا الكائن هو روحه التي ليس لها نظير في النبات أو الحيوان » . وقال الرواقيون « إن النفس لا تفنى بل تعود إلى أصلها » — وعدا هذه الشهادات هناك شهادات متعددة لكثير من فلاسفة العصرين المتوسط والحديث ، لكن للاختصار نكتفي بالشهادات التي ذكرناها ، لأن أصحابها كانوا غير متأثرين بالإعلانات السماوية التي تنادي بخلود النفس ، بل كانوا متأثرين بوحي عقولهم وحدها .

٤ — [إن النفس هي الدم فمكتوب « لأن نفس الجسد هي في الدم » (لاويين ١٧ : ١١) . والدم يتلاشى بالموت ، لذلك فنفس الانسان لا يكون لها وجود بعد موته] .

الرد : فضلاً عن أنه لا يُفهم من هذه الآية أن النفس هي الدم بل إنها فيه ، فإن الآية المذكورة قيلت عن الحيوان لا الإنسان . ونظراً لأن الإنسان لم يُخلق على النسق الذي خُلق به الحيوان [لأن الله خلق الحيوان بمجرد الأمر ، لكنه خلق الإنسان بواسطة نسمة أو نفخة حياة أودعها بذاته فيه (تكوين ٢ : ٧)] ، لذلك كانت للإنسان روح عاقلة بالإضافة إلى نفسه (١تسالونيكي ٥ : ٢٣) التي هي مصدر ما فيه من نشاط جسدي . وكانت روحه باقية ببقاء الله لتتوافق معه إلى الأبد أو لتُحرم منه إلى الأبد — وكل ما في الأمر أنه لاقتران روح الإنسان بنفسه ، قد يُطلَق عليها نفسه .

٥ — [إن أرواحنا ، كما يقول بعض الصوفيين ، تفنى بالموت في الله ، كما تفنى مياه الأنهار في المحيطات ، ولذلك لا يكون هناك فرق بين أرواح الصالحين وبين أرواح الطالحين بعد انطلاق الفريقين من أجسادهما إلى العالم الآخر] .

الرد : إن الله ، وإن كان يريد أن تتوافق أرواحنا معه في صفاته الأدبية السامية ، لكنه لا يبغي من وراء ذلك إفناءها فيه ، بل إبقاءها في الخلود معه بشخصياتها الخاصة بها ، لأنه بدون ذلك لا تتحقق أغراضه السامية من خلقها . كما أنه ليس من المعقول إطلاقاً أن تفنى أو تذوب أرواح الأشرار في الله (إذا كان هناك مجال للفناء أو الذوبان فيه) وذلك لاختلافها عنه في صفاته كل الاختلاف .

٦ — [إن الإنسان عندما يموت يفنى ، لأنه لا يبقى للادراك أو الوعي وجود فيه ، كما أن القول بخلود الروح هو فقط أحد الآمال التي تجيش في أفئدة الفقراء والمظلومين الذين يريدون أن يسرّوا عن أنفسهم ، أو الأنانيين الذين يريدون أن ينالوا في العالم الآخر ثواباً عما يقومون به من صلاة أو صوم أو صدّقة . فضلاً عن ذلك فإن القول بالخلود يحد من جهاد الإنسان في خدمة المجتمع الذي يعيش فيه ، الأمر الذي يحول دون تقدمه] .

الرد : (ا) إن الادراك وإن كان من عمل المخ ، لكن المخ لا يأتي به من تلقاء ذاته ، وإلا لكان مخ الميت يدرك كما يدرك مخ الحي . وإذا كان الأمر كذلك ، عرفنا أن العامل في المخ للإدراك لابد أن يكون عنصراً روحياً قائماً بذاته ، وهذا العنصر هو الروح كما ذكرنا ، ومن ثم فإن موت الجسد وتعطل عمل المخ لا يدلان على فناء الروح ، بل يدلان على انطلاقها من الجسد .

(ب) كما أن الذين يقولون بخلود الروح ليسوا من الفقراء والمظلومين أو الأنانيين الذين يريدون أن يكون لهم ثواب بعد الموت ، كما يقال ، بل هم الفلاسفة والعلماء الذين يبحثون عن الحقيقة وحدها . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الخلود يضع الإنسانية في موضعها الصحيح كما يعطيها معناها السامي الرفيع ، وإن الذين يؤمنون إيماناً حقيقياً بالله والخلود يكثرون من عمل الخير في العالم تمجيداً لله وتنفيذاً لمشيئته على الأرض ، دون انتظار لجزاء أو ثواب ، اتضح لنا أن الاعتراض الذي نحن بصدده لا نصيب له من الصواب .

٧ — [إن الكتاب المقدس ينفي في بعض آياته بقاء أرواح الأشرار بعد موتهم ، لأنه قال عنها إنها تهلك (أمثال ١٠ : ٢٩) . كما يعلن في آيات غيرها أن الأرواح بصفة عامة مائتة (١كورنثوس ١٥ : ٥٣) ، ومن ثم فأرواح الأبرار سوف تتلاشى أيضا بالموت ، ذلك لأن الخلود هو لله دون سواه] .

الرد : (ا) إن الكلمة المترجمة إلى العربية « تهلك » ترد في اللغة اليونانية (التي هي اللغة الأصلية للكتاب المقدس) « ابليومى » ومعناها الحرفي الإصابة بدمار لا يُصلَح. وهكذا الحال في اللغات الأوربية جميعاً ، فمثلاً كلمة «Perish » الانجليزية المقابلة للكلمة اليونانية المذكورة أعلاه ، تدل فيما تدل عليه من معان ، على الضلال والفساد ولذلك فإن هذه الكلمة بعينها ترجمت « الضلال » في الآية « خراف بيت إسرائيل الضالة » (متى ١٠ : ٦) ، كما ترجمت « الهلاك » بهذا المعنى بعينه كما في الآية « جاء (المسيح) لكي يخلّص ما قد هلك (من البشر) »(متى ١٨ : ١١) ، أي من دمرته الخطيئة أدبياً ، لأنه إذا كان انسان قد هلك بمعنى فني ، لا يكون هناك مجال للسعي وراءه أو لخلاصه .

أما الجزء الثاني من الاعتراض فنقول : إن كلمة « المائت » في الآية الواردة في (١كورنثوس ١٥ : ٥٣) « وهذا المائت يلبس عدم موت » ، لا يُراد بها الروح بل الجسد . فقد قال الوحي في موضع آخر:« لا تملكنّ الخطيئة في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته » (رومية ٦ : ١٢) — وكلمة « المائت » هنا ، يُراد بها القابل للموت .

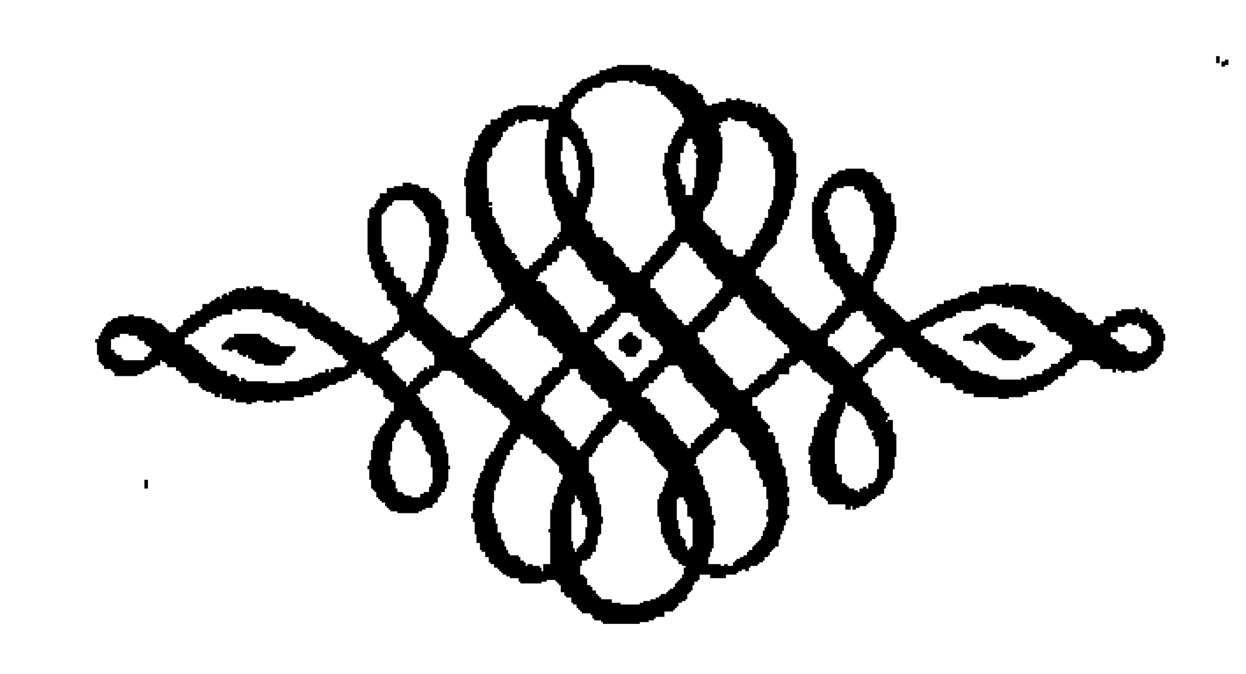
(ب) ولكي لا ندع مجالاً للالتباس من جهة معاني الألفاظ الخاصة بهذا الموضوع نقول : إن الخلود يُراد به الوجود الذاتي من الأزل إلى الأبد ، ومن ثم فهو خاص بالله دون سواه . أما البشر فليسوا من الأزل ، كما أنه من المحال أن يزولوا من الوجود ، كما تزول الحيوانات ، لأن الله بخَلْقه إياهم بنسمة أو نفخة منه ، جعل لأرواحهم خاصية البقاء . ولذلك فهم باقون ليس بفضلهم الذاتي ، بل بفضل الله عليهم ، لأنه هو الذي خلقهم على هذا النحو .

٨ — [إن الأرواح (كما يقول العلماء المتخصصون في دراستها) تمرُّ بعد خروجها من أجسادها في مراحل تصبح بعدها مهيّأة للوجود مع الله ، ولذلك لا يكون هناك مجال أمام أرواح الأشرار للألم والعذاب بعد الموت . وإن شعرَتْ بألم أو عذاب بعده ، فإن ذلك سيكون إلى حين وليس إلى الأبد] .

الرد : فضلاً عن أن العلماء الذين يدّعون أنهم « علماء الأرواح » قد ثبت انخداعهم بطرق شتى ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للأخذ بآرائهم ، نقول : إن الأرواح تنطلق من أجسادها بالحالة التي تكون عليها في هذه الأجساد . فإن كانت منحرفة عن الله وهي

في أجسادها ، ستكون منحرفة عنه كذلك بعد خروجها منها ، لأن طبيعتها لا تتغير كما ذكرنا فيما سلف . فضلاً عن ذلك فإن القول بمرور أرواح الأشرار بعد خروجها من أجسادها ، في مراحل تتهيأ بعدها للوجود مع الله ، يحط من شأن التقوى والقداسة والأمانة في العالم الحاضر ، كما يترتب عليه أن الأشرار يكونون قد أبغضوا الله ورفضوه وأساءوا إليه في هذا العالم ، وبعد ذلك يكونون قد استطاعوا أن يدخلوا سماءه ويتمتعوا فيها بالغبطة والهناء ، جنباً إلى جنب مع الذين أحبوه وأخلصوا له وأكرموه في حياتهم ، وهذا ما يتعارض مع أبسط البديهيات .

فالأرواح تنطلق إلى الأبدية حاملة معها صفاتها التي كوّنتها لذاتها في العالم الحاضر ، وتظل على هذه الحال إلى أبد الآباد . فإذا كانت لها علاقة مع الله وهي في هذا العالم ، ستكون لها أيضاً علاقة معه في سمائه إلى الأبد . وإذا لم تكن لها علاقة مع الله وهي في هذا العالم ، لن تكون لها أيضاً علاقة معه بعد ذلك ، بل تنطلق إلى هاوية العذاب بعيداً بعيداً عنه ، حتى يتقرر مصيرها النهائي في بحيرة النار حيث العذاب الجهنمي إلى الأبد (رؤيا ٢٠ : ١١ ــ ١٥) ــ والآيات الخاصة بالغني ولعازر الواردة في (لوقا ١٦ : ١٩ ــ ٢٦) ، خير دليل على الحقيقة التي ذكرناها .



— ٦ —
الخطيئة والعقوبة الإلهية الأبدية

١ ــ **عدالة العقوبة الإلهية** : إن شعور الخطاة في الأبدية بالآلام الذاتية المتعددة التي ذكرنا طرفاً منها في الفصل السابق ، لا يعفيهم من توقيع القصاص الإلهي عليهم بسبب خطاياهم . ولا غرابة في ذلك ، فشعور المجرمين بالحسرة والندم بعد القبض عليهم لا يعفيهم كما نعلم ، من توقيع القصاص القانوني عليهم . ومن ثم فالخطاة لابد أن ينالوا من الله عقاباً عن خطاياهم ، كبيرها وصغيرها ، حتى إن كانوا قد نالوا قصاصاً عنها في دنياهم بواسطة المحاكم الأرضية ، لأن عقاب هذه المحاكم ليس عن الإساءة إلى الله ، بل عن الإساءة الى المجتمع الذي يعيش فيه الناس .

٢ ــ **مدى العقوبة الإلهية** : بما أن قصاص الاساءة يتناسب تناسباً طردياً مع مكانة الشخص المسَاء إليه . فإذا وقعت إهانة على شخص قليل الشأن كخادم صغير في منزل ، كان قصاصها لا يُذكر ، وكان تعويضها (إن كان لابد من تعويض) ضئيلاً . أما إذا وقعت الإهانة على شخص عظيم القدر كملك أو حاكم ، كانت جريمة شنيعة تستحق عقاباً جسيماً لا مجال للتعويض فيه بحال . وبما أن الخطيئة هي إهانة لله الذي لا نهاية لمجده ولا حدّ لسموّه ، إذاً فالعقوبة المستحقَّة عنها هي عقوبة لا نهاية لها . ولذلك لا عجب إذا كان الله قد قال لآدم إنه يوم يأكل من الشجرة التي نهاه عنها « موتاً تموت » (تكوين ٢ : ١٧) . ومن مواضع كثيرة في الكتاب المقدس يتضح لنا أنه تعالى قصد بهذا الموت المؤكد ، الموت بأنواعه الثلاثة ، أي الأدبي والجسدي والأبدي . وقد تحدثنا فيما سلف عن النوعين الأولين من هذا الموت ، ومن ثم نحصر الحديث هنا عن الموت الأبدي .

إن الموت الأبدي هو المعبَّر عنه في الكتاب المقدس بالموت الثاني ، أو العذاب الأبدي (رؤيا ٢٠ : ١٤) ، وهو قصاص لا نهاية لمدته ، لأن الخطيئة كما مرّ بنا هي جريمة ضد الله الذي لا نهاية لمجده ، ولا حد لسموّه . لذلك قال الوحي عن الأشرار إن نصيبهم هو « البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذي هو الموت الثاني » (رؤيا ٢١ : ٨) . وهذه البحيرة هي جهنم التي لا تُطفأ نارها ولا يموت دودها (مرقس ٩ : ٤٤) — والنار هنا ليست طبعاً ناراً مادية ــ لأن المادة (بالمعنى المعروف لدينا) هي من خصائص الأرض وغيرها من الأجرام ــ ومع ذلك فمن المؤكد أن تأثيرها سيكون

للأسباب السابق ذكرها ، أشد من تأثير النار المادية بنسبة لا حدّ لها ، لأن الفرق بين الاثنين هو في الواقع الفرق بين الحقيقة والصورة الخاصة بها ، وهذا الفرق شاسع للغاية . كما أن الدود الوارد ذكره مع جهنم ليس دوداً بالمعنى الحرفي ، إذ أن المراد به وخزات الضمير وتأنيباته اللاذعة ، التي تحدثنا عنها في الفصل السابق .

مذكرة توضيحية عن جهنم :

يقول بعض الشراح إن كلمة « جهنم » مشتقة من كلمة « جي هنوم » أو « وادي هنوم » الذي كانت تُحرق فيه الضحايا البشرية كل يوم قرباناً للوثن مولك (٢ ملوك ٢٣ : ١٠) ، وكان من لا تصيبه النار من هذه الضحايا ، يصبح مسرحاً للدود . فاتخذ الوحي اسم « جي هنوم » الذي يعرفه الناس وأطلقه على مكان عذاب الأشرار الأبدي الذي لا يعرفونه . وجهنم ليست هي الهاوية ، لأن الهاوية بقسميها هي المكان العام الذي تنطلق إليه الأرواح بعد خروجها من أجسادها . والقسم الأول خاص بأرواح الذين لهم علاقة حقيقية مع الله ، ويدعى « الفردوس » (لوقا ٢٣ : ٤٣) ، والقسم الثاني خاص بأرواح الذين ليست لهم مثل هذه العلاقة معه ، ويدعى « السجن » (١بطرس ٣ : ١٩) . ولا شك أن الذين يدخلون السجن بأرواحهم وأجسادهم معاً ، فيتألمون قبل نزول هذا العذاب بهم . أما الذين يدخلون الفردوس بأرواحهم ، فيشعرون بشيء من السعادة الأبدية التي تنتظرهم عند قيامة أجسادهم من بين الأموات ، فيفرحون قبل قيامتهم بها .

٣ ـــ **الأساس الذي توقع عليه العقوبة** : بما أن من يرتكب خطيئة صغيرة في نظرنا ، يتعدى على شريعة الله ويحرم نفسه من التوافق معه ، شأنه في ذلك شأن من يرتكب خطيئة كبيرة سواء بسواء . إذاً لا غرابة إذا طالعنا الوحي بالقول:« من قال يا أحمق (فقط) يكون مستوجب نار جهنم » (متى ٥ : ٢٢) ، كما بالقول إن هذه النار بعينها يستحقها الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكذبة » (رؤيا ٢١ : ٨) . [لأن من يقول « يا أحمق » ، يكون مجرداً من المحبة للآخرين والعطف عليهم . وشخص مجرد من هاتين الصفتين لا يستطيع التوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية ، وبالتالي لا يستطيع التمتع به على الاطلاق . وعدم التمتع بالله أو الحرمان منه ، هو جهنم بعينها .

ولا يُراد بغير المؤمنين : المشركون والملحدون فحسب . بل يُراد بهم أيضاً المؤمنون بالاسم . لأن هؤلاء وإن كانوا يعترفون بالمسيح ويقومون بالفرائض أحياناً ، غير أنهم لا

يستطيعون التوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية ، مثلهم في ذلك مثل المشركين والملحدين تماماً] .

أما الاعتراضات التي تُوجَّه ضد هذه الحقائق ، ففيما يلي بيانها والرد عليها :

١ — [إن الخطيئة ليست جريمة بل مرضاً متأصّلاً فينا ، لذلك لا يكون موقف الله إزاءنا موقف القاضي الذي يحكم بالعقاب ، بل موقف الطبيب الذي يتولى العلاج] .

الرد : بما أننا وإن كنا ورثة الطبيعة الخاطئة من آدم ، غير أننا لا نأتي الخطيئة رغماً عنا بل بإرادتنا كما ذكرنا في الفصل الأول ، لذلك تكون الخطيئة التي نأتيها معصية أو جريمة . والمعصية أو الجريمة لا تُقابَل بالعطف بل بالعقاب ، إلا إذا تاب فاعلها توبة صادقة واعتمد على رحمة الله في الغفران الذي يتفق مع كمال صفاته جميعاً . فإنه في هذه الحالة يقف الله منه موقف الطبيب الذي يعالجه ويأخذ بناصره .

٢ — [إن الانسان ليس مسئولاً عن الشر الذي يعمله ، لأنه مجبَر على عمله بواسطة قوة أعظم منه ، سواء أكانت هذه القوة هي قوة الشيطان ، أم قوة الغرائز ، أم قوة الجبر الإلهي . وإن لم يعمل الانسان الشر بسبب إحدى هذه القوى ، فإنه يعمله بسبب العوامل الاجتماعية القاسية التي تحيط به ، ومن ثم لا تجوز معاقبته عما يأتيه من شر] .

الرد : إن الانسان مخلوق عظيم بل إنه أعظم مخلوقات الله قاطبة ، ومن ثم استطاع أن يسيطر على الطبيعة ويستغلها لفائدته ، كما استطاع أن يحلّق في الفضاء ويهبط على القمر وغيره من الكواكب ، مؤيداً بإرادته القوية وعقله الجبار . كما أن الشيطان ليست له (كما سيتضح في الباب التاسع) سلطة على الانسان ، إلا إذا انقاد الانسان بإرادته وراءه . وهكذا الحال من جهة العوامل الاجتماعية ، فإنه مهما كانت قسوتها ، لا تؤثر على الانسان إلا إذا تخلى عن عقله ورضخ لها . والدليل على ذلك أن بعض الفقراء يحيون حياة الأمانة والنزاهة ، وأن بعض الأغنياء لا أمانة لديهم أو نزاهة . أما الله فإنه لكماله المطلق ، لا يمكن أن يرغم أحداً على فعل الخطيئة . وإذا كان الأمر كذلك ، فالانسان هو الذي يفعلها بمحض إرادته ، ومن ثم يجب أن لا يتنصّل من المسئولية الملقاة على عاتقه ، أو يعارض فيما يستحقه من عقاب بسبب خطاياه .

٣ — [إن خطايا الإلحاد والاشراك وحدها هي التي يعاقب الله عنها ، أما الخطايا الأخرى فلا يعاقب عنها ، لأن البشر لهم العذر أو بعض العذر في إتيانها ، إذ أن طبيعتهم البشرية تدفعهم إليها] .

الرد : لا شك أن خطايا الالحاد والإشراك أشر من غيرها من الخطايا ولا علاقة لأصحابها مع الله ، لا في العالم الحاضر أو العالم الآخر . لكن يجب أن لا يغرب عنا أنه كما أن الملحدين والمشركين ليست لهم علاقة بالله ، فإن باقي الخطاة ليست لهم كذلك علاقة به ، لأنهم لا يتوافقون معه في قداسته وكماله ، ولأنهم أيضاً أساءوا إليه بمخالفتهم لشريعته التي أعطاها لهم . لذلك من البديهي ألاّ يكون لهم حق التمتع بالله في الأبدية ، وأن ينالوا فيها أيضاً ما يستحقونه من قصاص بسبب خطاياهم — أما الاعتذار عن مخالفتنا لشريعة الله بدعوى وجود طبيعة تميل إلى الخطيئة فينا ، فلا مجال له كما ذكرنا في الفصل الثاني .

٤ — [هل من العدالة أن يظل عذاب الخطاة إلى الأبد ، مع أنهم لم يستغرقوا في عمل خطاياهم إلا وقتاً محدوداً] ؟

الرد : إن العقوبة (كما ذكرنا فيما سلف) تتناسب تناسباً طردياً مع قدر الشخص المُسَاء إليه ، ومن ثم فعقوبة الخطيئة لا تُقاس بالنسبة إلى المدة التي عُملت فيها ، بل بالنسبة إلى شناعتها بوصفها إساءة إلى الله نفسه . وإذا كانت جريمة واحدة تُعمل ضد الدولة في دقائق معدودة ، قد يكون عقابها (كما نعلم) الاعدام ، أو الأشغال الشاقة مدى الحياة ، فلا غرابة إذا كان عقاب الخطيئة عذاباً إلى الأبد .

٥ — [هل من العدالة أن يطرح الله جميع الخطاة في جهنم إلى الأبد ، مع أن بعضهم أقل شراً من البعض الآخر] ؟

الرد : مرّ بنا أن الخطاة مهما قلّت خطاياهم قد أساءوا إلى الله ، كما أبعدوا أنفسهم عن التوافق معه ، ولذلك لا جدال أنهم جميعاً سيقضون الأبدية بعيداً عنه ، والبُعد عن الله مهما كان شأنه هو جهنم بعينها ، لأنه لا هناء للنفس إلا بالوجود في حضرة الله والتوافق معه كما ذكرنا فيما سلف . ومع ذلك ، فإنه وإن كان كل الخطاة سيكونون في جهنم إلى الأبد ، غير أن كلاً منهم سيشعر هناك بما يستحقه من عذاب عن خطاياه ، وذلك للأسباب الآتية :

(ا) إن الضمير سيكون مصدراً من مصادر العذاب الأبدي . ولذلك فمن فعل خطايا شنيعة ، سيكون تأثره بالألم أكثر من تأثر الذين لم يفعلوا مثل هذه الخطايا .

(ب) لله طرقه الخاصة لتحقيق عدالته بدرجة لا يجد الانسان أو غير الانسان معها مجالاً للاعتراض ، فقد قال الوحي « ... يستد كل فم ويصير كل العالم تحت قصاص من الله » (رومية ٣ : ١٩) .

(جـ) أخيراً إن الله ، كما أعلن الوحي ، « سيجازي كل واحد حسب أعماله » (رومية ٢ : ٦) . ولذلك نرى أن أهل كفر ناحوم (الذين كانت لهم فرص للخلاص لم يَحْظَ بشيء منها أهل سدوم) ستكون حالتهم في الأبدية أقسى من حالة أهل سدوم كثيراً (متى ١١ : ٢٣ ـــ ٢٤) .

٦ ـــ [كيف تتفق معاقبة الله للخطاة مع اتصافه بالمحبة والرحمة] ؟

الرد : إن الله يقدم أولاً للخطاة كل محبة ورحمة ، إذ يعرض عليهم الخلاص من دينونة خطاياهم مجاناً (بناء على كفارته العظيمة التي سنتحدث عنها في الباب السادس) ، لأنه يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون (١تيموثاوس ٢ : ٤) . ومن ثم فكل من يرفض محبة الله ورحمته ، يستحق أن يعامله الله حسب ناموس عدالته وقداسته . لأن صفاته لا تطغى إحداها على الأخرى ، وذلك لكمال كل صفة من صفاته .

ومن ثم إذا تساءل الناس : كيف يحب الله البشر ، وفي الوقت نفسه يسمح بمعاقبتهم من أجل خطاياهم ؟ فالجواب واضح كل الوضوح ، إذ فضلاً عن أن العقاب بسبب الخطيئة يتفق مع العدالة ، والعدالة لا اعتراض عليها من أحد ، فإن محبة الله ليست المحبة العمياء التي لا ترى العيوب والنقائص ، أو المحبة الدنسة التي ترضى عن الشرور والآثام ، بل هي المحبة المبصرة التي ترى كل الاشياء على حقيقتها ، وفي الوقت نفسه هي المحبة المقدسة التي لا ترضى عن هذه الشرور والآثام ، ومحبة مثل هذه لا تظهر فقط في العطف على الأتقياء الذين يحبون الله ويبذلون كل جهدهم للسير في سبيله ، بل تظهر أيضاً في النفور من الأشرار الذين لا يراعون قداسته ويفسدون أمامه . وإلا لكان تعالى يُسَرّ بخطاياهم وتعدياتهم ، وهذا ما لا يجوز إسناده إليه بحال . أضف إلى ذلك أن محبة الله التي تبعث إلى أتباعه بالفرح والابتهاج ، ستكون هي بعينها العامل الذي ، من ناحية أخرى ، يُشعِر الخطاة بأقسى أنواع الألم والعذاب ، لأنهم سيدركون في الأبدية أنهم رفضوا هذه المحبة واحتقروها مع أنها لم تكن تبغي إلا خلاصهم وإسعادهم .

٧ ـــ [إن معاقبة الله للخطاة تدل على أنه يتأثر ، والتأثر يقتضي التغيُّر ، والحال أن الله لا يتغير ، لذلك فإنه لا يعاقب الخطاة بل يترك أرواحهم وشأنها في الفضاء] .

الرد : بما أن الله يعرف كل الأشياء قبل حدوثها ، إذاً فكراهيته للخطيئة ليست متوقّفة على زمن ظهورها في العالم بل كانت لديه أزلاً . ولا غرابة في ذلك ، فإن هذه

الكراهية ليست إلا الوجه السلبي لكماله . ومن ثم فإنه عندما يعاقب الخطاة بسبب خطاياهم لا يثور ، كما نفعل نحن ، بل يسمح بتوقيع العقوبة عليهم باعتبارها ضرورة قانونية تتفق مع الكمال الذي يلازمه من الأزل إلى الأبد .

٨ — [ما الفائدة التي تعود على الله من معاقبة الخطاة] ؟

الرد : طبعاً إن الله بمعاقبته للخطاة لا تعود عليه فائدة ما ، لأنه كامل في ذاته كل الكمال ، ولا يعود عليه نفع أو خير من أي كائن من الكائنات . وكل ما في الأمر أنه بمعاقبته للخطاة يتحقق ناموس عدالته ، الذي يجب أن يتحقق مهما كانت الظروف والأحوال . ولذلك كما أنه إذا أمسك إنسان ناراً ، يحرق نفسه بنفسه ، كذلك إذا أساء أحد إلى الله ، يهلك نفسه بنفسه . وكما أنه لا يجوز للشخص الأول أن يلوم النار لعدم تحوّلها برداً وسلاماً عليه (لأن النار تحرق بناءً على ناموسها الطبيعي ، كل من يمسك بها) ، كذلك لا يجوز للثاني أن لا يلوم إلا نفسه عندما يرى ذاته في العذاب الأبدي ، لأنه ليس هناك أمامه مجال للاعتراض — إذ أن الناموس الإلهي هو أن من يتوافق مع الله ، يتمتع بالراحة والهناء . وأن من يبتعد عنه لا يكون نصيبه إلا التعاسة والشقاء . وقد أدرك الجاحظ ، أحد فلاسفة المسلمين المشهورين هذه الحقيقة فقال: « إن نار الآخرة تجذب أهلها إلى نفسها دون أن يدخل أحد (بنفسه) فيها . لأن طبيعة أهل النار وفاق النار ، وطبيعة أهل الجنة وفاق الجنة » (ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٣٥و ١٣٦) . ورأيه عين الصواب ، لأننا نعلم أن شبيه الشيء ينجذب إليه .

ولذلك إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس ، نرى أن الله لم يقل لآدم إنه يوم يأكل من الشجرة المنهي عنها يُميته ، بل قال له « يوم تأكل منها موتاً تموت (أنت بنفسك) » (تكوين ٢ : ١٧) . ولم يقل إن الله يجلب الضرر على من يخطىء عنه ، بل قال « من يخطىء عني يضرّ (هو) نفسه (بنفسه) » (أمثال ٨ : ٣٦) . ولم يقل إن الذين يبغضون الله يدفع بهم إلى الموت الأبدي ، بل قال إنهم يحبون (هم أنفسهم) هذا الموت (أمثال ٨ : ٣٦) .

٩ — [إن الله بسبب رحمته المطلقة لا يرضى أن تظل نفوس الخطاة معذبة إلى الأبد ، ولذلك لابد أنه سيفنيها بعد حين] . وهذا هو رأي جماعة « شهود يهوه » التي انحرفت عن المسيحية ، ورأي فرقة الجهمية التي انحرفت عن الاسلام . غير أن أتباع هذه الفرقة ذهبوا إلى أبعد مما ذهب إليه « شهود يهوه » كثيراً ، فقد قالوا إن الجنة والنار تفنيان ، وان أهل الجنة والنار ينتهون إلى حال يبقون فيها جموداً ساكنين سكوناً دائماً .

الرد : (ا) إن الله وإن كان رحيماً كل الرحمة ، لكن له قوانينه الخاصة التي تتفق مع عدالته المطلقة ، لذلك فالوحي مع إعلانه عن رحمة الله ، يقرر مبدأ معاقبته للخطاة بسبب خطاياهم . فقد قال « الرب إله رحيم ورؤوف ، ولكنه لن يبرىء إبراءً » (خروج ٣٤ : ٦ و٧) ، وبما أن الخطاة لا يستطيعون مهما طالت مدةوجودهم في العذاب ، أن يقوموا بإيفاء مطالب عدالة الله لأن هذه لا حد لها ، إذاً من البديهي أن لا ينتهي عذابهم عند حد ما — وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الاعتقاد بفناء النفس بعد حين يتعارض مع عدالة الله وعدم محدودية حقوقها ، وإنه في الواقع ليس سوى فكرة ابتدعها بعض الناس رغبة منهم في إزاحة شبح القصاص الأبدي عن خواطرهم . لكن أمام عدالة الله التي لا تحد حقوقها ، لابد أن تتبدد أفكارهم وتصوراتهم جميعاً .

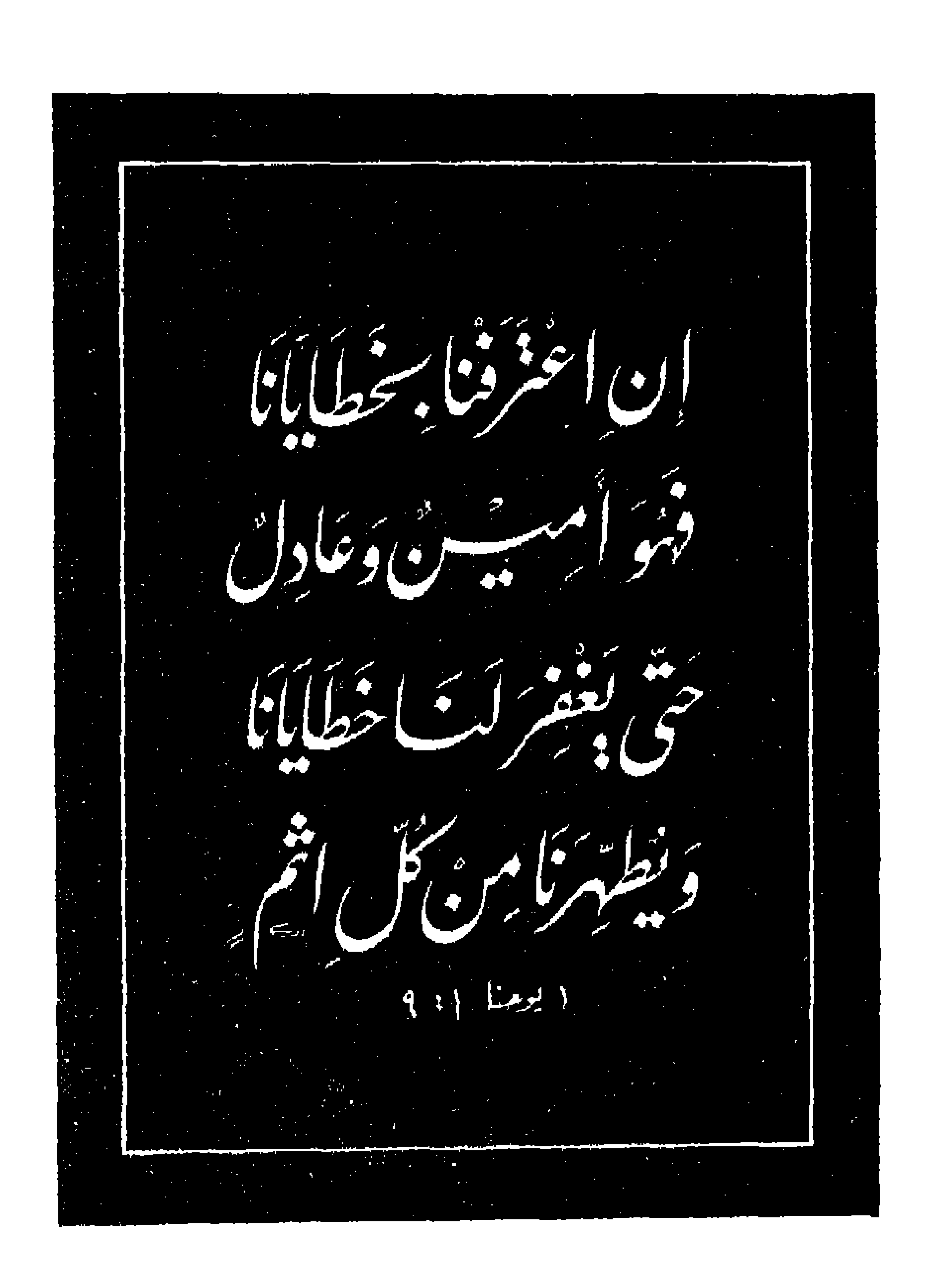
١٠ — [لكن هل تعجز رحمة الله عن الصفح عن الخطاة وتقريبهم إليه] ؟

الرد : كلا ، إن رحمة الله تتسع لقبول كل الخطاة التائبين ، لكن عدم توبتهم هي التي تجعلهم عاجزين عن التوافق معه . كما أنه بسبب كماله المطلق لا يأتي بهم إلى حضرته رغماً عنهم ، لأنه لو فعل ذلك لما شعروا بسرور أو راحة في البقاء معه ، ولسعوا تبعاً لذلك للارتداد بكل قواهم عنه . ومن ثم فحرمان العصاة من التمتع بالله ، وتعرضهم للعذاب الأبدي تبعاً لذلك ، ليس راجعاً إلى قسوة لدى الله من جهتهم ولا نقص في رحمته من نحوهم ، بل إلى شرهم وعدم رغبتهم في التوافق معه . أما من جهته فهو يحبهم ويعطف عليهم ولا يريد أي أذى لهم . فقد قال إنه لا يسر بموت الشرير ، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا (حزقيال ٣٣ : ١١) ، وإنه يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون (١تيموثاوس ٢ :٤) .

١١ — [إذا كنا جميعاً خطاة بطبيعتنا وأعمالنا ، وبناء على عدالة الله لا خلاص لنا من عقوبة خطايانا ، فهل سمح الله بولادتنا في العالم الحاضر لكي نشقى إلى الأبد] ؟!

الرد : هذا هو اعتراض الانسان المتمرّد على الحق ، والذي عوضاً عن أن يرى عيوبه ويلوم نفسه عليها ، يحاول أن يتنصَّل من تبعة خطاياه لعله يفلت من عدالة الله . فأي عقل راجح يمكن أن يتصوّر أن الله سمح بولادة البشر لكي يُشْقوا إلى الأبد ، ونحن نرى أن غاية الآباء المخلصين (مع ما يوجد بهم من نقائص) هي أن يُسعِدوا أبناءهم ويبعثوا الفرح والسرور إلى نفوسهم . لذلك لا يمكن أن يكون الله قد سمح بولادتنا في العالم الحاضر لكي نشقى إلى الأبد ، كما يقول أصحاب هذا الاعتراض . ولكننا نحن الذين في جهلنا نجلب الشقاء على ذواتنا بإساءتنا إلى الله ، وإلى أنفسنا أيضاً ، ومن ثم فلا يلومنّ أحد إلا نفسه .

ومع كلٍ فقد استطاعت محبة الله ورحمته أن تشقّا لهما طريقاً كريماً يتفق مع قداسته وعدالته ، لأجل خلاص الخطاة الراغبين بإخلاص في الرجوع إليه ، وذلك بإنقاذهم من عقوبة خطاياهم وتهيئة نفوسهم للتوافق معه في صفاته الأدبية السامية ، كما سيتضح بالتفصيل ابتداء من الباب الثالث . إنما نرى من الواجب قبل التحدث عن هذا الطريق الكريم ، أن نستعرض أولاً الطرق التي يلجأ إليها معظم الناس لكي يحصلوا حسب اعتقادهم على الغفران والقبول لدى الله ، لنرى إلى أي حد تجدي وتفيد .





الباب الثاني

الطرق البشرية للحصول على الغفران

معظم الذين يدركون شناعة خطاياهم يحاولون استرضاء الله بوسائل شتى ، حتى (حسب اعتقادهم) يغفرها لهم . وأهم هذه الوسائل هي الصلاة والصوم ، والتوبة والصدّقة ، والاستشفاع بالقديسين والصالحين ، كما ذكرنا في المقدمة . ولكي تتضح لنا قيمة هذه الوسائل بصفة عامة من جهة جواز الحصول على الغفران بها نقول : لنفرض أنه عندما حُكم على إنسان بالاعدام لقتله آخر عمداً (مثلاً) ، أخذ يستعطف القاضي ويتذلل أمامه ، أو امتنع عن الطعام والشراب أمداً طويلاً ، أو تعهد بكل إخلاص أن لا يرتكب جريمة أخرى ، أو وهب كل أمواله للفقراء والمساكين ، أو التجأ إلى ذوي الشأن لكي يقوموا له بدور الوساطة والشفاعة أو ... أو ... فهل تعتبر هذه التصرفات أمام نزاهة العدالة المطلقة ، أسباباً كافية لتبرئة الإنسان المذكور ، أو حيثيات قانونية لإلغاء أو تخفيف حكم الإعدام الصادر ضده ؟ طبعاً لا ، لأن التصرفات المذكورة لا تستطيع أن تعيد إلى قوانين الدولة كرامتها بالدرجة التي تصبح معها كأنه لم يُعتَدَ عليها ، ولا أن تعيد الحياة إلى القتيل حتى ينهض من موته ويحيا . ولذلك لا يمكن تبرئة هذا القاتل أو تخفيف الحكم الصادر ضده ، بل يجب تطبيقه عليه

وعلى هذا النسق تماماً نقول : بما أن الخاطىء لم يُفسِد فقط نفسه التي ائتمنه الله عليها ، بل تعدّى أيضاً على شريعته تعالى ، إن لم يكن قد أساء كذلك إلى بعض الناس . وبما أن صلواته مهما طالت ، وأصوامه مهما كثرت ، وصدقاته مهما عظمت ، وتوبته مهما صدقت ، وشفاعة القديسين والصالحين (إن كانت لهم شفاعة) ، لا تستطيع أن تفي مطالب قداسة الله وعدالته . لأن هذه الأعمال (أولاً) لا تستطيع أن تعيد إلى الخاطىء حياة الاستقامة التي كانت لآدم قبل السقوط في الخطيئة ، حتى يتيسّر له التوافق مع الله في قداسته وغيرها من الصفات الأدبية السامية . (ثانياً) لا تستطيع أن تُعيد إلى عدالة الله كرامتهابالدرجة التي تصبح معها كأنه لم يُعتَدَ عليها ، حتى تعتبر الأعمال المذكورة تعويضاً مناسباً لحقوقها [لأن عدالة الله لا حدّ لقدرها ، بينما الأعمال المذكورة محدودة في قدرها — والأمور المحدودة في قدرها لا تفي مطالب أمر لا حد لقدره] . إذاً فكل الأعمال الصالحة التي يعملها الخاطىء ، وإن كانت لها قيمتها وقدرها من نواح خاصة (كما سيتضح فيما يلي) ، غير أنها ليست بكافية لتأهيله للوجود مع الله أو التمتع بصفحه . ولا مجال للاعتراض على ذلك ، إذ أن الله بقدر ما هو رحيم رؤوف هو عادل وقدوس ، لأنه تعالى كامل كل الكمال من جهة كل صفة من صفاته . ومن ثم لا يمكن أن يغفر إلا إذا وُفّيت مطالب عدالته ، ولا يقرب أحداً إليه إذا كان هذا يستطيع التوافق معه في قداسته ، وغيرها من الصفات الأدبية السامية .

— ١ —
الصلاة وعلاقتها بالغفران

١ — ماهية الصلاة والغرض الحقيقي منها : الصلاة في المفهوم المسيحي ليست مجرد ترديد كلمات الحمد والتعظيم لله بما يصاحبها من وقوف وركوع ، أو مجرد توسلات للحصول على الصفح والغفران بما يرافقها من رفع أيدي وخفضها [كما يظن بعض الناس ، فاننا لا ننتقد السجود أو رفع الأيدي عند الصلاة ، لأن الكتاب المقدس قد أعلن لنا عن هذا وذاك . اقرأ مثلاً (أعمال ٢١ : ٥ ، رؤيا ٥ : ١٤ ، ١تيموثاوس ٢ : ٨) بل ننبه إلى أن هاتين الحركتين لا تجعلان للصلاة قيمة ما ، إذا كان القائم بهما غير حائز على رضى الله] لأن الصلاة قبل كل شيء هي الارتقاء بنفوسنا عن كل ما يتعلق بالعالم حتى نلتقي بالله في أقداسه ، ونحن في حالة التوافق معه في صفاته السامية . وفي هذا الجو السامي يمكن أن ندرك شيئاً من جلال الله ومحبته ، فنتعبد له ونشكره من كل قلوبنا (يوحنا ٤ : ٢٤ ، ١ تسالونيكي ٥: ١٨) . كما يمكن أن نعرف الأمور التي نحتاج فعلاً إليها ، فنطلب منها ما يتفق مع مشيئته (١يوحنا ٥ : ١٤) ، ونتقبل منه بعد ذلك بالإيمان إجابته الكريمة . فضلاً عن ذلك ، يمكننا أن نعرف في هذا الجو ، الخدمات التي يتطلبها الله منا في العالم الحاضر ، ونتقبل منه المعونة التي تساعدنا على القيام بها بكل دقة وإخلاص .

فالصلاة لدينا ، ليست فرضاً نقوم به كما يقوم العبد بواجب نحو سيده ، بل هي صلة متبادلة بيننا وبين الله جل شأنه ، لا نستطيع الاستغناء عنها لحظة . فنحن في حاجة اليها حاجتنا إلى الماء للارتواء أو الهواء للتنفس ، ومن ثمّ لم يعيّن الله لنا أوقاتاً محددة يجب علينا أن نصلي فيها . وذلك لثلاثة أسباب:(الأول) ليس هناك وقت أفضل من آخر لديه (الثاني) إنه على استعداد في كل الأوقات لسماع الصلاة (الثالث) إن حاجتنا إلى الله ليست مرتبطة بأوقات خاصة ، بل إننا في حاجة إليه في كل حين . لذلك وإن كنا نصلي في أوقات متفرقة من النهار ، يجب أن نحفظ قلوبنا في حالة الصلة المستمرة بالله . فقد قال الوحي:« مصلين بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح » (أفسس ٦ : ١٨). كما قال « لا تهتموا بشيء ، بل في كل شيء بالصلاة و الدعاء مع الشكر لتُعلَم طلباتكم لدى الله » (فيلبي ٤ : ٦) . وقال « صلوا كل حين » (لوقا ١٨ : ١) ، وصلوا بلا انقطاع (١تسالونيكي ٥ : ١٧) ولأجل جميع الناس (١تيموثاوس ٢ : ١) .

٢ ــ **شروط الصلاة في المسيحية** : يجب أولاً أن تكون بالروح والحق ، بعمل روح الله في النفس ، وذلك في حدود الحق الإلهي الصافي بعيداً عن الشعائر والطقوس البشرية . (يوحنا ٤ : ٢٤) ، وبالذهن أيضاً (١كورنثوس ١٤ : ١٥) ، وذلك مع القداسة القلبية التي تليق بالله (عبرانيين ١٢ : ١٤ ، مزمور ٢٤ : ٤) . (ثانياً) أن لا تكون منقولة عن أحد أو محفوظة عن ظهر قلب ، بل أن تكون من إنشاء المصلي بتأثير روح الله في قلبه (مزمور ٤٥ : ١) . (ثالثاً) أن لا تتكرر عباراتها بقصد إطالتها (متى ٦ : ٧) . (رابعاً) وإذا كانت الصلاة فردية ، يجب أن لا تكون على مرأى من الناس بل في المخدع ، إذ هناك يمكن للمصلي أن يختلي بالله ويناجيه (متى ٦ : ٥ ــ ٦) .

٣ ــ **عجز الخاطىء عن القيام بالصلاة** : في ضوء ما تقدم نقول : بما أن الخاطىء فضلاً عن أنه أساء بخطيئته إلى الله وكسر شريعته (الأمر الذي يحول بينه وبين مواجهة الله والمثول في حضرته) قد أصبح في ذاته عاجزاً عن التوافق معه في صفاته الأدبية السامية (ولا غرابة في ذلك ، فنحن نعلم أن اختلاف الطبائع يحول دون التوافق . فالدنيء لا يتوافق مع النبيل ، والبخيل لا ينسجم مع الكريم ، والنجيس لا يتآلف مع القديس ، وهلم جراً ..) ، لذلك فالخاطىء لا يستطيع أن يتصل من تلقاء ذاته بالله أو يتحدث معه ، وبالحري لا يستطيع أن يرفع صلاة حقيقية إليه ــ وإذا كان الأمر كذلك ، لا تكون صلاة الخاطىء سوى عبارات ينطق بها أمام من يتصوّر أنه الله ، ومن ثم يكون مثله مثل شخص يعيش في عالم الخيال ، أو ممثل يؤدي دوراً من الأدوار . وإن شئت ، فقُل مثل إنسان يرفع بوق (التليفون) إلى فمه ، ودون أن يتصل بأحد ما ... فإنه يتكلم ما شاء له الكلام ، لكن لا يكون هناك سميع أو مجيب .

أما الاعتراضات التي تُوجَّه ضده هذه الحقائق ففيما يلي بيانها والرد عليها :

١ ــ [إن الله لا يمكن أن يتغاضى عن صراخ الناس حتى الخطاة منهم ، لأنه على أي حال هو خالقهم ، والخالق لا يهمل خلائقه] .

الرد : لا شك أنه إذا وقع الخطاة في ضيقة ما ، وصرخوا من كل قلوبهم إلى الله ، فإنه ينقذهم من هذه الضيقة . لكن هذا الإنقاذ لا يدل على أنه قرّبهم إليه أو غفر لهم خطاياهم . ذلك لأن صراخهم له لا يُعيد إليهم حياة الاستقامة التي كانت لآدم قبل السقوط في الخطيئة ، حتى يستطيعوا التوافق مع الله في قداسته وغيرها من الصفات الأدبية السامية . أو يعيد إلى حقه قدسيته بالدرجة التي يصبح معها كأنه لم يعتد عليه

بواسطتهم ، حتى يصفح تعالى عنهم — ومن ثم فمثلهم والحالة هذه مثل جماعة من الأشرار أساءوا كثيراً إلى إنسان طيب القلب عظيم القدر ، ويعد ذلك دليلاً على أنهم أصبحوا بلا لوم أمامه ، أو صاروا من الخاصة الذين يطيب له العيش معهم .

٢ — [الخطاة إن لم يكونوا من الملحدين أو المشركين ، ليسوا بعيدين عن الله ، بل يعرفون الشيء الكثير عنه . ولذلك إذا طلبوا منه الغفران ، يغفر لهم ولا شك] .

الرد : هناك فرق كبير بين معرفة الله والمعرفة عن الله . فالثانية تدل فقط على إدارك بعض الأمور عنه ، أما الأولى فتدل على العلاقة الشخصية به والتوافق الكلي معه . « فمعرفة الله » ، وليس « المعرفة عن الله » ، هي إذاً التي تؤهل صاحبها للاقتراب اليه والإفادة منه . والآن لنتساءل : هل الناس الذين يعيشون في الخطيئة ، يعرفون الله ، أم يعرفون فقط عنه ؟ طبعاً إنهم لا يعرفونه ، بل يعرفون فقط عنه . لأنهم لو كانوا يعرفونه ، لكانوا يلتصقون به ، ولا يسيئون إليه . وإذا كان الأمر كذلك ، لا تكون لهؤلاء الناس علاقة شخصية بالله ، ولا يكون إيمانهم الذي يتشدقون به إيماناً حقيقياً بل إيماناً اسمياً ، والإيمان الاسمي لا وزن له ولا قدر عنده تعالى . فالشياطين أيضاً يؤمنون بالله ، ومع ذلك فإنهم بعيدون عنه كل البعد .

كما أن طلب الصفح والغفران وإن كان يدل على الرغبة في استرضاء الله والتقرب إليه ، لكنه في ذاته (أولاً) لا يعيد إلى حق الله قدسيته بالدرجة التي يصبح معها كأنه لم يُعْتَدَ عليه ، حتى يكون تعويضاً مناسباً له (ثانياً) لا يعيد إلى طالبي الغفران حياة الاستقامة التي كانت لآدم قبل السقوط في الخطيئة ، حتى يتسنَّى لهم التوافق مع الله في كماله كما ذكرنا ، لذلك لا يمكن أن يصفح الله عن الخطاة ويقرّبهم إليه لمجرد طلب الغفران منه .

٣ — [إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يتصل الصوفيون بالله ويرونه ويشعرون بسرور باطني في العلاقة معه ، مع أنهم خطاة مثلنا ؟]

الرد : الأتقياء من الصوفيين ، وإن كانوا على اختلاف أديانهم ، أفضل من غيرهم ، لانصرافهم عن أهواء العالم وتأملهم في الله دون سواه ، لكن إن لم يكونوا قد نالوا منه طبيعة روحية تؤهلهم للتوافق معه في قداسته وغيرها من صفاته الأدبية السامية ، وبواسطة ما وُفِّيت مطالب عدالته من نحوهم ، لا يمكن أن تقوم بينهم وبين الله علاقة حقيقية على الاطلاق ، ومن ثم يكون موقفهم من الله موقف غيرهم من الخطاة سواء بسواء . وإذا كان الأمر كذلك ، يكون السرور الذي يقولون عنه ، ليس

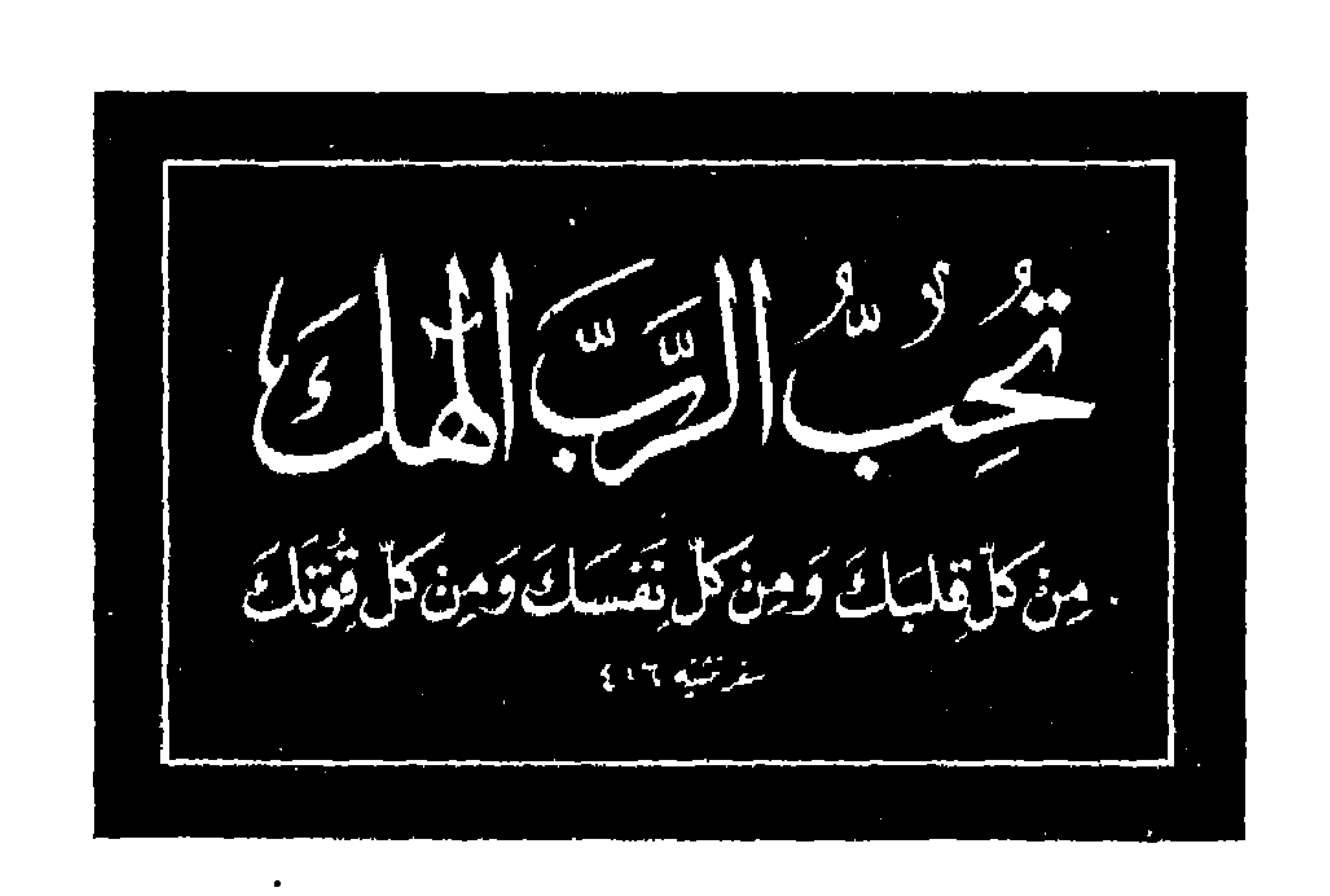
صادراً عن علاقة حقيقية لهم بالله ، بل عن تصوّرهم أن لهم علاقة معه ، وأنهم يقومون بالواجب عليهم من نحوه . ومن ثم يكون هذا السرور سروراً وهمياً لا حقيقياً ، ويكون شأنهم في ذلك شأن الناس الذين بسبب سيطرة عواطفهم على عقولهم ، كثيراً ما يعتقدون أن الخواطر التي تجول في نفوسهم ، هي حقائق واقعة أمامهم . ولذلك يتأثرون بها ويتحدثون عنها كأنهم يرون أحداثها فعلاً قبالتهم ، وهؤلاء الناس كما نعلم ، لا يوثق بكل خبر ينقلونه إلينا .

ومع كل فقد أعلن الوحي بعبارات لا تقبل الشك أن الله لا يطيق صلاة الخطاة ، وأنه ليست لهم علاقة به على الاطلاق . فقد قال « من يحوّل أذنه عن سماع الشريعة ، فصلاته أيضاً مكرهة » (أمثال ٢٨ : ٩) . كما قال للخطاة « آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم ، وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع » (إشعياء ٥٩ : ٢) [الآثام لا تفصل بين الله وبيننا ، بل بيننا وبين الله . وذلك لأنه تعالى يتوجّه إلينا بمحبته التي لا حدّ لها في كل حين ، داعياً إيانا للدنوّ منه والتمتع بهباته ، إنما نحن الذين في عنادنا أو قصورنا لا نتجاوب معه] . وقال الله لهم أيضاً :« حين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم ، وإن كثّرتم الصلاة لا أسمع » (إشعياء ١ : ١٥) . وقد اختبر داود النبي هذه الحقيقة فقال : « إنْ راعيْتُ إثماً في قلبي ، لا يستمع لي الرب » (مزمور ٦٦ : ١٨) . ولذلك قال إنه لا يستطيع أن يصلي لله إلا الطاهر اليدين والنقي القلب (مزمور ٢٤ : ٤) [المراد بطهارة اليدين ليس غسلهما بالماء ، بل خلوهما من عمل الشر ، إذ أنه قدوس كل القداسة ولا يطيق الإثم على الإطلاق .

فضلاً عن ذلك فقد أعلن الوحي أن الأنبياء والرسل أنفسهم لم يستطيعوا أن يواجهوا الله ، فموسى النبي مع كونه كليم الله ، قال عندما تجلى الله له:« أنا مرتعب ومرتعد » (عبرانيين ١٢ : ٢١) . وإشعياء النبي ، على الرغم من امانته وتقواه ، قال عندما رأى الله في رؤيا خاصة:« ويل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين ، لأن عينيّ قد رأتا الملك رب الجنود » (إشعياء ٦ : ٥) [أي رب الجنود السمائية ، أو الملائكة] . ويوحنا الرسول مع محبته الشديدة للرب وعلاقته القوية به ، سقط على وجهه كميت عندما تراءى له الرب في مجده (رؤيا ١ : ١٧) ، ذلك لأن الإنسان في طبيعته البشرية الراهنة ، لا يستطيع أن يمثل في حضرة الله مهما بلغ أسمى درجات التقوى . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الاتصال بالله والتمتع به بعيدان كل البُعد عن الخطاة ، مهما كثرت صلواتهم وتضرعاتهم .

٤ — [وهل يستوي الخاطىء الذي يطلب من الله بكل تذلل وإخلاص أن يرحمه ويغفر له خطاياه ، والخاطىء الذي لا يبالي بالصلاة ، أو يكتفي بالصلاة الشكلية التي لا قيمة لها ؟]

الرد : طبعاً لا يستويان ، بل من المؤكد أن الله ينظر إلى الأول بعين العطف والشفقة . لكن عطف الله وشفقته شيء ، والاعتقاد بأن الصلاة هي التي تجلب الغفران والقبول أمام الله شيء آخر . إذ أن الصلاة لأنها لا تكفي وحدها لإيفاء مطالب عدالة الله ، أو إعادة الإنسان إلى حالة الاستقامة التي كانت لآدم قبل السقوط في الخطيئة ، لا يمكن أن تكون ثمناً للغفران أو وسيلة للتمتع بالله . كل ما في الأمر أنها إذا كانت بإخلاص ، فهي تهيىء فقط القائم بها للحصول على هذين الامتيازين ، إذا وُفيت مطالب عدالة الله وقداسته من جهته بوسيلة إلهية خاصة ، كما كانت الحال مع كرنيليوس الوارد ذكره في (أعمال ١٠) — وهذه الوسيلة هي موضوع حديثنا في الأبواب التالية .



— ٢ —

الصوم وعلاقته بالغفران

١ — الأغراض التي يصوم الناس من أجلها : إن كثيرين يصومون إما للتمسك بعقيدة دينية ابتغاء مرضاة الله ، أو الشعور بالجوع حتى يعطفوا على الفقراء والمساكين ، أو للمحافظة على المظاهر الدينية بين إخوانهم ، أو لتحسين حالتهم الصحية على نحو ما — لكن هذه الأغراض بعيدة عن حق الله كل البُعد ، لأن العقيدة الدينية إن كانت لا تؤدي إلى التحرّر من الخطيئة والتوافق مع الله في قداسته وصفاته الأدبية السامية الأخرى ، تصبح فلسفة شخصية لا عمل لها إلا شحن العقل بنظريات وآراء خاصة . ولأن العطف على الفقراء والمساكين لا يتولد من الاحساس بالجوع ، بل من الخلق الكريم . والدليل على ذلك أن كثيرين من الصائمين لا يبالون في أثناء الصوم بهؤلاء أو أولئك . وإن تصدّقوا أحياناً عليهم في أثنائه ، قلما يبالون بهم بعد انتهائه . فضلاً عن ذلك لو كان الغرض من الصوم هو الإحساس بالجوع ، لما كان للفقراء أن يصوموا أبداً ، وذلك لإحساسهم بالجوع في كل يوم من الأيام ، ولأن الصوم لمجرد احترام المظاهر الدينية بين من نعاشرهم لا يُعتبر فضلاً في نظر الله ، بل رياء وتظاهراً منا بغير الحقيقة . ولأن تحسين الحالة الصحية ليس له علاقة بالله ، إذ كثيراً ما يستغل الناس صحتهم الجسدية في عمل الخطيئة ، ومن ثم فلا ثواب من الله لمن يصوم لأجل غرض من الأغراض المذكورة .

ولذلك قال الله للذين يصومون عن الطعام دون أن يُقلِعوا أولاً عن الخطيئة والشر : « لما صمتم ونحتم ، فهل صمتم صوماً لي أنا ؟ ولما أكلتم ولما شربتم ، أمّا كنتم أنتم الآكلين وأنتم الشاربين .... اقضوا قضاء الحق واعملوا إحساناً ورحمة » (زكريا ٧ : ٥ — ٩) . كما خاطب الذين ينادونه « لماذا صُمنا ولم تنظر ، ذلّلنا أنفسنا ولم تلاحظ » ، بالقول اللاذع « ها أنكم في يوم صومكم توجِدون مسرة (لأنفسكم) ، وبكل أشغالكم تُسخّرون (أجراكم) ... أمثل هذا يكون صومٌ اختاره : يوماً يذلل الإنسان فيه نفسه ، يحني كالأسلة رأسه ويفرش تحته مسحاً ورماداً ، هل تسمي هذا صوماً ويوماً مقبولاً للرب ؟ أليس هذا صوماً اختاره : حل قيود الشر (والخطيئة) ، فك عقد النير (عن المظلومين) ، اطلاق المسحوقين (الأبرياء) أحراراً ؟ أليس أن تكسر للجائع خبزك ، وأن تُدخل المساكين التائهين إلى بيتك ؟ » (إشعياء ٥٨ : ٣ — ٧) . [« الأسلة » نبات له أغصان هزيلة تتدلى إلى أسفل ، والمسح هو الخيش الذي يُصنع

من أردأ انواع الكتان . وكان بعض الناس يجلسون عليه أو يلبسونه بعد صبغه باللون الأسود ، كعلامة للحزن والاتضاع أمام الله . أما النير فهو قطعة الخشب التي توضع على عنق الثيران في أثناء الحرث وغيره ، وتستعمل هنا مجازاً للدلالة على الذل والاستعباد] .

٢ ــ ماهية الصوم والغرض الحقيقي منه : الصوم لغة ، هو الانقطاع عن شيء ما . وبالرجوع إلى الكتاب المقدس يتضح لنا أنه يراد به ليس مجرد الامتناع عن الطعام والشراب ، أو الشرور والآثام ، بل والامتناع لمدة من الزمن أيضاً عن كل ما يشغل المرء عن قضاء مدة طويلة في حضرة الله ، حتى يتفرغ الصائم تفرغاً تاماً لسكب قلبه أمام الله والتضرع بلجاجة إليه في هذه المدة . وذلك إما لأجل النمو في الحياة الروحية ، أو خلاص بعض الأشخاص من الخطية ، أو إنقاذ آخرين من ضيقة أو بلية ، أو غير ذلك من الأمور التي تمجد الله وتعود بالخير على الناس . فالصوم إذاً ليس غرضاً مقصوداً لذاته حتى يكون له جزاء خاص ، بل هو وسيلة للقيام بالصلاة على أفضل حال . لذلك يقرن الوحي الصوم بالصلاة ، فسجل عن الرسل أنهم صاموا وصلوا (أعمال ١٣ : ٣) ، وأن الروح النجس العنيد لا يخرج إلا بالصوم والصلاة (متى ١٧ : ٢١) ، وأن المؤمنين يجب أن يتفرغوا للصوم والصلاة (١كورنثوس ٧ : ٥) — اقرأ أيضاً (عزرا ٨ : ٢٣ ، نحميا ١ : ٤ ، دانيال ٩ : ٣ ، يوئيل ٢ : ١٢) .

فالصوم في المسيحية مثل الصلاة تماماً ، ليس فرضاً بل عملاً حيوياً لانستطيع الاستغناء عنه .

٣ ــ شروط الصوم : يجب (أولاً) أن يكون بدافع من رغبتنا الشخصية (لحاجتنا الماسة الى بركة من الله لنا أو لغيرنا من الناس) وليس لمجرد الطاعة لأمر أو وصية ، ولذلك لم يحدد الكتاب المقدس لنا أوقاتاً للصوم . ومع كل فأكثر المؤمنين قرباً من الله ، أكثرهم صياماً . (الثاني) كما أن الصوم عندما يكون خاصاً ، يجب أن لا يبدو لأحد من الناس ، بل يجب أن يكون بين الصائم وبين الله فحسب (متى ٦ : ١٦ ــ ١٨) . (الثالث) أن لا يتجه الصائم إلى شيء من المتع الجسدية (مثل الاستماع إلى الأغاني العالمية أو الانصراف إلى التسليات الدنيوية أو ... أو ...) ، لأن هذه الأمور إن لم تعمل على إثارة الشهوات والاهواء في النفس ، فهي تبعدها عن التوافق مع الله في قداسته الخاصة ، ومن ثم فالواجب على المؤمنين الحقيقيين أن يتجنّبوها ليس في وقت الصيام فحسب ، بل وفي غيره من الأوقات أيضاً ، حتى لا تتعطل صلتهم

الروحية بالله .

مما تقدم يتضح لنا أن اتهام المسيحيين بأنهم لا يصومون عن الطعام والعلاقات الزوجية إلا في وقت نومهم ، هو محض افتراء .

٤ ــ عجز الخاطىء عن القيام بالصوم حسب مشيئة الله : والآن لنتساءل : من هو الذي يدرك معنى الصوم ، ويستطيع ممارسته والحصول على الفوائد المترتبة عليه ؟

الجواب : طبعاً ليس الشخص السالك في الخطيئة ، بل البعيد عنها والمتمتع أصلاً بالعلاقة الحقيقية مع الله . كما أن هذا الشخص لا يريد من الله جزاء عن صومه ، إذ يكفيه أنه بواسطة الصوم يستطيع أن يتمتع بالله أكثر ويخدمه أكثر .

أما الاعتراضات التي تُوجَّه ضد هذه الحقائق ، ففيما يلي بيانها والرد عليها :

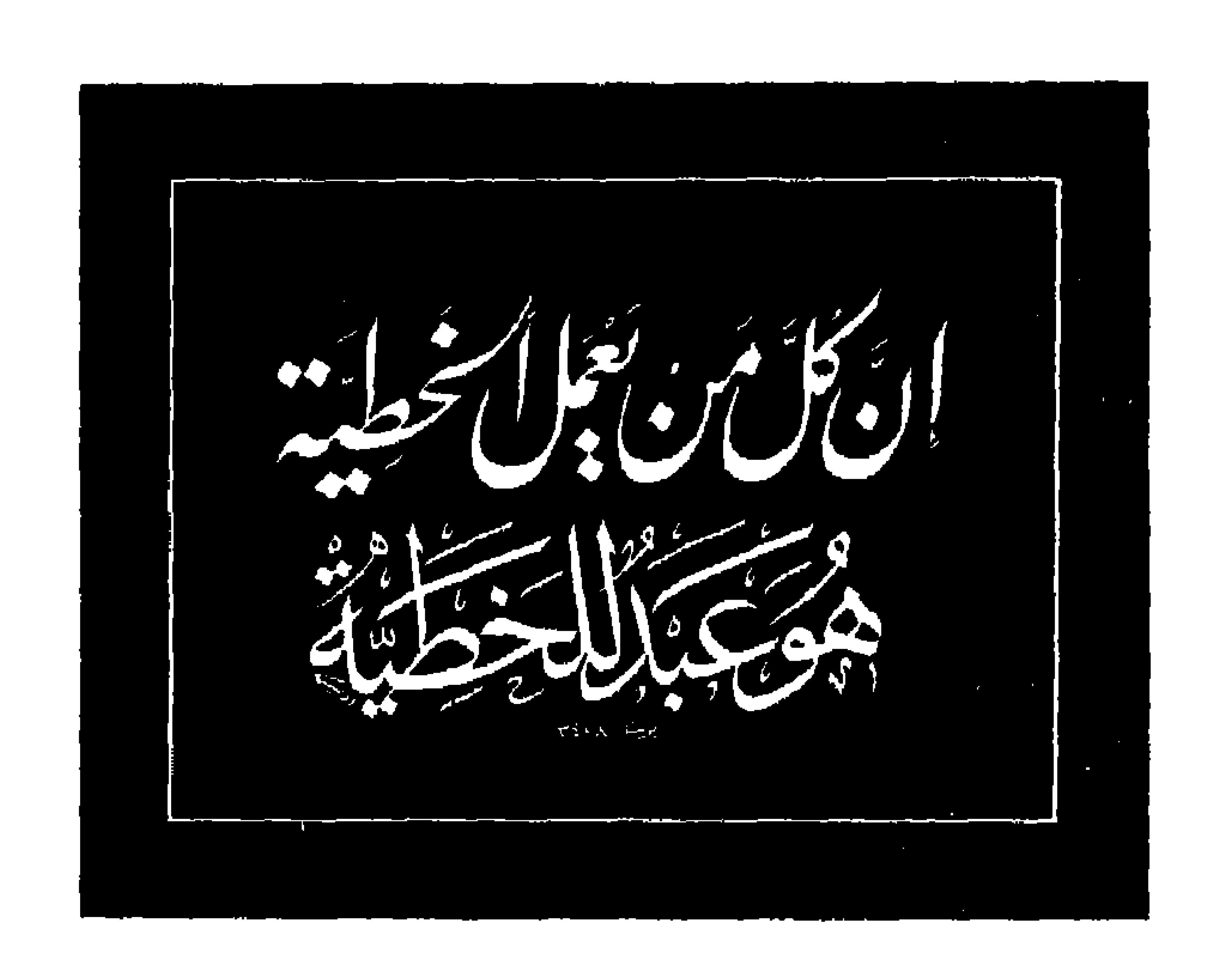
١ ــ [إن الصوم يضعف الجسد ويؤدىء الى التخلص من الخطيئة ، كما يساعد المرء على التحلي بالصبر والتسامي إلى حياة الصفاء مع الله ، لذلك يكون هو السبيل إلى الغفران والقبول أمامه تعالى] .

الرد : (ا) إن الخطيئة ليست في الجسد المادي حتى يمكن تجنبها بإضعافه عن طريق الامتناع عن الطعام والشراب مدة من الزمن ، بل إنها في النفس . فيد السارق (مثلاً) لا تختلف في تركيبها الجسماني عن يد الأمين في شيء ، إنما الفارق بينهما هو أن نفس الثاني أمينة ، ولذلك توعز إليه بمراعاة الأمانة ، أما نفس الأول فغير أمينة ومن ثم توعز إليه بالسرقة . ومما يثبت ذلك أيضاً أن معظم الصائمين ، وإن كانوا لا يفعلون في الظاهر الخطايا التي اعتادوا عليها ، غير أنهم قد يشتهونها ويفكرون فيها ويتحدثون عنها ، وهذا هو الخطيئة بعينها ــ ومن ثم فالصوم وحده لا يعيد إلى الخطاة حياة الاستقامة التي كانت لآدم قبل السقوط في الخطيئة ، وبالتالي لا يؤهلهم للتمتع بالله أو التوافق معه في صفاته الأدبية السامية .

(ب) فضلاً عما تقدم فالصوم وإن كان في أحسن حالاته مظهراً من مظاهر الاتضاع والتذلل أمام الله ، غير أنه لا يعيد إلى عدالته حقها بالدرجة التي تصبح معها كأنه لم يُعْتَدَ عليها ، لأن أثر الصوم محدود ، ومطالب عدالة الله ليس لها حدود ، والشيء المحدود لا يفي مطالب أمر ليس له حدود ، لذلك فالصوم لا يكون أيضاً وسيلة للحصول على الصفح والغفران .

٢ — [هل يستوى الخاطىء الذي يصوم بتذلل واخلاص لله لكي يرحمه ويغفر خطاياه ، والذي لا يصوم ، أو يصوم للأغراض الشخصية السابق ذكرها ؟] .

الرد : طبعاً لا يستويان ، بل من المؤكد أن الله ينظر إلى الأول بعين العطف والشفقة ، لكن عطف الله وشفقته شيء ، والاعتقاد بأن الصوم هو الذي يأتي لنا بالغفران ويؤهلنا للتمتع بالله شيء آخر . إذ أن الصوم ، لأنه لا يفي وحده مطالب عدالة الله وقداسته ، لا يمكن أن يكون ثمناً للغفران أو التمتع بالله . كل ما في الأمر أنه إذا كان بإخلاص ، فهو يهيىء القائم به للحصول على هذين الامتيازين ، على شرط أن يكون هناك أولاً إيفاء لمطالب عدالة الله وقداسته بوسيلة إلهية خاصة ، كما كانت الحال مع كرنيليوس (أعمال ١٠) كما ذكرنا فيما سلف .



— ٣ —

التوبة وعلاقتها بالغفران

١ ــ ماهية التوبة : التوبة ليست هي الندم على فعل الخطيئة فحسب ، بل وأيضاً هي الانصراف الكلي عنها ، وذلك إكراماً لله ومحبة فيه . أما الامتناع عن الخطيئة لمجرد الخوف من نتائجها ، أو الامتناع عنها مع بقاء التفكير فيها واشتهائها ، فلا يُعتبر في نظر الله توبة على الاطلاق ، بل يُعتبر في الحالة الأولى خدمة للصحة والذات ، وفي الحالة الثانية خداعاً للنفس وتضليلاً لها . ولذلك قال الوحي عن الخطاة إنهم يجب أن يتوبوا عن خطاياهم ، وليس هذا فقط بل وايضاً أن يرجعوا إلى الله ، عاملين أعمالاً تليق بالتوبة (أعمال ٢٦ : ٢٠) . كما قال لهم : « توبوا وارجعوا عن كل معاصيكم . واعملوا لأنفسكم قلباً جديداً وروحاً جديدة » (حزقيال ١٨ : ٣٠ و٣١) .

٢ ــ توبتنا في ضوء الحقيقة : بما أننا مهما تُبنا عن الخطيئة إكراماً لله ومحبة فيه ، قد نخطىء أحياناً بالقول والفكر ، إن لم يكن بالفعل أيضاً . وبما أن الخطأ أياً كان نوعه ، يحرم النفس من التوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية . إذاً فليست هناك في الواقع توبة كاملة لأحد منا أمام الله .

٣ ــ أثر التوبة من جهة الغفران والقبول أمام الله : لنفرض أن انساناً اختلس مبلغاً من المال من الهيئة التي يعمل فيها . وكانت الضرورة تقضي بسداد هذا المبلغ إليها ، وإلا فُصل من عمله وقُدم للمحاكمة . ولكن عوضاً عن أن يسعى هذا الانسان لسداد المبلغ المذكور ، أخذ يبكي على جريمته ويعلن توبته عنها ، فهل يستطيع بتصرفه هذا أن يمحو ما لحق به من وزر ، أو يصبح أهلاً للبقاء في عمله ! طبعاً كلا . وإذا كان الأمر كذلك ، ألا يكون بكاؤه وتوبته بدون جدوى ، إلا إذا أشفق عليه إنسان كريم ، وقام بسداد المبلغ المختلس للهيئة المذكورة نيابة عنه ؟!

وعلى هذا النسق نقول : بما أننا بارتكاب الخطيئة نتعدى على حق الله ونفسد أنفسنا أيضاً ، وبما أن التوبة مهما صدقت لا تعيد إلى حق الله قدسيته بالدرجة التي يصبح معها كأنه لم يُعتَد عليه (لأن أثر هذه التوبة محدود ، وحق الله غير محدود ، والشيء المحدود لا يفي مطالب أمر ليس له حدود) ، أو تعيد إلى نفوسنا حياة الاستقامة التي كانت لآدم قبل السقوط في الخطيئة (لأن التوبة مهما بلغت أسمى درجات الاخلاص والأمانة ، لا تجعلنا كاملين في كل ناحية من النواحي) ، لذلك لا نستطيع بالتوبة أن ننال غفراناً من الله أو قدرة على التوافق معه والتمتع بحضرته ، إلا إذا وفيت أولاً مطالب عدالته وقداسته من نحونا بوسيلة إلهية خاصة ، كما ذكرنا .

أما الاعتراضات التي تُوَجَّه ضد هذه الحقائق ، ففيما يلي بيانها والرد عليها :

١ ــ [كيف لا تكون التوبة الحقيقية ، أو بالحري بدء صحيفة جديدة في الحياة ، وسيلة للصفح عما مضى من الخطايا] ؟!

الرد : إذا تاب إنسان توبة حقيقة عن الخطيئة في كل مظهر من مظاهرها (وإن كان هذا من المتعذر على الانسان القيام به من تلقاء ذاته ، كما ذكرنا) ، فإنه لا يكون قد فعل أكثر مما يجب عليه ، أو بالحري لا يكون قد أتى جميلاً يمكن أن يكون تعويضاً عن خطاياه الماضية . حقاً قد ينسى الانسان هذه الخطايا ، وقد ينساها الناس أيضاً ، لكن الله لا ينساها ، فالماضي والحاضر والمستقبل حاضر أمامه . ولذلك قال الحكيم « الله يطلب ما قد مضى » (جامعة ٣ : ١٥) . فالتوبة مهما كان شأنها ، ليست بكافية للصفح عما مضى من خطايا ــ ولإيضاح هذه الحقيقة إلى حد ما ، لنفرض أن الموظف السابق ذكره تاب عن جريمته بعد ارتكابها ، ولكن بعد مدة من الزمن ، فحص مفتش (مثلاً) دفاتر هذا الموظف واكتشف ما فيها من اختلاس ، فهل يعتبر هذا الموظف أميناً في عمله ولا يجوز معاقبته ؟ الجواب : طبعاً كلا . وإذا اعتذر هذا الموظف بأن الاختلاس حدث من مدة طويلة ، وأنه كان أميناً بعد ذلك كل الأمانة ، فهل يقبل المفتش اعتذاره ويقرر براءته ؟ طبعاً كلا . وهكذا الحال من جهتنا أمام الله بالنسبة إلى الخطايا السالفة ، على فرض أننا عشنا بعدها دون أن نعمل خطيئة ما .

٢ ــ [ألم يصفح الله عن أهل نينوى عندما صاموا وتابوا (يونان ٣ : ٥ ــ ١٠) ، فكيف لا تكون التوبة هي الوسيلة للغفران والقبول أمام الله] ؟!

الرد : إن الصفح عن أهل نينوى لم يكن الغرض منه تقريبهم إلى الله أو إعطاءهم طبيعة روحية يتوافقون بها معه إلى الأبد ، بل كان الغرض الأول والأخير من هذا الصفح (كما يتضح من سفر يونان) ، هو فقط رفع الكارثة التي كان الله مزمعاً أن يصبّها عليهم بسبب فداحة آثامهم ــ وقد ذكرنا فيما سلف أن الله يسمع للخطاة عندما يطلبون منه بكل قلوبهم أن ينجيهم من ضيقة ما .

٣ ــ [هل يستوي عند الله من يتوب ابتغاء مرضاته تعالى ، ومن يتوب لأغراض شخصية ، أو لا يتوب على الإطلاق] ؟!

الرد : طبعاً لا يستويان ، بل من المؤكد أن الله يعطف على الأول ويفتح أمامه المجال للغفران والقبول لديه ، إذا تم إيفاء مطالب عدالته وقداسته من جهة هذا الإنسان بوسيلة إلهية خاصة كما ذكرنا ، لأن الله بقدر ما هو رحيم رؤوف هو عادل قدوس .

— ٤ —

الصَّدقة وعلاقتها بالغفران

١ ــ حدود الصدقة والأعمال الصالحة في المسيحية : إن المبلغ الذي يجب أن نقدمه نحن المسيحيين للأعمال الخيرية ، إن لم يزد عن عُشر ما نكسبه من مال ، يجب أن لا يقل عنه بحال (تثنية ١٢ : ١٧ ، متى ٥ : ٢٠) . ولذلك قال الوحي لنا : كونوا أسخياء في العطاء ، كرماء في التوزيع (١تيموثاوس ٦ : ١٨) ــ هذا مع العلم بأن عمل الخير والصلاح ، يجب أن يكون موجهاً إلى جميع الناس (١تسالونيكي ٥ : ١٥) حتى إلى الأعداء منهم . فقد قال الوحي:« إن جاع عدوك فاطعمه وإن عطش فاسْقِه » (رومية ١٢ : ٢٠) ، كما قال « أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم » (متى ٥ : ٤٤) .

٢ ــ الصدقة في نظر الله : إن الصدقة وغيرها من الأعمال الصالحة ليست في المفهوم المسيحي أعمالاً اختيارية يجوز للمرء إتيانها أو الامتناع عنها تبعاً لإرادته ، حتى يكون له فضل عند الله إذا ضحّى بشيء في سبيل القيام بها ، بل هي واجب يتحتم عليه القيام به وإلا اعتُبر مذنباً كما مرَّ بنا في الباب الأول . فاذا ارتكب إنسان خطيئة ، ثم قدم بعد ذلك صدقة أو عمل عملاً صالحاً ، لا يكون قد أتى جميلاً يمكن اعتباره تعويضاً عن الخطيئة التي ارتكبها ، حتى يستحق الصفح والغفران . لذلك قال الوحي لنا:« متى فعلتم كل ما أُمرتم به (من الخير والصلاح) فقولوا إننا عبيد بطالون . لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا (فحسب) » (لوقا ١٧ : ١٠) ــ فضلاً عن ذلك لو كانت الصدقة والأعمال الصالحة تغفر الخطايا ، لكان الذين يتمتعون بالغفران هم فقط الأغنياء ومن لهم القدرة على القيام بهذه الأعمال ، وهذا ليس بمعقول على الإطلاق .

٣ ــ صاحب الفضل في المال الذي بين أيدينا ، وفي الأعمال الصالحة التي نقوم بها : أضف إلى ذلك أن المال الذي بين أيدينا والصحة التي نتمتع بها في حياتنا ، ليست في الواقع ملكاً لنا بل هما من فضل الله علينا . لأنه لو كان قد سمح (مثلاً) بولادتنا من عائلات فقيرة جاهلة ، أو أصابتنا أمراض مستعصية عُضالة ، لكنَّا الآن فقراء معدمين أو مقعَدين عاجزين عن القيام بعمل من الأعمال مثل كثيرين من بني جنسنا . لذلك فإننا عندما نعطي للفقراء شيئاً من المال الذي بين أيدينا ، أو نستخدم صحتنا في القيام بأي عمل من الأعمال الصالحة ، لا نكون قد ضحَّينا بشيء من عندياتنا أو نكون قد أسدينا لله جميلاً نستحق عنه ثواباً .

وقد أدرك داود النبي هو ورجاله هذه الحقيقة الثمينة ، ولذلك بعد أن قدموا ما يعادل ملياراً من الجنيهات الذهبية ، لأجل بناء الهيكل ، قال داود لله « لكن من أنا ومن هو شعبي ، حتى نستطيع أن ننتدب؟(أو بالحري أن نقوم من أنفسنا بعمل) لأن منك الجميع ومن يدك أعطيناك . أيها الرب إلهنا ، كل هذه الثروة التي هيأناها لنبني بيتاً لاسم قدسك ، إنما هي من يدك ولك الكل » (١أخبار الأيام ٢٩ : ١٤ و١٦) ، كما قال بطرس الرسول من بعده « إن كان يخدم أحد ، فكأنه من قوة يمنحها الله » (١بطرس ٤ : ١١) .

٤ ـــ **العيوب الكامنة في الصدقة والأعمال الصالحة** : كما أننا إذا وضعنا أمامنا أن الصدقة والأعمال الصالحة التي يقوم بها الخطاة ، كثيراً ما تكون ملوثة بجراثيم البخل والتقتير ، أو الفخر والتباهي ، أو الرغبة في جزاء من الله أو الناس (وذلك بسبب صدورها من الطبيعة البشرية الفاسدة السائدة عليهم) ، اتضح لنا أن هذه الصدقة والأعمال الصالحة مملوءة بنقائص متعددة ، الأمر الذي يجردها من كل صلاح حقيقي يمكن أن يبقى فيها . وقد أدرك إشعياء النبي مرة هذه الحقيقة في نور الله ، فصرخ قائلاً: « وقد صرنا كلنا كنجس ، وكثوب عِدّة كل أعمال برنا (وليس أعمال شرنا فحسب) » (إشعياء ٦٤ : ٦) . [ثوب العِدّة هو الثوب الملطخ بالطمث ، وهو نجس في الشريعة اليهودية] .

وإن كانت هذه الحقيقة تسمو فوق إدراك الكثيرين ، لكن من سمت نفوسهم وارتقت استطاعوا أن يدركوها كما أدركها هذا النبي . فمثلاً قال كيركجارد رائد الوجودية الروحية:« إن أفضل أعمالنا مثل أشرّها،يحتاج إلى غفران الله » . ولإيضاح هذه الحقيقة إلى حد ما نقول : إذا تطلعنا إلى خضروات مغسولة ، قد لا نرى فيها قذارة ما . لكن إذا وضعنا شيئاً يسيراً منها تحت عدسة الميكرسكوب ، قد نرى فيها آلاف الجراثيم ـــ وهكذا الحال من جهة الأعمال الصالحة التي نقوم بها ، فإننا وإن كنا نراها طيبة ، غير أن الله يرى فيها الكثير من النقائص والعيوب . ولا غرابة في ذلك ، ففي ضوء كماله المطلق تبدو السماء نفسها غير طاهرة ، ويبدو الملائكة أنفسهم حمقى (أيوب ٤ : ١٨) !!

مذكرة توضيحية عن سورين كيركجارد :

وُلد هذا الفيلسوف في الدانمارك سنة ١٨١٣ ، ويُعتبَر من أشهر علماء النفس في العصر الحديث ، وأكثرهم تفكيراً في الأمور الروحية . وهو لم يبتدع رأياً فلسفياً معيناً ، بل عُني بالوجود الفعلي أكثر من النظري . ومن أهم آرائه (أولاً) أن الله لا يشرق بمعرفته على الإنسان ، إلا إذا وقف الإنسان أمامه مجرداً من كل تصنُّع وإدعاء بالصلاح ، وعرف فساد طبيعته والمصير المرعب الذي ينتظره . (ثانياً) إن الحق الروحي ليس هو الحق النظري ، بل هو الحق العملي المؤيَّد بالاختبار الشخصي ، والذي يدفع المرء ثمنه بنفسه . لذلك يجب على طالب الحق أن لا يكتفي بالتطلع إليه من النافذة أو الشرفة ، بل أن ينزل إلى الطريق ويسير في ركابه ، حتى تمتزج نفسه به كل الامتزاج — وهذه الآراء تُعتبر تفسيراً صحيحاً لأقوال الكتاب المقدس عن الحياة الروحية .

٥ — أثر الصدقة والأعمال الصالحة من جهة الغفران والتمتع بالله : لنفرض أن ملكاً عظيماً نبيلا تعدَّى عليه خادم ما وأهانه إهانة شنيعة ، وبعد ذلك تقدم إليه هذا الخادم حاملاً في يده هدية ثمينة ، فهل تستطيع هذه الهدية وحدها أن تمحو عن الملك العظيم النبيل ما لحقه من إهانة ؟ أو تجعله يُسرّ بالخادم المذكور ويقرّبه إلى حضرته ؟ طبعاً كلا وكلا . وعلى هذا النسق نقول : نظراً لأن الصدقة والأعمال الصالحة التي يقوم بها بعض الخطاة (حتى إن كانت خالية من كل العيوب) ، لا تستطيع أن تعيد إلى حق الله قدسيته بالدرجة التي يصبح معها كأنه لم يُعتَد عليه (لأن هذه الأعمال محدودة في قدرها،وحقّ الله لا حدّ لقدره ، والأشياء المحدودة في قدرها لا تفي مطالب أمر لا حد لقدره) ، أو تؤهل الخطاة للتوافق مع الله في قداسته وكماله (لأنها لا تستطيع أن تعيدهم إلى حياة الاستقامة التي كانت لآدم قبل السقوط في الخطيئة) ، لذلك لا يمكن أن تكون هذه الأعمال وحدها ثمناً للغفران أو التمتع بالله .

وقد أدرك الأنبياء هذه الحقيقة ، ولذلك كانوا يبكون بسبب خطاياهم على الرغم من الأعمال الصالحة الكثيرة التي كانوا يقومون بها . فداود النبي كان يعوّم سريره بدموعه ويذوّب فراشه كل ليلة (مزمور ٦ : ٦) ، ويقول : « خسفت من الغم عيني ، نفسي وبطني . لأن حياتي قد فنيت بالحزن وسنيني بالتنهد » (مزمور ٣١ : ٩ ، ١٠) . و« بليت عظامي من زفيري اليوم كله » (مزمور ٣٢ : ٣) ، و« ليست في عظامي سلامة من جهة خطيتي ، لأن آثامي قد طمت فوق رأسي

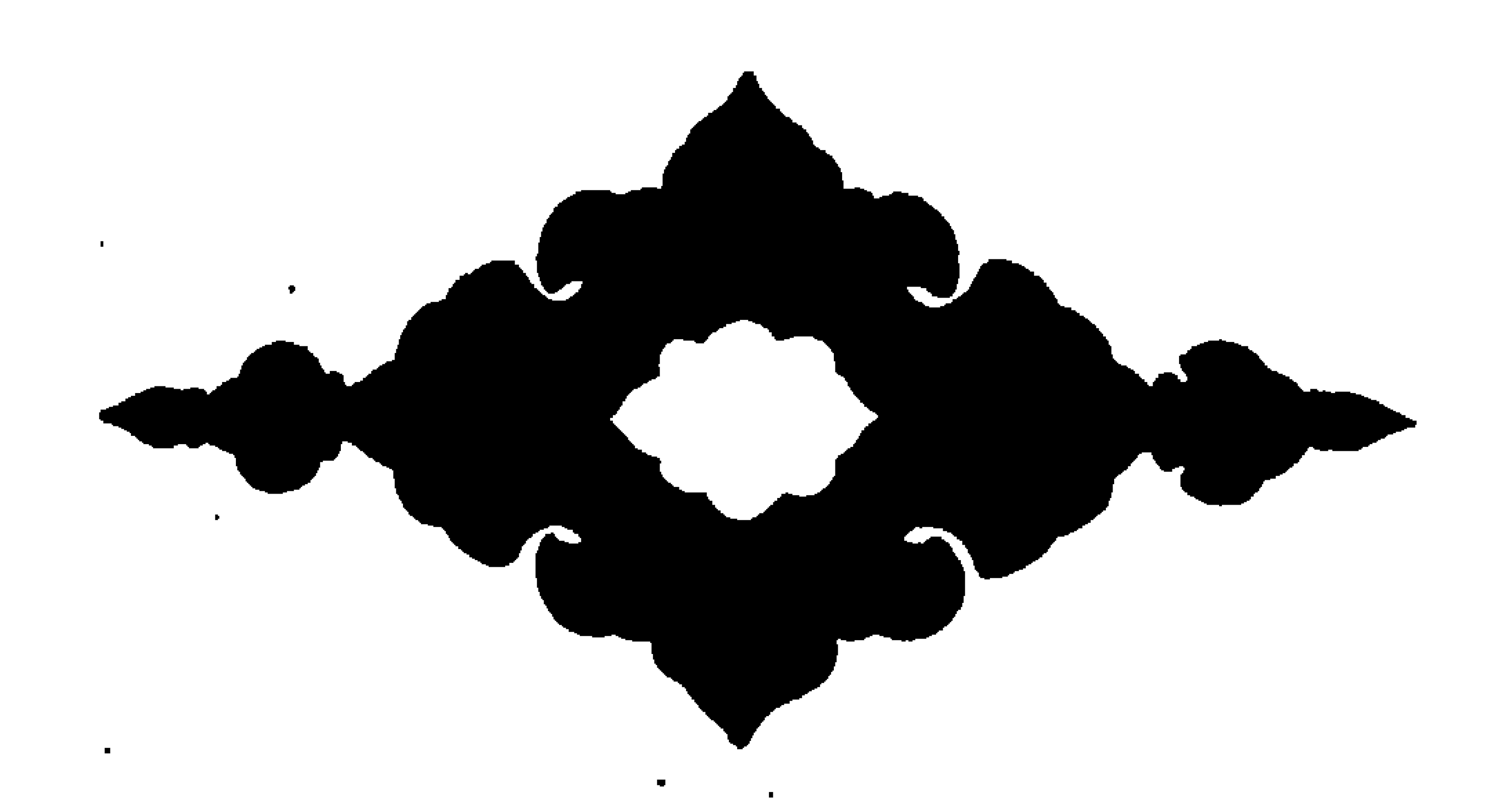
كحِمل ثقيل أثقل مما أحتمل . قد أنتنت وفاحت حُبُر ضربي من جهة حماقتي » (مزمور ٣٨ : ٣ ــ ٥) [الحبر (بضم الحاء والباء) هي الجروح العميقة التي وإن شُفيت ، لا تزول آثارها من الجسم »

أما الاعتراض الذي يُوجَّه ضد الحقائق السابقة ، ففيما يلي بيانه مصحوباً بالرد عليه :

[هل يستوي الخاطي الذي يقوم بالأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله ، والذي يقوم بها لأغراض شخصية ، أو لا يقوم بها إطلاقاً] .

الرد : طبعاً لا يستويان ، لأن الله لعدالته لا يمكن أن يهمل ذرة من الخير يقوم بها إنسان ابتغاء مرضاته ، بل لابد أن يجازيه عنها خيراً . لكن بما أن الجزاء يكون من جنس العمل ، وليس في الأبدية مجال للمال أو الخدمات المادية التي يقوم بها الناس في العالم الحاضر حتى يكافئهم الله هناك بمثل ما فعلوا ، لذلك فالخطاة الذين يتصدقون ويعملون أعمالاً صالحة ابتغاء مرضاة الله ، يكافئهم الله في العالم الحاضر بجزاء من نوع أعمالهم . فيزيد مثلاً من ثروتهم ، ويهيىء لهم سبل النجاة من الضيقات التي يتعرضون لها . لكن عند انتقالهم من العالم الحاضر ، سوف يكونون بطبيعة الحال بعيداً عن الله مثل غيرهم من الخطاة . لماذا ؟ طبعاً لأن الصدقة والأعمال الصالحة لا تفي في ذاتها مطالب عدالة الله ، ولا تمدّ القائمين بها بطبيعة روحية تؤهلهم للتوافق معه في قداسته وصفاته الأدبية الأخرى ، كما ذكرنا فيما سلف .

أما الذين ، مع قيامهم بأعمال الخير ، يمقتون الخطيئة ويتضرعون إلى الله بتذلل لكي يخلصهم منها ، فإنه يتجه إليهم بكل عطف ، ويهيىء لهم السبيل للحصول على الغفران والتمتع بشخصه ، إذ وفيت مطالب عدالته وقداسته بوسيلة خاصة ، كما كانت الحال مع كرنيليوس السابق ذكره .



— ٥ —

الشفاعة وعلاقتها بالغفران

١ ــ عدم قدرة الأنبياء على الشفاعة أمام الله : بما أن هؤلاء الأنبياء وإن كانوا أفضل من غيرهم من الناس ، غير أنهم في ذواتهم خطاة مثلهم ، إن لم يكن بالفعل ، فبالقول والفكر كما ذكرنا في الباب الأول ، لذلك فانهم من تلقاء أنفسهم لا يتوافقون مع الله في صفاته السامية ، كما يقعون من جهة استحقاقهم الذاتي تحت طائلة قصاصه الأبدي . ومن ثم لا يستطيعون أن يتشفعوا لأجل خلاص أحد من قصاص خطاياه أو تأهيله للوجود مع الله ، لأنهم أنفسهم مفتقرون إلى هذا وذاك . والكتاب المقدس بإعلانه أن القديسين خطاة مثل باقي الناس (جامعة ٧ : ٢٠) لا يقصد التشهير بهم ، بل يعلن حقيقة أمرهم حتى لا يعتمد عليهم أحد في أمر الخلاص من الخطيئة ونتائجها .

٢ ــ عدم قدرة الملائكة على الشفاعة لدى الله : كما أن الملائكة وإن كانوا في نظرنا كائنات سامية طاهرة ، لكنهم ليسوا كذلك في نظر الله الكلي الكمال . فقد قال الوحي إنه تعالى ينسب إلى الملائكة حماقة (أيوب ٤ : ١٨) . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الملائكة كائنات محدودة ، والكائنات المحدودة لا تستطيع أن تفي مطالب عدالة الله وقداسته غير المحدودة ، أدركنا أن شفاعة الملائكة (إن كانت لهم شفاعة) لا تجلب لنا الغفران أو تقربنا إلى الله ، لأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بعد إيفاء مطالب عدالته وقداسته كما ذكرنا مراراً وتكراراً .

أما الاعتراضات التي تُوجّه ضد الحقائق السابقة ، ففيما يلي بيانها والرد عليها :

١ ــ [إذا كانت شفاعة القديسين لا تُجدي ، فلماذا أراد الله أن يعفو مرة عن الأشرار الذين كانوا في سدوم وعمورة ، لو كان بينهم عشرة أبرار » (تكوين ١٨ : ٣٢) ؟] .

الرد : لا يُراد بالأبرار هنا ، أشخاص خالون من الخطيئة ، بل أشخاص كانوا يخافون الله ويحاولون جهد الطاقة أن يعملوا بوصاياه ، كما كانوا يقدمون له الذبائح الكفارية عن الخطايا التي يأتونها ، كما سبقت الإشارة في الباب الأول ، وكما سيتّضح بالتفصيل في الباب التالي . ولا شك أن للقديسين مقاماً خاصاً لدى الله كما ذكرنا ، لكن لا شك أيضاً أن هذا المقام لا يطغى على مطالب عدالته وقداسته . لذلك إذا أمعنا النظر في

حادثة سدوم وعمورة نرى أن وجود بعض الأبرار فيها ، لم يكن لرفع القصاص الأبدي عن الأشرار الذين كانوا معهم ،أو ليمنحهم طبيعة روحية تهيئهم للتوافق مع الله في قداسته وصفاته الأدبية السامية إلى الأبد ، بل كان ليرفع عنهم فقط قصاصاً وقتياً دنيوياً ، وهذا من الممكن حدوثه كما ذكرنا في حديثنا عن الصلاة .

ومع كل فمن مواضع أخرى في الكتاب المقدس ، يتضح لنا أن وجود الأبرار في العالم لا يحمي الأشرار من مثل هذا القصاص ، إذا كان مكيال شرهم قد طفح أمام الله . فقال : « إن أخطأت إليّ أرض وخانت خيانة ، فمددت يدي عليها وكسرت لها قوام الخبز وأرسلت عليها الجوع ، وقطعت منها الإنسان والحيوان ، وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة نوح ودانيال وأيوب ، فانهم إنما يخلصون أنفسهم (فحسب) ببرهم » (حزقيال ١٤ : ١٣ — ١٤) .

وهكذا الحال من جهة الأبدية ، فانه ليس هناك قديس مهما كان شأنه ، يستطيع أن ينقل ، على اساس مكانته السامية لدى الله ، خاطئاً من الهاوية إلى الفردوس . وكفى على ذلك دليلاً أن الرجل الغني الذي عاش على الأرض بعيداً عن الله ، لما نادى وهو في الهاوية إبرهيم أبا المؤمنين قائلاً له : « يا أبي إبرهيم ارحمني . وارسل لعازر ليبلّ طرف اصبعه بماء ويبرّد لساني لأني معذب في هذا اللهيب . فقال إبرهيم : يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك ، وكذلك لعازر البلايا ، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب . وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت ، حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا ... » (لوقا ١٦ : ٢٤ — ٢٦) .

٢ — [إن كان القديسون خطاة بطبيعتهم وأعمالهم مثل غيرهم من الناس ، فكيف غفر الله لهم وقربهم إليه كما نؤمن جميعاً ؟!] .

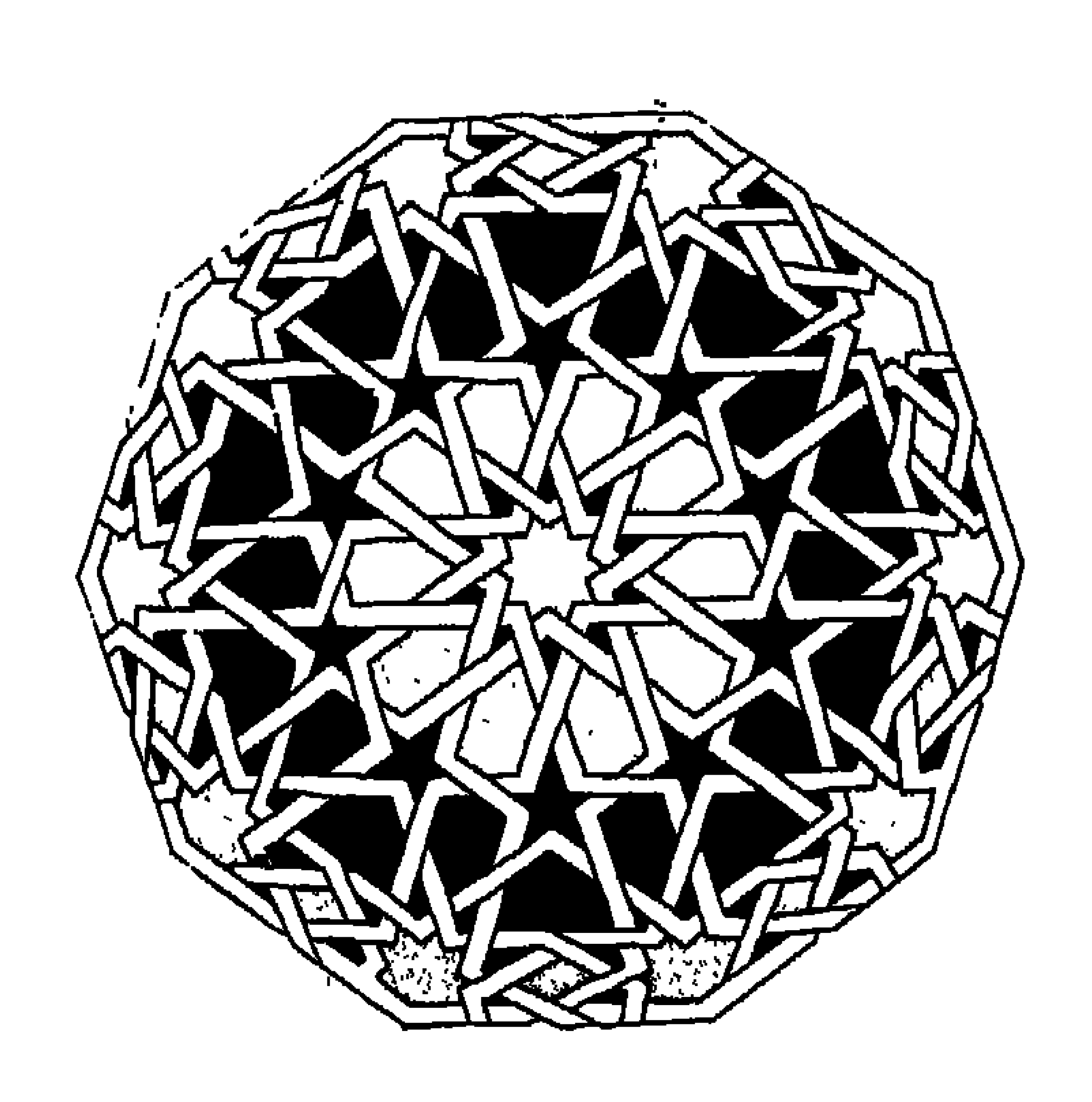
الرد : لا شك أنه تم إيفاء مطالب عدالة الله وقداسته التي لا حد لها من جهتهم بوسيلة خاصة ، وهذه الوسيلة ليست طبعاً من جانبهم بل من جانبه ، لأنهم لا يستطيعون بكل تقواهم وأعمالهم الصالحة أن يعيدوا إلى حق الله كرامته بالدرجة التي يصبح معها كأنه لم يعتد عليه ، أو يعيدوا إلى أنفسهم حياة الاستقامة التي كان عليها آدم قبل السقوط في الخطيئة — والوسيلة التي على أساسها خلّص الله هؤلاء القديسين من خطاياهم ونتائج خطاياهم ، هي التي على أساسها يخلص كل الخطاة في كل زمان ومكان ، كما يتضح من الأبواب الآتية إن شاء الله .

٣ ــ [إذا كان الأمر كذلك ، ألا يوجد شفيع بيننا وبين الله ؟] .

الرد : نعم هناك شفيع أو بالحري محام ، معيّن من لدن الله ، قادر على الوقوف بيننا وبينه ، لأن هذا ما تتطلبه محبته لنا وعطفه علينا . لكن قبل أن نعرف من هو هذا الشفيع أو المحامي ، لنسأل أنفسنا : إذا كان إنسان قد أتى خطايا أو خطية واحدة ، وفي الوقت نفسه لم يعمل كل البر الذي أمر الله به ، وكان بطبيعته عاجزاً عن الاحاطة بمطالب عدالة الله وقداسته التي لا حدّ لها ، وبالتبعية كان عاجزاً عن إيفائها جميعاً ، فهل يمكن أن يقبل الله شفاعته ؟ طبعاً كلا .

وإذا كان الأمر كذلك ، أدركنا أن الجدير بالشفاعة يجب أن يكون شخصاً لم يعمل أية خطية على الاطلاق ، وفي الوقت نفسه يكون كاملاً من جهة البر كل الكمال . كما يجب أن يكون قادراً على الاحاطة بمطالب عدالة الله وقداسته التي لا حدّ لها ، وقادراً أيضاً على إيفائها جميعاً ، بالدرجة التي تُرضي الله تماماً . فمن هو هذا الشخص يا ترى ؟

للإجابة على هذا السؤال ، إقرأ الباب التالي بإمعان .





الباب الثالث

الفداء أو الطريق الإلهي للغفران

ـ ١ ـ
ضرورة الفداء أو التعويض

اتضح لنا مما سلف أنه لا سبيل للحصول على الغفران أو التمتع بالله ، إلا إذا تم أولاً إيفاء مطالب عدالته وقداسته بوسيلة ما . لكن الذين لا يدركون هذه الحقيقة ، أو يدركونها لكن يتغاضون عنها لعدم معرفتهم بكيفية إتمامها ، يريحون ضمائرهم من جهة الغفران والتمتع بالله ، بترك الأمر إلى رحمته . ونحن وإن كنا نعتز برحمة الله كل الاعتزاز ، ونؤمن أنه لا حد لها على الإطلاق ، وأنها وحدها هي الكفيلة بالاتيان إلينا بالصفح والغفران ، لكن لكي لا يكون الاعتماد عليها مؤسساً على مجرد الأمل أو العشم ، بل على الحق والواقع نقول :

لنفرض أن قضية رُفعت إلى قاض مشهور بالرحمة والرأفة ، لكنه إلى ذلك يقدّس العدل ولا يفرّط في حق ، فهل يجوز للمذنب أن يُطمئِن نفسه بأن هذا القاضي سوف يبرىء ساحته لأن قلبه الرحيم الرؤوف لا يرضى بتوقيع العقوبة القانونية عليه ؟ (الجواب) طبعاً لا . وعلى هذا النسق تماماً نقول : بما أن الله كما أنه رحيم رؤوف هو عادل وقدوس أيضاً ، إذاً لا يجوز أن نطمئن نفوسنا بما هو عليه من رحمة ورأفة ، قبل أن نعرف الوسيلة التي تؤهلنا للتمتع بها دون الاجحاف بمطالب عدالته وقداسته ، فما هي الوسيلة يا ترى ؟

الجواب : بما أننا لا نستطيع بالصلاة والصوم والتوبة والأعمال الصالحة أن نفي مطالب عدالة الله وقداسته التي لا حد لها . ومن ناحية أخرى بما أن عدالة الله وقداسته لا تقلان في شيء عن رحمته ومحبته ، وذلك لكماله المطلق وتوافق كل صفاته معاً كما ذكرنا . إذاً إن كان هناك مجال للتمتع بالغفران والقبول أمام الله (ومن المؤكد أن يكون هناك مجال للتمتع بهما ، لأن صفتي الرحمة والمحبة في الله لا يمكن أن تكونا بلا عمل) ، لابد من الفداء أو التعويض ، أو بالحري لابد من إيفاء مطالب عدالة الله وقداسته بواسطة كائن عوضاً عنا ـ وإيفاء هذه المطالب يستلزم طبعاً من هذا الكائن أن يقبل على نفسه القصاص الذي نستحقه بسبب خطايانا **تنفيذاً لمطالب عدالة الله** ، وأن يهبنا أيضاً طبيعة روحية تجعلنا أهلاً للتوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية تنفيذاً لمطالب قداسته .

أما الفداء في اللغة العبرية فهو الترضية وإزالة الاحقاد بعد دفع التعويض . وفي اللغة

العربية هو الإنقاذ وليس بدون مقابل ، بل بعد تقديم التضحية اللازمة ، وقد تكون هذه التضحية مالاً أو غير مال ، فقد جاء في القاموس المحيط « فداه » أي دفع شيئاً فأنقذه ، ومن ثمّ يكون قد اشتراه ثانية . أما في اللغات الأوروبية فيُراد بالفداء أربعة أمور : (الأول) استرداد الشرف المُعتدى عليه (الثاني) إطلاق سراح الأسير (الثالث) استعادة الشيء المرهون (الرابع) إنقاذ شخص من أزمة أو موت — وكل ذلك بواسطة تضحية أو مجهود ما .

أما الاعتراضات التي توجّه ضد هذه الحقيقة ، ففيما يلي بيانها والرد عليها :

١ —[إن القاضي الوارد ذكره في المثل السابق ، مقيَّد بقوانين يجب عليه تطبيقها ، فضلاً عن ذلك له رؤساء يراقبون كل أحكامه . لكن الله لا يتقيد بقوانين ولا يراقب عمله رؤساء ، لذلك له أن يصفح عنا ويقربنا إليه بدافع من رحمته وحدها]

الرد : إن الله وإن كان لا يتقيّد بقوانين ولا يراقب عمله رؤساء ، لكن له كماله الذاتي الذي ينزّهه عن القيام بأي عمل لا يتفق مع عدالته وقداسته . حقاً إن الله يستطيع أن يعمل كل شيء ، لكن استطاعته هذه لا تتعدّى خواصه الذاتية ، لأنه لكماله لا يستطيع (مع قدرته التي لا حدّ لها) أن يعمل عملاً يتعارض مع هذه الخواص . فهو (مثلاً) لا يستطيع أن يكون كاذباً أو ماكراً ، لأن الصدق والاستقامة صفتان ثابتتان فيه . وكذلك لا يستطيع أن يكون متساهلاً أو متهاوناً مع الشر ، لأن العدالة والأمانة صفتان ثابتتان أيضاً فيه . وإذا كان الأمر كذلك ، لابد من إيفاء مطالب عدالة الله وقداسته بواسطة كائن عوضاً عنا يكون قادراً على القيام بهذه المهمة (أي يكون قادراً على أن يُعيد الى حق الله قدسيته بالدرجة التي يكون معها كأنه لم يُعْتَدَ عليه ، وأن يعطينا حياة روحية تسمو بنا إلى حالة التوافق مع الله في صفاته الأربع السامية) ، طالما نحن غير قادرين على القيام بهذين العملين ، وإلا فلا غفران لنا .

(ا) ومما تجدر الإشارة إليه أن الانسان (مثلاً) يستطيع ألا يكذب ، أما الله فلا يستطيع أن يكذب . فالعبارة الأولى تدل على القدرة على عدم الكذب ، أما الثانية فتدل على استحالة الالتجاء إلى الكذب ، وبالحري تدل على التنزُّه المطلق على الكذب ، وهذا ما يليق بالله دون سواه .

٢ — [هل من العدالة أن يقوم كائن بريء بالتعويض عن خطايا أحد المذنبين ؟]

الرد : فضلاً عن أن البريء هو الذي يحقّ له قانوناً التعويض عن المذنبين ، لأن هؤلاء لا يستطيعون التعويض عن مذنبين نظيرهم ، إذ أنهم في ذواتهم يحتاجون إلى من

يقوم بالتعويض لهم عن ذنوبهم ، نقول :

ان مبدأ النيابة مبدأ سليم تشهد العدالة بقانونيته ، طالما كان النائب قادراً وموافقاً على القيام بمطالب النيابة . لذلك نرى الشخص الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه في قضية ما ، ينتخب نائباً قانونياً للدفاع عنه ، ولا تمانع المحكمة في هذا التصرف بل تلتزم به .

والمدين الذي يعجز عن سداد دَيْنه يقوم النائب أو الضامن بسداده نيابة عنه ، وبذلك يخلص المدين من دينه وما يترتب عليه من مسئولية أمام العدالة . والأب الفاضل يتحمل في نفسه نتائج أخطاء أبنائه عوضاً عنهم . والجندي الباسل يبذل نفسه فدية عن أهله ووطنه — وليس من يعترض على واحد من هؤلاء ، بل اننا جميعاً نبجّلهم ونشيد بأعمالهم .

٣ — [أليس عجزنا جميعاً عن إيفاء مطالب عدالة الله وقداسته مبرراً كافياً يدعوه للعفو عنا وتقريبنا إليه ، دون أن يلزمنا بالبحث عن كائن يفي هذه المطالب عوضاً عنا ، لا سيما إذا كان من المتعذر علينا العثور عليه ؟]

الرد : إذا عفا الله عنا وقرّبنا إليه لمجرد عجزنا عن إيفاء مطالب عدالته وقداسته ، يكون قد تنازل عن المطالب المذكورة مضطراً . وبما أنه حاشا لله أن يُرغَم على القيام بعمل يتعارض مع عدالته أو قداسته ، لذلك لا مفرّ من إيفاء مطالب عدالة الله وقداسته بواسطتنا أو بواسطة كائن آخر عوضاً عنا ، وإلا فلا خلاص لنا على الإطلاق ، كما ذكرنا فيما سلف .

٤ — [إننا كثيراً ما نصفح عن المسيئين إلينا دون أن نلزمهم بتعويض ما ، فهل يكون الله أقل عطفاً أو شفقة منا] ؟

الرد : (ا) لا تجوز المقارنة بين معاملة الله معنا وبين معاملة بعضنا للبعض الآخر ، لأننا تارة نصفح تحت تأثرنا بعواطفنا البشرية دون أن يكون هناك مبرر كاف للصفح ، وتارة نعاقب تحت تأثرنا بمصالحنا الشخصية دون أن يكون هناك مبرر كاف للعقوبة . فضلاً عن ذلك فإننا كثيراً ما نصفح عن المسيئين إلينا بسبب نسياننا لإساءتهم أو لهبوط درجة تأثرنا بها ، أو بسبب شعورنا بنقائصنا ورغبتنا الباطنية في أن يصفح الناس عنا عندما نخطىء نحن إليهم . أما الله ففضلاً عن أنه لا ينسى شيئاً من الأشياء ولا يتغير بأي حال من الأحوال ، فإنه بسبب كماله المطلق من جهة ، وتوافق كل صفاته معاً من جهة أخرى ، لا يمكن أن يكون متساهلاً بمراعاة الرحمة دون العدالة في حالة الصفح . أو قاسياً بالتمسك بالعدالة دون الرحمة في حالة العقوبة ، بل يصفح إذا كان الصفح لا

يتعارض مع مطالب عدالته ، ويعاقب إذا كان العقاب لا يتجاوز عن مطالب رحمته . لأنه ليس رحيماً في وقت وعادلاً في وقت آخر ، بل إنه رحيم وعادل معاً في كل وقت من الأوقات . وإذا كان الأمر كذلك ، فلا سبيل إلى الغفران إلا إذا وُفّيت مطالب عدالته ، ولا سبيل إلى التمتع بالوجود معه إلا إذا تحققت مطالب قداسته ، إما بواسطتنا أو بواسطة كائن آخر عوضاً عنا .

(ب) كما أننا إذا وضعنا أمامنا أن الناموس الأدبي الذي وضعه الله لنا ، يتوافق مع صفاته كل التوافق ، وأن هذا الناموس نفسه هو الذي يربط الخطيئة بعقوبتها ، أدركنا (أولاً) أنه لا يمكن الفصل بين هذه وتلك ، إذ أن هذا الفصل يكون بمثابة قطع العلاقة بين الله وبين ناموسه الأدبي الذي يتوافق مع صفاته — وهذا ما لا يمكن حدوثه ، إذ يترتب عليه أن يكون الله قد نهى عن السرقة والزنا (مثلاً) وفي الوقت نفسه سمح للصوص والزناة بالتمتع به في سمائه ، مناقضاً نفسه بنفسه.(ثانياً) إن تجاوز الله عن خطايانا يكون موافقة منه عليها ، أو تنحياً منه عن المحافظة على الناموس الأدبي الذي وضعه ، وهذا الأمر وذاك باطلان . وإذا كان الأمر كذلك ، فطبعاً لا سبيل إلى الغفران ، إلا بعد الفداء أو التعويض كما ذكرنا .

٥ — [إن الملوك يصفحون عن بعض المذنبين المحكوم عليهم بالإعدام بواسطة أمر ملكي يصدرونه ، فكيف لا يستطيع الله الصفح عن الخطاة على هذا النحو] ؟

الرد : إن الملوك الذين يقومون بهذا العمل ، لا يكونون متأثرين شخصياً بجرائم هؤلاء الأشخاص ، أو بالعدالة المطلقة في بلادهم ، أو بقوانين الأخلاق العامة فيها ، أو يكونون مضطرين للقيام به لوجود علاقة تربطهم بالأشخاص المذكورين ، أو لاجتذاب فريق من الناس إلى جانبهم ، أو لتجنيب بلادهم انقلاباً أو ثورة داخلية . لكن الله يتأثر مع روحانيته المطلقة بالخطايا التي نأتيها (كما ذكرنا فيما سلف) ، كما أن العدالة لديه ليست مجرد قانون مكتوب أو غير مكتوب ، بل إنها صفة ثابتة فيه يجب إيفاء مطالبها مهما كانت الظروف والأحوال . فضلاً عن ذلك ليس هناك من يرغمه على القيام بعمل ، مجاملة لبعض الناس أو خوفاً منهم ، ومن ثم لا يمكن أن يصفح إلا إذا كان الصفح قانونياً ، أو بالحري متوافقاً مع عدالته المطلقة كل التوافق .

أخيراً نقول إن الذين يريدون أن يصفح الله عنهم بكلمة ، ينظرون إلى الخطيئة نظرة سطحية . لكن الحقيقة غير ذلك ، لأن الخطيئة ليست مثل القذارة التي يمكن إزالتها بالماء أو بغيره ، بل إنها بالاضافة إلى كونها أكبر إهانة لجلال الله (كما ذكرنا فيما

سلف) ، هي شر ينبع من طبيعة فاسدة كل الفساد . لذلك لا مفر من التسليم بأنه لا يمكن الصفح عن الخطاة أو تقريبهم إلى الله ، إلا إذا وُفِّيت أولاً مطالب عدالته وقداسته معاً بوسيلة ما .

٦ ــ [إن الكمال المطلق الذي يتّصف الله به ، يجعله لا يتقيد بأي قيد ، ومن ثم تكون له الحرية المطلقة في الصفح عن الخطاة دون أن يُلزمهم بتعويض له] .

الرد : إن الحرية المطلقة في نظر الله ليست هي الحرية المطلقة في نظر الناس ، فهؤلاء ينظرون إلى الحرية المطلقة كأنها المجال الذي يفعلون فيه ما يريدون ، بغض النظر عن الكمال وقوانينه الثابتة ، لذلك فإن الحرية المطلقة في نظرهم هي الإباحية بأوسع معانيها . أما الحرية المطلقة في نظر الله ، فهي المجال الذي يفعل فيه كل ما يريد في حدود كماله الذاتي . لذلك فكما أنه لا يمكن أن يرفض شخصاً متوافقاً معه في صفاته الأدبية ، لا يمكن أيضاً أن يقبل في حضرته شخصاً غير متوافق معه فيها ــ فقد قال الوحي إن إدانة البريء وتبرئة المذنب كلاهما مكرهة عند الرب (أمثال ١٧ : ١٥) .

اننا بذلك لا نقسو على أنفسنا أو نقيم العراقيل أمامها من جهة الحصول على الغفران ، بل نبحث السبيل إليه من الناحية التي تتناسب مع موقف عدالة الله وقداسته إزاء الخطيئة وشناعتها ، حتى لا تكون نظرتنا إلى الغفران مؤسسة على تصوراتنا الشخصية بل على الحقائق الإلهية . لأننا لا نحصل عليه بمجهودنا الذاتي ، بل الله هو الذي يمنحه لنا ، وذلك بناء على نواميسه الخاصة . وهذه النواميس ثابتة راسخة ، فلا تتغير ولا تتبدل على الإطلاق .

— ٢ —
نشأة الفداء

ذكرنا في الباب الأول أن آدم عندما أكل من الشجرة المنهي عنها ومات موتاً أدبياً ، لم ينفذ الله فيه وقتئذ حكم الموت الجسدي ، الذي أنذره به في حالة العصيان ، بل أنقذه من هذا الموت ، وأنقذه أيضاً من الموت الأبدي والعقاب الأبدي الذي كان سيتعرض له في العالم الآخر ، وذلك بتوقيع الموت على حيوان عوضاً عنه . وإن كانت هذه الذبيحة الحيوانية في حد ذاتها غير كافية للفداء ، لكن لأنها كانت رمزاً إلى ذبيحة عظمى في نظر الله ، لذلك اكتسبت وقتئذ شرعاً قوة الفداء — ولبيان هذا نقول :

سجّل الوحي أن الله بعدما اقتاد آدم وحواء للاعتراف بعصيانهما والندم عليه ، صنع لهما أقمصة من جلد وألبسهما (تكوين ٣ : ٢١) . وبما أن الوحي لا يستعمل كلمة إلا في معناها الصحيح ، لذلك لا ندحة من التسليم بأن الله لم **يخلق** هذه الأقمصة من العدم بل **صنعها** . ولما كانت صناعتها تستلزم وجود جلد وقتئذ لكي تُصنع منه . والله لم يخلق جلداً بمفرده ، بل خلق حيوانات يكسوها الجلد ، إذاً فمن المؤكد أنه بوسيلة ما تم ذبح حيوانين ، ومن جلدهما صُنعت هذه الأقمصة .

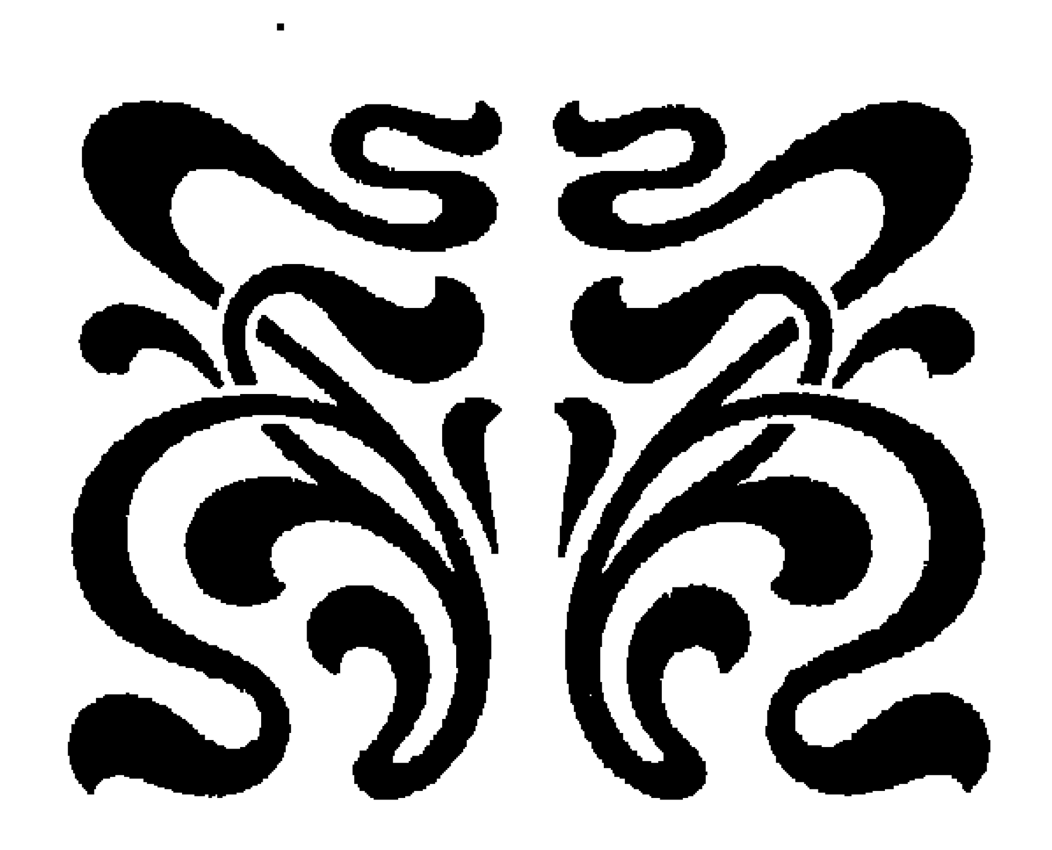
لكن إذا تأملنا الظروف المحيطة بهذا الموضوع ، يتضح لنا أن الغرض من ذبح الحيوانين المذكورين لم يكن مجرد الحصول على الجلد بل التكفير بهما (أو بالحري التعويض بهما) عن آدم وزوجته ، وذلك للأسباب الآتية :

(١) إن الله الذي خلق العالمين بكلمة ، لم يكن من العسير عليه أن يخلق أقمصة من الجلد بكلمة أيضاً ، وذلك بدلاً من ذبح حيوانين لاستخدام جلدهما في صنع الأقمصة المذكورة .

(٢) إن آدم وحواء لم يستثمرا لحم هذين الحيوانين في شيء ما ، لأنهما (أي آدم وحواء) كانا يأكلان النباتات فحسب ، ومن ثم لم يكن هناك مبرر لذبح الحيوانين المذكورين ، لولا أن الله قصد بهما كفارة أول فدية عن آدم وامرأته ، كما ذكرنا . أما أول من أكل اللحم فهو نوح وأولاده (تكوين ٩ : ٣) ، أما من سبقوهم من البشر فكانوا يأكلون النباتات فحسب . وعلماء التاريخ الطبيعي يؤكدون هذه الحقيقة ، فهم يقولون إن الانسان لم يعرف أكل اللحوم إلا بعد فترة طويلة من وجوده على الأرض .

(٣) إن هابيل بن آدم قدم عن نفسه (كما سنرى فيما بعد) ذبيحة حيوانية لله ، وطبعاً ما كان من الممكن أن يعرف كيفية تقديمها أو ضرورة تقديمها من تلقاء ذاته (لأنه لم يكن يأكل لحماً حتى يعرف كيفية ذبح الحيوان ، أو يدرك استحقاقه للموت بسبب أي خطيئة يأتيها ، حتى يقدم هذا الحيوان كفارة عن نفسه) ، بل لابد أنه عرف هذين الأمرين من أبيه . وطبعاً ما كان أبوه ليعرفهما ، لولا أنه أدرك أن الله قصد بذبح الحيوانين (اللذين لم ينتفع هو بشيء منهما سوى الجلد) ، أن يكونا كفارة عنه وعن امرأته .

مما تقدم يتضح لنا:(أولاً) أن الموت الذي كان يجب أن يحل بآدم وحواء بسبب عصيانهما ، رتب الله أن يحل بحيوانين بريئين عوضاً عنهما رحمةً بآدم وحواء من جهة ، وإيفاءً لمطالب عدالة الله على النحو الذي ارتضاه من جهة أخرى . (ثانياً) إن الله ستر عري آدم وحواء الذي ترتب على عصيانهما ، أو بالحري غطى نتائج خطيتهما ، بجلد هذين الحيوانين ــ ولذلك يكون الله قد جعل الفداء أساس الخلاص من قصاص الخطيئة ونتائجها السيئة ، التي كان يشار إليها بالعري وقتئذ .



ـ ٣ ـ
الفداء في عصر الآباء

عصر الآباء هو العصر الذي عاش فيه المؤمنون بالله قبل نزول أي شريعة من لدنه ، ومن ثم كانوا يتقربون إليه ويتعبدون له على أساس الذبيحة التي سلم مبدأها لآدم ، عندما سمح بذبحها نيابة عن نفسه ، كما يتضح مما يلي :

١ ـ ان هابيل (كما ذكرنا فيما سلف) قدم ذبيحة لله ، ويسجل الوحي أنه قدّمها من أبكار غنمه ومن سِمانها (تكوين ٤ : ٤) ، وأنه قدمها بإيمان أن الله يرضى عنه على أساسها ، وأنه لايمانه هذا شهد الله عنه أنه بار (عبرانيين ١١ : ٤) . وهذه أول مرة يُوصف فيها إنسان بأنه « بار » في الكتاب المقدس . ومن مواضع كثيرة منه يتضح لنا أن البار لدى الله ، ليس هو الانسان الخالي من الخطيئة (لأنه ليس هناك مثل هذا الإنسان) ، بل هو الإنسان الذي يدرك استحقاقه للقصاص الأبدي بسبب خطاياه . وبالاضافة إلى توبته عنها ، يعتمد في أمر القبول أمام الله على كفارة يرتضيها بناء على وصاياه في العصر الذي تقدم فيها ، وذلك لإيفاء مطالب عدالته على النحو الذي يقبله .

٢ ـ ونوح بعد خروجه من الفلك بنى مذبحاً للرب ، وأخذ من كل البهائم الطاهرة والطيور الطاهرة ، وأصعد محرقات على المذبح ، فتنسَّم الله رائحة الرضا (تكوين ٨ : ٢١) . ومن هذه الآية يتضح لنا أن نوحاً وإن كان أفضل من معاصريه الذين أهلكهم الطوفان ، غير أنه أدرك ببصيرته الروحية أنه على أي حال خاطىء ومستحق للهلاك مثلهم (لأن الخطيئة لا تكون بالفعل فقط ، بل وبالقول والفكر أيضاً كما ذكرنا) ، وإن إنقاذ الله إياه من هذا الهلاك ، إنما يرجع إلى رحمته . ومن ثم قدم الذبائح من البهائم الطاهرة والطيور الطاهرة عالماً بالإيمان أنها وحدها هي التي يليق تقديمها كفارة لله .

٣ ـ وابراهيم أبو المؤمنين ، عندما ظهر له الله بالقرب من شكيم ، بنى مذبحاً له هناك . ولما حلّ بعد ذلك شرقي بيت إيل ، بنى مذبحاً آخر له (تكوين ١٢ : ٦ ـ ٨) ، وعندما نقل خيمته إلى بلوطات ممرا ، بنى هناك مذبحاً ثالثاً (تكوين ١٣ : ١٨) ـ وبناء هذه المذابح دليل على أن ابراهيم كان يقدم عن نفسه ذبائح لله ، ودليل

أيضاً على أنه كان يعبد الله ، ويكرّس حياته له . فضلاً عن ذلك فإن الله عندما طلب منه أن يقدم ابنه ذبيحة ، لم يتردد لحظة واحدة . لكن نظراً لأن هذا الطلب كان مجرد امتحان ، أراه الله كبشاً . فقدمه ابراهيم ذبيحة عوضاً عن ابنه ، أو فدية عنه (تكوين ٢٢ : ١٣)

٤ ـــ واسحق ، عندما ظهر له الرب ووعده بمباركة نسله ، بنى مذبحاً ودعا باسم الرب (تكوين ٢٦ : ٢٥) ، معلناً بذلك أنه للرب ، وأنه يذبح له دون سواه ، كما كان يفعل ابراهيم أبوه .

٥ ـــ ويعقوب ، لما أتى سالماً إلى مدينة شكيم ، أقام مذبحاً ودعاه (وبالحري دعا عليه اسم) « إيل ، إله إسرائيل » (تكوين ٣٣ : ٢٠) [« إيل » كلمة عبرية معناها « الله » ، وفى اللغة العربية أيضاً يسمى الله « الإل » (مختار الصحاح ص ٢٢) ، ويرجع السبب في هذا التشابه إلى أن أصل اللغتين العربية والعبرية (والسريانية والارامية أيضاً) واحد . أما الاسم « إسرائيل » فهو الاسم الذي أطلقه الله على يعقوب ، عندما أظهر استماتته في التمسُّك بالله ، ومعناه « المجاهد مع الله »] . وبناء على عهد سابق منه ، أمره الله بعد مدة ، أن يصعد إلى « بيت إيل » ويبني هناك مذبحاً ، فصعد وبنى المذبح كما أمره الله . ودعا المكان « إيل بيت إيل » ، لأن هناك ظهر له الله (تكوين ٣٥ : ١ ـــ ٨) . وقبل نزوله إلى مصر لكي يرى ابنه يوسف ، ذبح ذبائح لله (تكوين ٤٦ : ١) . فظهر له الله ووعده بأنه سيرافقه في طريقه إليها .

٦ ـــ وأيوب ، كان من عادته أن يُصعد ذبائح بعدد أبنائه لله ، ليفديهم بها من قصاص ما يمكن أن يكون قد صدر منهم من خطأ في تصرفاتهم (أيوب ١ : ٥) ، حتى لا يقع هذا القصاص عليهم .

مما تقدم يتضح لنا أن المبدأ الذي على أساسه كان الله يظهر الرحمة للبشر (حتى الذين اصطفاهم من بينهم) هو اعترافهم بأنهم خطاة وأنهم يستحقون القصاص الأبدي بسبب خطاياهم ، ثم تقديمهم بعد ذلك الذبائح عوضاً عن نفوسهم .

— ٤ —
الفداء في اليهودية

يشمل هذا الفداء الذبائح التي كان يقدمها بنو إسرائيل ، وفق الشرائع التي أعلنها الله لموسى النبي ، وكانت هذه الذبائح تنقسم إلى قسمين رئيسيين :

(القسم الأول) الذبائح العامة : وهي الذبائح القومية التي كانت تقدم لله في كل يوم ، وفي كل موسم من المواسم الدينية ، وأهمها :

(١) الذبيحة اليومية : وكانت تتكون من خروفين حوليين صحيحين : الخروف الأول يعمل صباحاً والخروف الثاني بين العشاءين (العدد ٢٨ : ٣ — ٤) .

(٢) ذبيحة يوم السبت : وكانت تتكون من خروفين حوليين صحيحين ، بالاضافة إلى خروفي الذبيحة اليومية (العدد ٢٨ : ٩ ، ١٠) . [«الحولي » هو الذي مرّ عليه حول ، أو سنة أما كلمة « السبت » فمعناها « الراحة » ، ولذلك تُطلق على يوم الراحة الأسبوعية لدى بني إسرائيل]

(٣) ذبيحة أول الشهر : وكانت تتكون من ثورين وكبش وسبعة خراف حولية صحيحة (العدد ٢٨ : ١١ — ١٥) .

(٤) ذبيحة الفصح : وتتكون من ثورين وكبش وسبعة خراف صحيحة وتيس واحد ، في كل يوم من أيام الفصح السبعة (العدد ٢٨ : ١٦ — ٢٥) — هذا عدا ذبيحة الفصح العائلية التي كانت تعملها كل أسرة بنفسها (تثنية ١٦ : ٢) .

(٥) ذبيحة باكورة الحصاد : وتتكون من ثور وكبش واحد وسبعة خراف حولية صحيحة وتيس (العدد ٢٩ : ١ — ٥) .

(٦) ذبيحة عيد الكفارة : وتتكون من ثور وكبش وسبعة خراف حولية صحيحة وتيس (العدد ٢٩ : ٧ — ١٠) .

(٧) ذبيحة عيد المظال : وتتكون من ٧١ ثوراً و١٥ كبشاً و١٠٥ خروفاً حولياً و٨ تيوس ، تقدم في ثمانية أيام متتالية (العدد ٢٩ : ١٢ — ٤٠) .

(٨) ذبيحة البقرة الحمراء : وكان رمادها يوضع في ماء ، ويستعمل للتطهير الرمزي لكل من مسّ ميتاً أو قتيلاً (العدد ١٩ : ١ — ١٠) .

(القسم الثاني) **الذبائح الشخصية** : وهي الذبائح التي كان يقدمها الأفراد ، كل حسب الظرف الذي يجتاز فيه ، وأهمها :

(١) ذبيحة المحرقة : وكان يأتي بها كل من أراد التقرب إلى الله والتمتع برضائه (لاويين ١ : ١ — ٩) ، فمثلاً عندما تبوّأ سليمان المُلْك بعد أبيه ، قدم لله في يوم واحد ألف ذبيحة محرقة (١ملوك ٣ : ٤) .

(٢) ذبيحة السلامة : وكان يأتي بها كل من أراد أن يشكر الله لأجل إحسان أسداه تعالى إليه ، أو أراد أن يقدم له نافلة (أو بالحري ذبيحة تطوّعية) ، للدلالة على الاخلاص له والرغبة في التفاني في إكرامه (لاويين ٣ : ١ — ٥ ، ٧ : ١١ — ٢١) وعند تكريس الهيكل أراد سليمان الملك أن يعبر عن شكره لله ، فقدم ذبائح سلامة عددها إثنان وعشرون ألفاً من البقر ومائة وعشرون ألفاً من الغنم (١ملوك ٨ : ٦٣) .

(٣) ذبيحتا الخطيئة والإثم : وكان يأتي بإحداهما من عمل سهواً شيئاً من الأمور التي نهى الله عنها (لاويين ٤ : ١ — ٣٥ ، لاويين ٥ : ١ — ١٩) ، غير أن الذبيحة الأولى كانت تُقدم لله باعتبار الخطيئة نجاسة . أما الثانية فكانت تُقدم له باعتبار الخطيئة ذنباً — لأننا بارتكاب الخطيئة لا ننجس أنفسنا فقط ، بل نسيء إلى الله أيضاً .

(٤) ذبيحة الملء أو التكريس الكامل : وكانت تقدم عند التكفير عن الكهنة يوم إقامتهم بأعمالهم ، للدلالة على أنهم أصبحوا مقدسين لله ولخدمته (لاويين ٨ : ٢٢ — ٣٦) من الناحية الرمزية .

(٥) ذبائح التطهير الخاصة بالأم عندما تلد (لاويين ١٢ : ١ — ٨) ، والأبرص عندما يبرأ (لاويين ١٤ : ١ — ٢٠) ، والمصاب بسيل عندما ينقطع سيله (لاويين ١٥ : ١ — ١٥) . وعدا هذه الذبائح ، كانت تقدم ذبيحة عن كل بكر يولد من البشر أو البهائم النجسة . أما كل بكر بهيمة من الحيوانات الطاهرة ، فكان يقدم بنفسه ذبيحة (العدد ١٨ : ١٧) ، لأنه ، دون البكر من الحيوانات النجسة ، كان يليق تقديمه لله . [وتقديم التطهير عند الولادة سببه وصف أوجاع الولادة جزءاً من العقاب الذي وقّعه الله على المرأة بسبب خطيئتها (تكوين ٣ : ١٦) . أما مرض البرص والسيل فصورتان للخطيئة : الأول من الناحية الظاهرية ، والثاني من الناحية الباطنية . أما تقديم بكر كل بهيمة فيرجع سببه إلى أن الله كان قد أنقذ أبكار بني إسرائيل وحيواناتهم من القتل عندما كانوا في أرض الفراعنة (خروج ١٢ : ٢٩) ، وبذلك أصبح كل بكر

من هؤلاء وأولئك ملكاً له ، ومن ثم كان من الواجب أن يفتدى بذبيحة أو يقع عليه قضاؤه تعالى بالموت (خروج ١٣ : ٢ و١٥)]

ومما تجدر ملاحظته في هذه الذبائح ما يأتي :

(١) إنها كانت تُقدم عن خطايا السهو التي لا يعلم المرء بها إلا بعد صدورها منه ، الأمر الذي يدل على أنها (على العكس مما يظن بعض الناس) ذنوب أمام الله ، كما ذكرنا في الباب الأول .

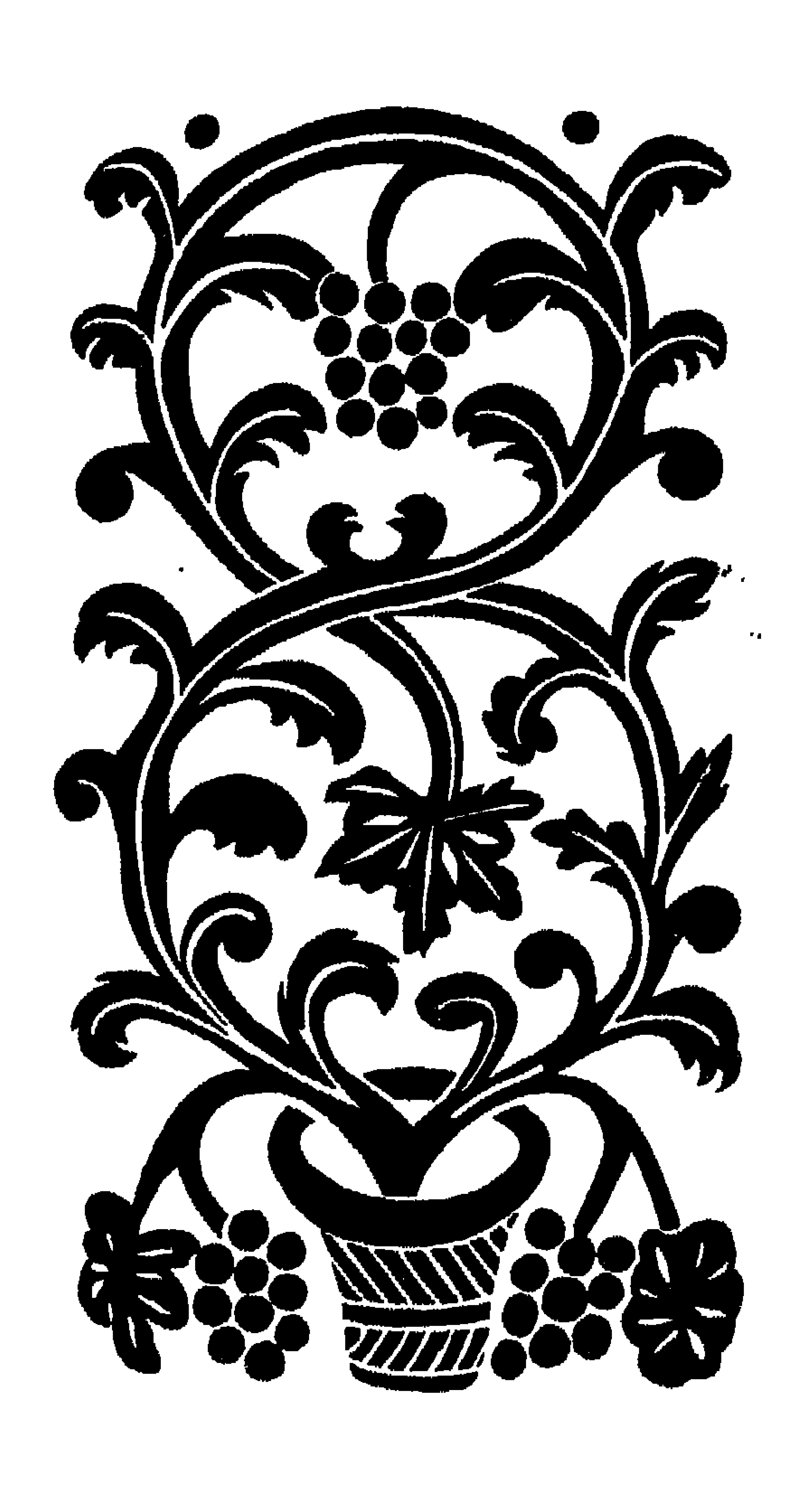
أما الخطايا التي كانت تُرتكب عمداً فلم تكن لها كفارة ما ، بل كان من الواجب أن يُقتل أو يُرجم فاعلها (اقرأ مثلاً : لاويين ٢٠ : ١٠ ، وعدد ١٥ : ٣٥) وذلك بناء على قول الله : « وأما النفس التي تعمل بيد رفيعة (أي عمداً) من الوطنيين أو من الغرباء ، فهي تزدري بالرب ، فتُقطع تلك النفس من بين شعبها لأنها احتقرت كلام الرب ونقضت وصيته » (عدد ١٥ : ٣٠) . وقد قصد الله بذلك أن يعلمنا وجوب الابتعاد عن الخطيئة كل البعد .

(٢) إن الذبائح لم يكن يُعفى من تقديمها أحد حتى إذا كان فقيراً ، لكن رأفة بالفقراء سمح الله لهم بتقديم ذبائح رخيصة الثمن ، مثل الحمام أو اليمام (لاويين ١٤ : ٢١ — ٢٢) .

(٣) إن هذه الذبائح كانت تقدم على مذبح النحاس القائم في هيكل الله ، ومن ثم كان المفهوم لدى الجميع أنها مقدمة لأجل الحصول على الغفران ، كما كان الذين يقدمونها يضعون أيديهم على رؤوسها ويقرّون عليها بخطاياهم ، رمزاً لانتقال خطاياهم إلى الذبائح المذكورة ، ومن ثم كانت تعتبر كفارة أو فدية عنهم (لاويين ٤ : ٤) .

(٤) إن ذبيحة السلامة كان يأكل جزءاً منها الشخص الذي أتى بها والكاهن الذي قدمها ، رمزاً لاشتراكهما في التمتع بإحسان الله (لاويين ٧ : ١١ — ٣٨) . وذبيحة الإثم التي لا يدخل الكاهن بدمها إلى قدس الأقداس ، كان يأكل جزءاً منها وحده ، رمزاً لأنه مسئول عن إثم الناس الذين يوجدون في دائرة خدمته . أما ذبيحة المحرقة وذبيحة الخطيئة اللتان كان يدخل بدمهما إلى قدس الأقداس ، فلم يكن يأكل منهما أحد — غير أن الأولى كانت تُحرق على المذبح لأنها كانت تعتبر قرباناً طاهراً لله للحصول على رضاه (لاويين ٦ : ٨— ١٣) ، أما الثانية فكانت تحرق خارج المحلة لأنها كانت تعتبر نجسة بسبب نيابتها عن خطاة يستحقون العذاب الأبدي بعيداً عن الله كل البعد (لاويين ٦ : ٢٤ — ٣٠) .

(٥) إن الذبائح بصفة عامة كان من الواجب أن تكون بلا عيب ، فالحيوان الأعمى أو المكسور أو المجروح أو البثير أو الأجرب أو الأكلف أو مرضوض الخصية أو مسحوقها أو ... أو ... ، لم يكن يُسمح بتقديمه ذبيحة لله (لاويين ٢٢ : ٢١ ــ ٢٥) ، وكان ذلك رمزاً إلى أن الفادي الذي يصلح كفارة عن الناس يجب أن لا يكون طاهراً فحسب ، بل وأن يكون كاملاً من كل الوجوه أيضاً .



— ٥ —

الفداء في الوثنية

نبذ معظم الناس الوثنية من عهد بعيد ، لكن نظراً لأنها كانت ولا تزال منتشرة في بلاد متحضرة ، ويعتنقها إلى الآن أشخاص نالوا قسطاً وافراً من الثقافة ، لذلك لا شك أنها قامت على آراء جديرة بالبحث ، وبدراسة هذه الآراء يتضح لنا :

(١) كان الوثنيون في أول الأمر يعبدون الله الواحد ، لكن لعجزهم عن إدراكه ، عبدوا الكائنات التي تصوّر لهم الصفات التي تخيلوا اتصافه بها . ومن ثم رفعوا هذه الكائنات إلى مرتبة الألوهية لديهم ، وتقدموا إليها بكل خشوع واحترام بعد غسل أجسادهم بماء كانوا يدعونه « الماء المقدس » ، كما قربوا لها الذبائح الحيوانية لكي ينالوا (حسب اعتقادهم) غفرانها ورضاها — وكان معظم الوثنيين يعتزون بهذه الذبائح اعتزازاً عظيماً ، فكانوا يزينونها بأزهار جميلة ويرقصون حولها كثيراً ، وبعد ذلك كانوا يسلمونها إلى الكاهن ليتولى تقريبها إلى آلهتهم .

(٢) وكان قدماء المصريين يواظبون على تقريب الذبائح الحيوانية لآلهتهم ، وكانوا يعدّون لهذا الغرض مذبحاً خاصاً في كل هيكل من هياكلهم . وكان من الواجب على الكهنة الذين يقرّبونها أن يكون شعرهم محلوقاً وملابسهم نظيفة ، حتى لا يكون بهم شيء من الهوام . وكانوا في أثناء تقريب الذبائح المذكورة ينشدون ترانيم معينة ، ويقومون بشعائر دينية خاصة — أما عند استعطافهم للإله « تيفون » فكانوا يحرقون الضحايا وهي حية . وبعد حرقها كانوا يذرّون رمادها في الهواء ، لكي ينتزع منه (كما يعتقدون) كل شر يمكن أن يكون فيه .

(٣) وبلغ شعور الفرس والبابليين بشر الخطيئة شأواً عظيماً ، حتى أنهم كانوا يشعلون ناراً أمام آلهتهم ويطرحون فيها أبناءهم لكي يكونوا كفارة عنهم ، أو رواداً يفسحون لهم الطريق إلى العالم الآخر ، أو رسلاً يحملون المعونة لأقاربهم الذين رحلوا إلى هذا العالم من قبل . ومما يثير الدهشة أنهم كانوا يحرقون أبناءهم وسط قرع الطبول وهتاف المغنين !!

(٤) وكان الهنود يعذبون أنفسهم بطرق كثيرة مثل المشي على المسامير ، وعدم تحريك أيديهم أو أرجلهم ، أو قطع بعض أجزاء من أجسامهم . ظناً منهم أنهم بهذه الوسائل يكفرون عن خطاياهم ويتخلصون منها ومن عقابها . كما كانوا يقدمون أبناءهم

طعاماً للحيوانات المؤلّهة كالتماسيح ، لكي يحصلوا (حسب اعتقادهم) على عفوها ورضاها . فقد جاء فى كتاب الفيدا ، وهو الكتاب المقدس عندهم ، إن الانسان كفّر عن نفسه أولاً بنبات الأرض ، ثم بالحيوان ، ثم بأولاده . ويقول المؤرخون إن بعض الهنود ، تحت تأثرهم بشناعة خطاياهم ، وفداحة التضحيات التي كانوا يبذلونها في سبيل التكفير عنها ، « كانوا يقولون متى يا ترى نخلص نهائياً من خطايانا !! » .

(٥) ومن المأثور عن الكاهن الذي كان يقدم الذبائح في الهند ، أنه كان يطهر أولاً نفسه بما كان يُدعى « الماء المقدس » ثم يطهر الجو المحيط به بواسطة رسم دائرة واسعة في الفضاء بذراعه . وبعد فحصه للذبائح وتأكده من سلامتها ، كان يدور حولها ثلاث مرات ، وهو يحمل مشعلاً في يمينه . أما أصحاب الذبائح فكانوا يظلون بالقرب منها حتى يذبحها الكاهن ويأخذوا أنصبتهم منها ، ويشاهدوا بعد ذلك بقاياها وهي تحترق بالنار . وكانوا يعتقدون أن من يأكل من الذبائح تنتقل إليه صفات الإله المقدَّمة هذه الذبائح إليه . فقد جاء في الترانيم الفيدية أن من يقدم محرقة إلى براهما ، يتحد به ، ولكن في دائرته .

(٦) وإذا تطلعنا إلى اليونان والرومان ، نرى أنهم كانوا يؤمنون بآلهة متعددة للزراعة والإخصاب والجمال والحرب وغير ذلك . وخشية أن يكونوا قد نسوا واحداً منها بنوا مذبحاً وكتبوا عليه : « لإله مجهول » ، وكانوا يقدمون لهذا الإله وغيره من الآلهة الكثير من الذبائح الحيوانية . ولم تكن هذه العادة عند عامتهم فحسب ، بل وعند خاصتهم أيضاً . فسقراط عندما تذكر قبل موته أنه مدين بديك لإله الطب « اسكولابيوس » ، أوصى تلميذه أن ينوب عنه في تقديم هذا الديك . كما أن أفلاطون الذي أرتقى روحياً عن معاصريه ، وأدرك الشيء الكثير عن وحدانية الله والفضيلة التي يجب مراعاتها ، ذهب إلى حقيقة سامية من جهة الذبائح لم يدركها كثيرون منهم . فقال « إن الذبائح ضرورية ، لكنها لا تنفع البشر إلا إذا توافرت فيهم النية الصالحة » . ولعله قصد بهذه النية ، التوبة عن الخطيئة والعزم الوطيد على السلوك حسب قوانين الفضيلة .

ونظراً لانتشار الذبائح في الوثنية واليهودية معاً ، ظن بعض الناس إن اليهود نقلوا عادة تقديمها من الوثنيين الذين كانوا يختلطون بهم . لكن هذا الظن لا نصيب له من الصواب ، وذلك للأسباب الآتية :

(الأول) إن تقديم الذبائح لدى الوثنيين كان مقترناً بالفسق في كثير من الأحيان . أما تقديم الذبائح لدى اليهود فكان مقترناً بالقداسة والخشوع التام أمام الله ، لأنه كان قد أُعلن لهم أنه قدوس ويبغض الشر حتى في أبسط مظاهره . (اقرأ مثلاً : لاويين ١١ : ٤٤ ، يشوع ٢٤ : ١٩ ، ١صموئيل ٢ : ٢) . ولذلك عندما حاول اليهود مرة أن يقتدوا بالوثنيين المذكورين ، أمر الله موسى أن يُعمل بالسيف فيهم ، فقتل منهم وقتئذ ثلاثة آلاف رجل (خروج ٣٢ : ٤ — ٢٩) ، فضلاً عن ذلك فقد هددهم بالموت الزؤام إذا تشبهوا بالوثنيين في نجاستهم ورجسهم وأكلهم للدم وتفاؤلهم وتشاؤمهم ونقش الوشم على أجسادهم ، والاتصال بالجان في تدبير شئونهم (لاويين ١٨ و١٩ و٢٠) .

(الثاني) إن الوثنيين كانوا يقدمون الذبائح ليس للتكفير عن خطاياهم فحسب ، بل وأيضاً لكي يرضوا الأرواح الشريرة التي كانوا يعتقدون أنها تزعجهم ، أو لكي يبعدوها عن أجساد الذين لبستهم وترحل إلى عالمها ، ولذلك كان تقديم الذبائح لديهم مقترناً بالشعوذة . فضلاً عن ذلك فقد كانوا يقربون لآلهتهم وحوش البرية والطيور الجارحة (التي كان من المحرّم على اليهود تقديمها لله) ، كما كانوا يشربون الدم ولا يحرقون أي ذبيحة بأكملها ، على النقيض مما كان يفعله اليهود أيضاً .

(الثالث) إن الوثنيين كان لديهم في كل بلد الكثير من المذابح ، كما كانوا ينظرون إليها كالهدف الذي يتجهون إليه ، ومن ثم كانوا يبالغون في تزيينها ونقش صور آلهتهم عليها ، كما كانوا يشيدونها على المرتفعات ليفخروا بها . أما اليهود فقد كان عندهم مذبح واحد في هيكل أورشليم ، وقبل بناء هذا الهيكل ، كان الله يطلب منهم أن يصنعوا المذبح من التراب أو من حجارة لم يمسسها ازميل ، لكي تكون منخفضة ، وفي الوقت نفسه لكي لا تكون ذا شكل يجذب الأنظار إليها في ذاتها (خروج ٢٠ : ٢٤ — ٢٥) .

(الرابع) إن الملوك لدى الوثنيين كانوا يقومون أحياناً بتقديم الذبائح . لكن هذا العمل كان مقصوراً لدى اليهود على الكهنة الذين أقامهم الله . وقد حاول مرة أحد ملوك بني إسرائيل أن يرفع بخوراً في الهيكل لله ، فضربه الله بالبرص (٢أخبار ٢٦ : ١٨ و١٩) .

(الخامس) كان كهنة الوثنيين يحلقون رؤوسهم بالموسى ، أو يربون خصلاً ، كما كانوا يشربون الدم ويقتنون الأملاك . أما كهنة اليهود فكانوا يجزون شعر رؤوسهم ، ولا

يربون خصلاً ، ولا يشربون الدم . كما كانوا لا يقتنون أملاكاً ، لكي تكون كل آمالهم وجهودهم مركزة في خدمة الرب .

(السادس) أخيراً نقول : بالرجوع إلى التاريخ نرى أن الذبائح ليست دخيلة على اليهودية بل أصلية فيها . فقد كان يقدمها آباء اليهود الأوائل مثل ابراهيم واسحق ويعقوب . كما كان يقدمها قبلهم رجال الله الأتقياء مثل هابيل ونوح ، قبل ظهور الوثنية على الأرض بأجيال متعددة كما ذكرنا فيما سلف . أما الذي نقله اليهود عن الوثنيين في فترة من الزمن ، فهو عادة تقديم أبنائهم ذبيحة للوثن مولك ، وقد نهاهم الله كثيراً عن هذه العادة ، كما أنزل عليهم بسببها قصاصاً شديداً (إرميا ٧ : ٣١ — ٣٤) .

وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف تسرب إلى الوثنيين الاعتقاد بوجوب تقديم الذبائح الحيوانية لآلهتهم ؟ طبعاً تسرب إليهم من أجدادهم الأوائل ، وهم حام وسام ويافث ، لأن هؤلاء هم الذين تكونت منهم الأجناس البشرية في آسيا وافريقية وأوربا على التوالي ، كما يتضح من الكتاب المقدس وكتب الجغرافية البشرية — وسام وحام ويافث هؤلاء كانوا بحكم علاقتهم مع نوح أبيهم يعرفون وجوب تقديم الذبائح لله كما ذكرنا فيما سلف (تكوين ٦ : ١٠) . لكن على مر الأيام نسي أبناؤهم (الذين عُرفوا فيما بعد بالوثنيين) المولى جل شأنه ، وبقي اسمه فقط عالقاً بأذهانهم ، لذلك كانوا يطلقونه على الكائنات التي تخيلوا أنها تتصف بصفاته ، ومن ثم كانوا يقدمون الذبائح والقرابين إليها وفقاً للمراسيم التي اخترعوها كما ذكرنا — هذا ومن المحتمل أن يكون المفكرون منهم مثل سقراط وأفلاطون رأوا وجوب تقديم هذه الذبائح نتيجة لشعورهم الشخصي بشناعة الخطيئة ، ورغبتهم في تجنب القصاص الذي يستحقونه من العدالة الإلهية بسببها ، وبذلك سَرَت عادة تقديم الذبائح بين بعض الوثنيين .

أهمية سفك دم الذبائح في الحصول على الغفران

تعتري بعض الناس دهشة عظيمة عندما يرون الأضاحي الكثيرة التي كانت ولا تزال تُقدَّم في معظم بقاع الأرض . لكن لا داعي للدهشة على الاطلاق ، لأنه لما كان الصفح عن الخطيئة أثمن شيء لدى المؤمنين بالله ، ولما كانت الوسيلة الوحيدة للحصول على هذا الصفح هي الفدية ، لذلك كان أمراً بديهياً أن يضحي هؤلاء المؤمنون بهذه الكمية الهائلة من الذبائح . ولزيادة الإيضاح نتحدث عن النقاط الآتية :

١ — أهمية سفك دم الذبائح للتكفير ، في اليهودية والمسيحية : قال الله لموسى النبي :« لأن نفس الجسد هي في الدم . فأنا أعطيتكم إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم ، لأن الدم يكفر عن النفس » (لاويين ١٧ : ١١) وقال الرسول بولس للمسيحيين : « بدون سفك دم لا تحصل مغفرة » (عبرانيين ٩ : ٢٢) وبما أن دم الحيوان يجري في جميع أجزاء جسمه ويبعث الحياة إليها ، وبما أن الذي يقوم بهذه المهمة هو النفس ، لذلك تكون نفس الحيوان في دمه ، كما أعلن الكتاب المقدس .

أما السبب في كون الدم هو الوسيلة الوحيدة للمغفرة أو الفداء ، فيرجع إلى أن نفس الحيوان هي في دمه . وبما أنه بسفك دمه تفارقه نفسه ، كان من البديهي أن يعتبر سفك الدم تعويضاً عن نفس الخاطيء ، ومن ثم كان ينجو من القصاص الذي يستحقه ، أو بالحري يحصل على المغفرة التي يحتاج إليها .

٢ — عدم صلاحية القرابين غير الدموية للتكفير عن النفس : ولذلك إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس نرى أن الله رفض قربان قايين (أخي هابيل) لأنه لم يكن ذبيحة دموية ، بل كان ثمراً من ثمار الأرض . فقد قال الوحي عن الله « إلى قايين وقربانه لم ينظر » (تكوين ٤ : ٥) .

وهنا يسأل بعض الناس [إذا كان الغفران يتوقّف على سفك الدم ، فلماذا لم يرشد الله قايين ، كما أرشد هابيل أخاه ، إلى ضرورة تقديم ذبيحة دموية ؟] وللرد على ذلك نقول : إن الله أرشده كما أرشد أخاه تماماً ، لكن قايين هو الذي شاء أن يقدم قرباناً حسب استحسانه . ومن ثم استحق أن يلومه الله بالقول « إن أحسنت (اختيار الذبيحة) أفلا رفع ؟ » أو بالحري أمَا كان يرتفع وجهك ، وتنال القبول أمامي مثل أخيك (تكوين ٤ : ٧) — واللوم لا يوجه (كما نعلم) إلا للشخص الذي يخالف

وصية سبق تبليغها إليه .

مما تقدم يتضح لنا أن السبب في قبول الله لهابيل يرجع إلى أن قربانه ينم عن الاعتماد على الفداء بالدم . وأن السبب في رفضه لقايين ، يرجع إلى أن قربانه ينم عن الاعتماد على الاجتهاد الشخصي في القبول أمامه ، لأن هذا الاجتهاد مهما كان شأنه ، لا يستطيع أن يكفر عن الخطيئة . إذ أن « أجرة الخطية هي موت » : موت فاعلها أو موت من ينوب عنه ، وليس القيام بعمل من الأعمال التي ندعوها الصالحة أو النافعة .

أما عن الدعوى [بأن الله رضي عن هابيل لأنه كان تقياً ، ورفض قايين لأنه كان شريراً] فنقول : إن هابيل كان مولوداً بطبيعة تميل إلى الخطيئة مثل أخيه تماماً . ولذلك لا شك أنه كان يعملها مثله إن لم يكن بالفعل فبالفكر أو القول ، ومن ثم يكون السبب في قبول الله لهابيل ورفضه لقايين راجعاً فقط إلى نوع القربان الذي قدمه كل منهما ــ وقول الوحي عن هابيل إن الله شهد لقرابينه (وليس شهد له أو لأعماله) كما يتضح من (عبرانيين ١١ : ٤) ، خير دليل على صدق ما ذكرناه .

٣ ــ **تحريم شرب الدم** : ولما كان الدم هو الوسيلة التي عينها الله للغفران ، حرم على البشر شربه . فقال لبني إسرائيل:« كل إنسان من بيت إسرائيل ومن الغرباء النازلين في وسطكم يأكل دماً ، أجعل وجهي ضد النفس الآكلة الدم وأقطعها من شعبها » (اللاويين ١٧ : ١٠) . كما قال لنوح وأولاده من قبل ، عندما سمح لهم لأول مرة في التاريخ بأكل اللحم : « كل دابة حية تكون لكم طعاماً ، كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع . غير أن لحماً بحياته دمه (أي بدمه الذي فيه الحياة) لا تأكلوه » (تكوين ٩ : ٣ و٤) . وبذلك نهى ليس عن شرب الدم فحسب ، بل وأيضاً عن الحيوانات التي لم يُسفك دمها . لأنه قال في موضع آخر « ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوا » (خروج ٢٢ : ٣١) . كما قال عن الكاهن في العهد القديم « وميتة أو فريسة لا يأكل » (اللاويين ٢٢ : ٨) . ولما جاءت المسيحية نهت أيضاً عن شرب الدم وأكل لحم الحيوان الذي لم يسفك دمه ، فقد قال الرسول للمؤمنين « وأن تمتنعوا عن الدم والمخنوق » (أعمال ١٥ : ٢٩) .

أما الذين ينكرون أن السبب في تحريم شرب الدم ، هو جعل الله إياه كفارة عن النفس ، ففيما يلي آراؤهم مصحوبة بالرد عليها :

١ ــ [إن الله نهى عن شرب الدم لأنه شر في ذاته ، وليس لنا أن نسأل عن ماهية هذا الشر، إذ يكفي أن نطيع الله في كل ما يأمرنا به] .

الرد : إن المادة في ذاتها ليست شراً ، بل الشر هو في سوء استعمالها ، فالمواد المخدرة مثلاً ، من حيث هي مواد نباتية أو كيمائية ، ليست شراً ، لأنها تستعمل بأمر الأطباء في علاج بعض الأمراض ، إنما الشر (كما نعلم) هو في استعمالها لخدمة الأهواء الجسدية . وبما أن الدم فضلاً عن أنه ليس شراً في ذاته ، يحتوي على عناصر مغذية للجسم . ومنه يصنع الهيموجلوبين لعلاج حالات فقر الدم ، إذاً ليس من المعقول أن يكون الله قد نهانا عن شرب الدم لذاته .

٢ ــ [إن الله نهى عن شرب الدم ، لأن حاسة الذوق فينا لا تقبله] .

الرد : إن الإنسان ، بل والحيوان أيضاً يعرف بالطبيعة طعم الأشياء ، فيأكل منها ما يتفق مع ذوقه ويرفض ما لا يتفق معه ، دون أن يكون في حاجة إلى أمر أو نهي من الله عن هذا أو ذاك . فضلاً عن ذلك فهناك أشياء كثيرة (كسلوفات الصودا مثلاً) لا تقبلها حاسة الذوق فينا ، ومع ذلك ليس هناك من يقول بأنه محرم علينا استعمالها .

٣ ــ [إن الله نهى عن شرب الدم لأنه يثير الشهوة في الإنسان ، كما يحوّله إلى وحش مفترس] .

الرد : إن كانت بعض الأطعمة تبعث النشاط إلى جسم الإنسان ، لكن الذي يثير الشهوة فيه ليس تناول هذه الأطعمة ، بل التفكُّر في الشهوة المذكورة . فضلاً عن ذلك فإن كثيرين من المرضى يأكلون (بناء على نصيحة الأطباء) الكبد دون طهي أو شيّ ، (والكبد كما نعلم كلها دم) ، ومع ذلك لم يفترسوا أحداً على الاطلاق .

مما تقدم يتضح لنا أنه ليس هناك سبب معقول لتحريم شرب الدم سوى ذاك الذي ذكره الوحي الإلهي ، وهو « لأن الدم يكفر عن النفس » (لاويين ١٧ : ١١) ، الأمر الذي يدل على أن الوسيلة الوحيدة التي عيّنها الله للقبول أمامه ، هي الفداء بالدم .

— ٧ —

تطوّر الآراء من جهة الفداء بدم الذبائح

وإن كانت الذبائح الحيوانية لا تزال تشغل إلى الآن مركزاً عظيماً بين كثير من الناس في بلاد متعددة ، غير أن فكرة تقديمها لأجل الحصول على الغفران أخذت في التطوّر بين رجال الله من عهد بعيد ، ولكي نقف على الأسباب التي أدت إلى هذا التطور نقول :

١ ـــ **عدم كفاية الذبائح الحيوانية للفداء** : بما أن الفدية التي تصلح للتكفير عن الإنسان يجب أن تكون معادلة له في القيمة ، حتى تكون كافية للتعويض عنه . وبما أن نفس الإنسان روحية خالدة وذات خواص أدبية وعقلية سامية ، بينما نفس الحيوان فضلاً عن كونها دموية لا خلود لها ، هي خالية من هذه الخواص ، إذاً لا يمكن أن تكون في ذاتها كافية لفداء الإنسان والتكفير عنه أمام عدالةالله .

٢ ـــ **أسباب استعمال الذبائح الحيوانية للفداء** : وهنا يتساءل بعض الناس [إذا كانت الذبائح الحيوانية غير كافية في ذاتها للتكفير عن الإنسان ، فلماذا أمر الله بتقديمها ؟] .

وللرد على ذلك نقول : إن الإنسان في العصر الأول كان لا يقدّر القيم الأخلاقية تقديراً صحيحاً ، كما يشهد بذلك الكتاب المقدس وكتب التاريخ . ولعدم تقديره لهذه القيم ، كان يتعذر عليه إدراك نتائج الخطيئة في نفسه ، أو مقدار الاساءة التي يوجهها إلى الله بفعلها . لذلك كان من البديهي أن يبدأ الله وهو الحكيم العارف بطباع البشر وطرق تعليمهم وتهذيبهم ، بإظهار خطورة الخطيئة ووخامة عواقبها بوسائل ملموسة تستطيع عقولهم البدائية فهمها وإدراكها . وذلك بتصوير الموت الذي هو النتيجة الحتميةللخطيئة بعمل يمكنهم رؤيته بعيونهم وفهم مرماه بعقولهم (كما هي الحال في تعليمنا للأطفال مثلاً ، فاننا نقدم لهم الصور قبل الكلمات المعبرة عنها ، لأنهم يستطيعون إدراك مدلول الصور قبل إدراك معاني الكلمات المذكورة) . ولما كان الحيوان هو أقرب الكائنات إلى الإنسان شعوراً بالراحة والألم ، كما تظهر عليه بوضوح علامات الحياة والموت ، كان من البديهي أن يعلن الله للخطاة ما يستحقونه من عذاب مصوّراً في ذبح حيوان وحرقه . ومن ثم كانوا يدركون أنه بسبب خطاياهم ، كان من الواجب أن يكونوا مكان هذا الحيوان ، لكن الله من باب العطف عليهم سمح به كفارة عنهم . ولذلك كانوا يشعرون بشناعة الخطيئة . ويشكرون الله لأنه جعل لهم طريقاً للخلاص من قصاصها .

٣ ـ أسباب تطوّر الآراء من جهة الذبائح الحيوانية : لكن بارتقاء البشر أدبياً وروحياً ، أخذوا يدركون نجاسة الخطيئة وتأثيرها الشنيع على نفوسهم ، كما أخذوا يدركون فداحة الاساءة التي يوجهونها إلى الله بارتكابها . ومن ثم أدركوا أن الذبائح الحيوانية لا يمكن أن تكون في ذاتها هي الفدية التي قصدها الله للخلاص من عقوبة الخطيئة . وقد صادق الله على إدراكهم هذا فقال « اسمع يا شعبي فأتكلّم . لا على ذبائحك أوبخك ، فان محرقاتك هي دائماً قدامي . لا آخذ من بيتك ثوراً ولا من حظائرك أعتدة (أي جداء) ، لأن لي حيوان الوعر (أي الغابة) ، والبهائم على الجبال الألوف ... هل آكل لحم الثيران أو أشرب دم التيوس . اذبحْ لله حمداً وأوفِ العلي نذورك وادْعُني في يوم الضيق أنقذك فتمجدني » (مزمور ٥٠ : ٧ ــ ١٥) . ولذلك قال دواد النبي مرة لله « لأنك لا تُسرّ بذبيحة . وإلا فكنت أقدمها . بمحرقة لا ترضى » (مزمور ٥١ : ١٦) . وميخا النبي تساءل بينه وبين نفسه قائلاً « بما أتقدم إلى الرب وأنحني للإله العلي ؟ هل أتقدم بمحرقات ، بعجول أبناء سنة ؟! هل يُسرّ الرب بألوف الكباش ، بربوات أنهار زيت ؟! هل أعطي بكري عن معصيتي ، ثمرة جسدي عن خطيئة نفسي ؟! » (ميخا ٦ : ٦ ، ٧) .

هذا هو ما انتهى إليه الأنبياء الذين كانوا يؤمنون بالله ويعملون كل ما في وسعهم لينجوا من عقابه ويحصلوا على ثوابه ، كما كانوا يكثرون من الصلوات والأصوام وأعمال الرحمة والاحسان وتقديم الذبائح والقرابين ، ومع ذلك كانت خطاياهم على الرغم من قلتها أكثر وأشنع من أن يجدوا لها بهذه الوسائل غفراناً . لذلك قطعوا الأمل من جهة القبول أمام الله ، فقال أيوب « ليس بيننا (أي بينه وبين الله) مصالح يضع يده على كلينا . ليرفع (الله) عني عصاه ولا يبغتني رعبه » . وقال أيضاً : « فكيف يتبرر الانسان (إذا) عند الله ؟ » (أيوب ٩ : ٣٣ و١) . كما قطعوا الأمل من وجود أي فدية عن نفوسهم . فقال داود النبي « الأخ لن يفدي الانسان فداء ، ولا يعطي الله كفارة عنه . وكريمة هي فدية نفوسهم ، فغَلِقَت إلى الأبد » (مزمور ٤٩ : ٧ ، ٨) . أي أن الانسان لا يستطيع أن يفدي أخاه الانسان مهما كانت علاقة المحبة التي بينهما ، لأن الفدية الحقيقية ليست في متناول البشر على الاطلاق (كما سيتضح في الباب الرابع) . وقد صادق المسيح على اعتقادهم فقال « ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، **أو ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه ؟** » (متى ١٦ : ٢٦) .

والحق أنه لا غرابة في استيلاء الحيرة على هؤلاء الأفاضل ، وشعورهم بالعجز عن

معرفة الفدية الحقيقية التي تصلح للتكفير عنهم ، لأنهم لتأثرهم بقداسة الله تأثراً حقيقياً كانوا يرون الخطيئة كما هي بكل شناعتها وخطورتها . أما البعيدون عن الله فلا يستطيعون رؤية الخطيئة في هذه الصورة ، ومن ثم يظنون أنه من السهل الحصول على الغفران بواسطة أي عمل من الأعمال التي يطلقون عليها الأعمال الصالحة . لكن لو تطلعوا إلى ذواتهم في نور عدالة الله وقداسته اللتين لا حد لهما كما فعل هؤلاء الأفاضل ، لاستطاعوا أن يدركوا مثلهم عجزهم الكلي عن محو خطاياهم ، بكل أعمالهم الخيرية وممارستهم الدينية ، ولصرخ كل واحد منهم كما صرخ إشعياء النبي قديماً « ويل لي إني هلكت ، لأني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين !! » (إشعياء ٦ : ٥) ، ولتهيأوا تبعاً لذلك لمعرفة الطريق الذي أعلنه الله للخلاص من عقوبة الخطيئة ونتائجها الشنيعة ، والذي سنتولى إيضاحه بشيء من التفصيل فيما يلي .

أما الاعتراضات الموجهة ضد هذه الحقائق ففيما يلي بيانها والرد عليها :

١ ــ [إن عدم طلب الله لأي ذبيحة من بني إسرائيل الوارد في (مزمور ٥٠ : ٧ ــ ١٥) السابق الإشارة إليه ، يدل على عدم ضرورة تقديم الذبائح لأجل الحصول على الغفران . كما أن قول الله على لسان إرميا النبي لليهود « ضموا محرقاتكم إلى ذبائحكم وكلوا لحماً ، لأني لم أكلم آباءكم ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة وذبيحة » (إرميا ٧ : ٢١ ــ ٢٢) يدل على وجوب عدم تقديم الذبائح المذكورة] .

الرد : بالرجوع إلى الآيات الواردة في (مزمور ٥٠ : ٧ ــ ١٥) نرى أن المراد بها ، ليس النهي عن تقديم الذبائح للحصول على الغفران ، بل التنبيه إلى عدم استطاعة البشر أن يقدموا الذبيحة الكافية عن خطاياهم ، فإن الله تولّى تدبيرها بنفسه (عبرانيين ١٠ : ٥ ــ ٩) والدليل على ذلك أن الله حرّضهم بعد هذه الآيات بـ ٦٠٠ سنة تقريباً على لسان ملاخي النبي على تقديم الذبائح التي لا عيب فيها ، فقال لهم : « إن قربّتم الأعمى ذبيحة ، أفليس ذلك شراً ؟ وإن قربتم الأعرج والسقيم ، أفليس ذلك شراً ؟ » (ملاخي ١ : ٨) .

كما أنه بالرجوع إلى الآيات الواردة في سفر إرميا (٧ : ٢١ ــ ٢٢) ، نرى أن المراد بها ليس وجوب امتناع اليهود عن تقديم الذبائح ، بل وجوب توبتهم لله وإصلاح طرقهم أمامه ، لأنهم كانوا يظلمون الغريب واليتيم والأرملة ، كما كانوا يسفكون دماء الأبرياء ويركضون وراء العبادة الوثنية ، وبعد ذلك كانوا يتقدمون بذبائحهم إلى الله !! (إرميا ٧ : ١ ــ ١٥) .



الباب الرابع

تفرُّد الله بالقدرة على الفداء الحقيقي

— ١ —

الشروط الواجب توافرها في الفادي ، وامكانية تحقيقها

عرفنا مما سلف أن الأنبياء وهم صفوة الناس ، عجزوا عن الاهتداء إلى الفدية التي تصلح للتكفير عنهم ، على الرغم من أصوامهم وصلواتهم وصدقاتهم وذبائحهم المتعددة ، فما السبب في ذلك ؟

الجواب : طبعاً لأنهم وجدوا وجوب اشتمال هذه الفدية على مميزات يتعذر تحقيقها في نظرهم . ولذلك سنبحث فيما يلي على قدر ما يتسع المجال أمام عقولنا ، عن الشروط الواجب توافرها في الفدية ، أو بالحري في الفادي ، حتى يكون قادراً على التكفير عن خطايانا تكفيراً حقيقياً (أو بالحري على تحمل قصاصها بأسره ، إيفاء لمطالب قداسته التي لا نهاية لها) ، حتى يمكن الحصول على الغفران والتمتع بحضرة الله ، ولذلك نقول :

أولاً ـــ الشروط الواجب توافرها في الفادي

١ ـــ بما أن الفدية يجب أن تكون على الأقل مساوية في قيمتها للشيء المطلوب فداؤه ، وبما أنه لا يساوي الانسان إلا إنسان مثله لأنه ليس له نظير بين الكائنات يعادله ويساويه ، لذلك فالفدية أو بالحري الفادي الذي يصلح للتكفير عن نفوسنا ، يجب أن لا يكون حيواناً بل أن يكون على الأقل انساناً .

٢ ـــ وبما أن هذا الفادي سيكون فادياً ليس لانسان واحد بل لكل الناس ، (وذلك لتعذُّر وجود فادٍ لكل واحد من بلايين البشر الذين يعيشون في العالم ، في كل العصور والبلاد) . يجب أن تكون قيمته معادلة لكل هؤلاء الناس .

٣ ـــ وبما أنه لو كان الفادي من جنس يختلف عن جنسنا (على فرض وجود مثل هذا الجنس) ، لما استطاع أن يكون نائباً عنا ، (لأن النائب يكون من جنس الذين ينوب عنهم) ، لذلك فإنه مع عظمته التي ذكرناها يجب أن يكون واحداً من جنسنا .

٤ ـــ وبما أنه لو كان الفادي خاطئاً مثلنا ، لكان محروماً من الله وواقعاً تحت قضاء القصاص الأبدي نظيرنا ، ولا يستطيع تبعاً لذلك أن ينقذ واحداً منا من هذا المصير المرعب ، لأنه يكون هو نفسه محتاجاً إلى من ينقذه منه ، لذلك فالفادي مع وجوب كونه واحداً من جنسنا ، يجب أن يكون خالياً من الخطيئة خلواً تاماً .

٥ ــ وبما أن خلوه من الخطيئة وإن كان أمراً سامياً ، لا يقوم دليلاً على كماله ، وبالتالي على أهليته ليكون فادياً ــ فآدم مثلاً رغم أنه خُلق خالياً من الخطيئة غير أنه لم يكن معصوماً منها ، لأنه عندما عاش على الأرض سقط فيها ، لذلك لا يكفي أن يكون الفادي خالياً من الخطيئة ، بل يجب أن يثبت بالدليل العملي أنه معصوم منها أيضاً .

٦ ــ فضلاً عن ذلك ، بما أنه لو كان مخلوقاً ، لكان بجملته ملكاً لله . وشخص ليس ملكاً لنفسه بل ملكاً لله ، لا يحقّ له تقديم نفسه فدية لله عن إنسان ما ، إذاً فالفادي يجب أن يكون أيضاً شخصاً غير مخلوق لكي يكون من حقه أن يقدم نفسه كفارة .

٧ ــ أخيراً ، بما أنه لا يمكن الحصول على الغفران والتمتع بالوجود في حضرة الله إلا إذا تمّ أولاً إيفاء مطالب عدالته وقداسته التي لا حدّ لها ، إذاً فالفادي يجب أن يكون أيضاً ذا مكانة لا حد لسموها حتى يستطيع إيفاء مطالب الأولى بتحمل كل قصاص الخطيئة عوضاً عنا ، وإيفاء مطالب الثانية بإمدادنا بحياة روحية ترقى بنا إلى درجة التوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية ، كما ذكرنا .

فترى من يكون هذا الفادي العظيم القدر ، الخالي من الخطيئة والمعصوم منها ، غير المخلوق في ذاته وغير المحدود في مكانته ، حتى يستطيع متطوعاً أن يفي مطالب عدالة الله التي لا حدّ لها عوضاً عنا ، ويبعث فينا أيضاً حياة روحية ترقى بنا لدرجة التوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية ، وليس من يتصف بهذه الصفات أو يستطيع القيام بهذه الأعمال سوى الله ؟ فهل هذا الفادي بجانب انسانيته الممتازة يجب أن يكون هو الله ؟!

حقاً إنه لسؤال خطير ، لكن جوابه واضح كل الوضوح ، ولا مفر منه على الإطلاق .

ثانياً : إمكانية تحقيق الشروط السابقة

١ ــ إن اتخاذ الله ناسوتاً من جنسنا ليكون فيه فادياً لنا ، فضلاً عن أنه أمر لا يتعذر عليه القيام به ، فإنه باتخاذه هذا الناسوت (أولاً) لا ينحصر في مكان ما . لأن اللاهوت لا يتحيز بحيز ، إذ أن وجوده في مكان (حسب تقديراتنا البشرية) لا يمنع وجوده في مكان آخر في نفس الوقت . (ثانياً) إنه باتخاذه هذا الناسوت ، لا يفقد شيئاً من مجده الذاتي ، لأن هذا المجد لا يتعرض للزيادة أو النقصان على الاطلاق

(ثالثاً) إن اتخاذه هذا الناسوت أمر تتطلبه رغبته في أن تكون لنا جميعاً علاقة حقيقية معه ، إذ لا يمكن أن تقوم لهذه العلاقة قائمة إذا ظل بعيداً عن مداركنا ، وظللنا نحن بعيدين عن التوالف معه .

[« الناسوت » مصدر من « الانسان » ، يُراد به الطبيعة البشرية بما تحويه من جسد ونفس وروح . أما كلمة « اللاهوت » فهي على وزن الناسوت والجبروت ، يُراد بها جوهر الله ، وجوهر الله هو عين ذاته ، لأنه لا تركيب فيه على الاطلاق . أما الألوهية فهي مصدر منسوب إليه تعالى ، مثل الفروسية المنسوبة إلى الفارس] .

٢ ــ والشرط الخاص بخلو هذا الناسوت من أي ميل للخطية لا يستحيل تحقيقه ، لأن الله عندما يتخذ لنفسه ناسوتاً لا يحتاج الأمر في تكونه إلى بذرة حياة من رجل ما ، لأنه هو الحياة نفسها . وبما أن الطبيعة التي تميل إلى الخطيئة لا تنتقل إلى الانسان إلا بواسطة التناسل الطبيعي ، إذاً من البديهي أن يكون هذا الناسوت خالياً من الطبيعة المذكورة ، ويكون أيضاً بسبب كماله الذاتي قادراً على أن يكون معصوماً من السقوط في الخطيئة .

٣ ــ والشرط الخاص بوجوب مساواة نفسه لنفوسنا في القيمة ، من السهل علينا إدراك امكانية تحقيقه ، حينما نضع أمامنا أن ناسوت الله فضلاً عن كونه مقترناً به كل الاقتران ، الأمر الذي يجعل قيمته لا حد لها على الاطلاق ، فإن هذا الناسوت قدوس كل القداسة ، والقدوس أعظم من كل الخطاة بما لا يقاس .

٤ ــ والشرط الخاص بوجوب امتلاك الفادي لناسوته (أو بالحري بكونه غير مخلوق بواسطة كائن ما) من البديهي أن يتوافر فيه ، لأن هذا الفادي هو الله ، والله هو الخالق لكل الأشياء ومالكها .

٥ ــ والشرط الخاص بوجوب احتمال قصاص الخطيئة عوضاً عنا إيفاء لمطالب العدالة الإلهية التي لا حد لها ، من البديهي أن يتوافر فيه أيضاً ، لأنه بوصفه هو الله ، يحيط بمطالب هذه العدالة ، ويستطيع أيضاً تحقيقها في الناسوت الذي يتخذه .

٦ ــ والشرط الخاص بوجوب استطاعته أن يرقى بنا في حالة التوافق مع الله ، من البديهي أن يتوافر فيه كذلك ، لأنه في ذاته هو الله ، والله هو الذي يستطيع القيام بهذه المهمة .

مما تقدم نرى أن الشروط الواجب توافرها في الفادي ليست معقولة فحسب ، بل ويمكن تحقيقها بوسيلة معقولة أيضاً .

— ٢ —

أدلة كتابية على تفرُّد الله بمهمة الفداء

أولاً — شهادة التوراة

(١) قال موسى النبي لله : « ترشد برأفتك الشعب الذي **فديته** » (خروج ١٥ : ١٣) ، ومما تجدر الإشارة إليه أن فداء الله لبعض البشر في العهد القديم ، لم يكن يُراد به فداء أرواحهم ، بقدر ما كان يُراد به فداء أجسادهم ، أو بالحري إنقاذهم من الموت بوسيلة ما . أما فداء الله لنا ، بمعنى احتماله في نفسه كل خطايانا لإنقاذنا من القصاص الأبدي الذي نستحقه بسببها فلم يُعلن (كما سيتضح فيما يلي من هذا الباب) إلا في المسيحية .

لكن نظراً لأن الله قصد منذ الأزل أن يقوم بهذه المهمة ، لذلك ترد الأفعال الخاصة بها في التوراة في الزمن الماضي ، كما يتضح من هذه الآية ، ومما سنقتبسه بعد ذلك . أما اذا وردت في صيغة المضارع ، فيكون المُراد بها التحدث عن الفداء أو التكفير كحقيقة من الحقائق الإلهية الثابتة ، لأن التعبير عن هذه الحقائق يُصاغ في الفعل المضارع كما هو معروف لدينا . وقال موسى أيضاً لله : « اغفر لشعبك اسرائيل الذي **فديت يارب** » (تثنية ٢١ : ٨) ومن هذه الآية يتضح لنا أنه لا غفران إلا بعد الفداء — وهذا ما يتفق مع الحق كل الاتفاق .

(٢) وقال حزقيا الملك التقي « الرب صالح **يكفر عن** كل من هيَّأ قلبه لطلب الله » (٢ أيام ٣٠ : ١٨ ، ١٩)

(٣) وقال أيوب عن الله « **فدى** نفسي من العبور إلى الحفرة ، فترى حياتي النور » (أيوب ٣٣ : ٢٨)

(٤) وقال داود النبي « الرب **فادي** نفوس عبيده » (مزمور ٣٤ : ٢٢) . وقال أيضاً « إنما الله **يفدي** نفسي من يد الهاوية » (مزمور ٤٩ : ١٥) . كما خاطب نفسه قائلاً عن الله : « الذي **يفدي** من الحفرة حياتك ، الذي يكللك بالرحمة والرأفة » (مزمور ١٠٣ : ٤) ، لأنه « إله **خلاصي** » (مزمور ٢٥ : ٥) . ولذلك خاطب الله بالقول « معاصينا أنت **تكفر عنها** » (مزمور ٦٥ : ٣) والخلاص المقصود هنا هو الخلاص من الضيقات والآلام ، كما يراد به الخلاص من الخطيئة ونتائجها .

(٥) وقال إشعياء النبي « **فادينا** رب الجنود إسمه » (إشعيا ٤٧ : ٤) . وقال

أيضاً :«الرب قد **فدى** يعقوب » (إشعياء ٤٤ : ٢٣) . وقال الله على لسانه « إله بار **ومخلص** ، ليس سواي » (إشعياء ٤٥ : ٢١) والبار هو العادل ، والمخلص هو الرحيم ، ومن ثم لا سبيل الى الجمع بينهما ، إلا إذا قبل المخلّص تحمُّل نتائج خطايانا عوضاً عنا تحقيقاً للعدالة . وإلا كان الخلاص رحمة لا سند لها من العدالة ، ومن ثمّ لا تكون ثابتة أو راسخة . كما قال للشعب الخاطىء « ارجع إليّ لأني **فديتك** » (إشعياء ٤٤ : ٢٢) .

(٦) وقال زكريا النبي عن الله « **ويخلصهم** الرب إلهم » (زكريا ٩ : ١٦) . وليس هناك إشكال في هذه الآية ، إذ يُقصد « بالرب الإله هنا » المسيح من الناحية الجوهرية » (كما سيتضح فيما يلي من هذا الفصل) وبذلك يكون المعنى أن الله يخلّص البشر بواسطة المسيح . وقال الله على لسانه « أجمعهم لأني قد **فديتهم** » (زكريا ١٠ : ٨)

ثانياً : شهادة الانجيل

(١) قالت العذراء مريم عن الله « الله **مخلصي** » (لوقا ١ : ٤٧) . قاصدة بذلك أنه المخلص لها من الخطيئة ، لأنه لم تكن لديها وقتئذ مشكلة دنيوية ترجو الخلاص منها .

(٢) وقال زكريا عندما ألهمه الله أن ابنه يوحنا سيعدّ الطريق أمام المسيح « مبارك الرب لأنه افتقد وصنع **فداء** لشعبه » (لوقا ١ : ٦٨)

(٣) وقال بولس الرسول عن الله إنه يفدينا من كل إثم (تيطس ٢ : ١٤) ، وإنه افتدانا من لعنة الناموس (غلاطية ٣ : ١٣) وإنه يكفر الخطايا (عبرانيين ٢ : ١٧) وإنه **خلصنا** (من خطايانا) ودعانا دعوة مقدسة (٢ تيموثاوس ١ : ٩) . وإنه بمقتضى رحمته **خلصنا** من خطايانا (تيطس ٣ : ٥) .

(٤) وقال بطرس الرسول إن « الذي مثاله يخلصنا » (١بطرس ٣ : ٢١) **و« أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء ، بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس ، دم المسيح معروفاً سابقاً قبل إنشاء العالم** (١بطرس ١ : ١٨ ـــ ٢٠) .

(٥) وقال يوحنا الرسول عن الله إنه « **يطهرنا** من كل إثم » (١يوحنا ١ : ٩) — والتطهير من كل إثم يتضمن الخلاص منه . وقال عن المسيح إنه كفارة ليس لخطايانا فقط ، بل لخطايا كل العالم أيضاً (١يوحنا ٢ : ٢)

(٦) وقال يهوذا عن الله إنه « الإله الحكيم الوحيد مخلصنا » (آية ٢٥) .

ومما تجدر الاشارة إليه في هذه المناسبة (أولاً) إن الفعل « كفَر » (بوجود فتحة على الفاء) يراد به في اللغتين العبرية والعربية معاً « ستر » . فنحن نقول : كفر الفلاح الحبوب ، أي « سترها » بالتراب . والفعل « كفَّر » ، بوجود شدة على الفاء ، يراد به المبالغة في الستر مثل الفعلين : فتح وقفل . أما إذا استعمل حرف الجر « عن » بعد الفعل الأخير ، فيكون المراد به تقديم التعويض اللازم عن الخطيئة أو عن انسان مذنب . فنحن نقول : « كفّر فلان عن ذنوبه » ، أي قدّم التعويض اللازم عنها حتى تُرفع عنه عقوبتها . ونقول « كفّر فلان عن المذنبين » ، أي قدّم التعويض اللازم عنهم لكي لا يلحقهم أذى من جراء ذنوبهم (لاويين ٥ : ٥ — ١٩ ، ١٦ : ٣٠ — ٣٤)

(ثانياً) إن التكفير وإن لم يكن هو ذات الغفران ، لكنه مقترن به كل الاقتران ، لأنه ليس هناك غفران إلا ويسبقه تكفير (أياً كان نوع هذا التكفير) ، وليس هناك تكفير إلا ويتبعه غفران . ولما كان الانسان لا يستطيع التكفير عن خطاياه بالدرجة التي تفي مطالب عدالة الله التي لا حد لها ، وكان الله وحده هو الذي يستطيع القيام بهذه المهمة كما ذكرنا فيما سلف ، لذلك فإن تكفير الله بنفسه عن خطايانا بمعنى احتمال نتائجها في نفسه (على نحو ما) عوضاً عنا قبل أن يغفرها لنا ، أمر لا يجوز الاختلاف بشأنه على الأطلاق . ولا غرابة في ذلك ، فنحن نرى أنه إذا أساء عبد (مثلاً) إلى سيده ، فإن سيده له أن يعاقبه ، وله أن يعفو عنه . فإذا أبت نفسه أن تتحمل إساءة العبد ، عاقبه من أجلها . لكن إذا رضيت نفسه أن تتحمل هذه الإساءة عطفاً وشفقة على العبد ، فإنه يعفو عنه . وفي هذه الحالة يكون قد فداه أو كفر عن إساءته ، لأنه تحمل الألم في نفسه عوضاً عن أن يصبّه على رأسه ناراً حامية . وكل ما في الأمر أن الله في عفوه عنا يتحمل إساءتنا في نفسه ، ليس فقط بسبب العطف علينا ، بل أيضاً لإيفاء مطالب عدالته ، لأن هذه ليست مجرد شريعة لديه كما هي الحال معنا ، بل إنها صفة من الصفات التي تتميز بها ذاته ، ولذلك من الضروري إيفاء مطالبها بأي حال من الأحوال.

— ٣ —
قانونية قيام الله بالفداء

إن موضوع « ظهور الله في ناسوت للقيام بالتكفير عن خطايانا » ، وإن كان لابد من التسليم به للأسباب التي ذكرناها في الباب السابق ، غير أن البعض تساورهم الشكوك من جهته ، ولذلك لنفحص فيما يلي اعتراضاتهم عليه .

١ — [الله منّزه في ذاته كل التنزيه ، ومن ثم لا يمكن أن يتخذ لنفسه ناسوتاً مثلنا ، لأي غرض من الأغراض] .

الرد : إذا وضعنا أمامنا أن الله يحبنا محبة شديدة ، لأنه خلقنا على صورته كشبهه كما ذكرنا في الباب الأول ، أدركنا أنه لا يمكن أن يكون متباعداً عنا بل لابد أن يكون حانياً علينا أكثر مما نفتكر أو نتصور . وهذا ما يدعوه إلى أن يشق لنفسه طريقاً من اللامحدودية إلى المحدودية مع بقائه غير محدود في ذاته ، ومن جو القداسة المطلقة الذي يحيط به إلى عالم الخطيئة الذي نعيش فيه ، مع بقائه قدوساً في ذاته . كما أن هذه المحبة تدعوه أن يعلن ذاته لنا بهيئة نستطيع إدراكه بها كل الإدراك ، وهذه الهيئة هي الهيئة البشرية . إذ بدونها لا نستطيع أن نؤمن أنه يحبنا ، وبالتالي لا نستطيع أن نحب أو نثق أنه يمكننا الاقتراب منه والتوالف معه ، ومن ثم فإن الله عندما يريد أن يعلن لنا محبته ويكفر بنفسه عن خطايانا ، لا يكون هناك مانع لديه من الظهور في ناسوت خاص ، طالما أن هذا الناسوت خال من الخطيئة ومعصوم منها . لأنه لو ظهر لنا في هيئة ملائكية مثلاً ، لما استطعنا إدراكه حق الادراك ، إذ ليس هناك مجال للتوافق الحقيقي بيننا وبين الملائكة .

وإذا كان الأمر كذلك ، أدركنا أن التنزيه الذي يليق بالله هو التنزيه عن الخطأ وعدم البر ، وعن العجز والضعف ، وليس التنزيه عن الاتصال بالناس الذين خلقهم على صورته ، أو إظهار المحبة لهم والعطف عليهم بكل وسيلة من الوسائل .

٢ — [كيف يشق الله لنفسه طريقاً من اللامحدودية إلى المحدود مع بقائه غير محدود في ذاته ، ومن جو القداسة المطلقة الذي يحيط به إلى عالم الخطيئة الذي نعيش فيه مع بقائه قدوساً في ذاته ؟]

الرد : بما أن وجود الله مع جماعة من الناس في وقت ما ، لا يمنعه كما نؤمن جميعاً من الوجود مع آلاف غيرها في جهات متباعدة في نفس الوقت ، لذلك لا اعتراض

على امكانية ظهوره لنا في ناسوت مع بقائه غير محدود في ذاته . كما أن قداسة الله المطلقة لا تسمح لأي شر بالتسرب إليه مهما كان هذا الشر على مقربة منه ، لأن القداسة المطلقة التي يتصف بها الله عازل يحول دون ذلك ،. فهو والحالة هذه يشبه (إن جاز التعبير) النور الذي يشق طريقه في وسط الظلمة ، دون أن تختلط به أو يختلط هو بها .

٣ — [كيف يظهر الله الذي لا حد لعظمته ، في ناسوت مثلنا ؟]

الرد : إن محبة الله الشديدة لنا ، لا تسمح لأي عقبة بالوقوف في سبيل تحقيق أغراضها ، لا سيما وأن العظمة الحقيقية ليست في تشامخ العظيم بل في تواضعه ، وليست في تعاليه بل في تنازله ، كما أنها ليس في الأثرة والأنانية بل في الإيثار والتضحية . ولذلك لا يمكن أن يستنكف الله من أن يظهر لنا في ناسوت خاص ، طالما أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لفدائنا ، وفي الوقت نفسه هي الوسيلة الوحيدة التي بها نستطيع إدراك محبته الفائقة لنا ، ونستطيع بها أيضاً الدنو منه والتوالف معه . فإذا أضفنا إلى ما تقدم أن الله كان يتراءى أحياناً لأصفيائه بهيئة مدركة لديهم ، اتضح لنا أن ظهوره في ناسوت لكي يعلن لنا جميعاً محبته الفادية ، لا يتعارض مع طبيعته أو مقاصده من نحونا ، لا سيما إذا كان هذا الناسوت قدوساً خالياً من الخطيئة ومعصوماً منها كما ذكرنا .

كان الله يظهر لليهود في صوت دون هيئة ما ، لئلا يعملوا له تمثالاً يسجدون له . فقد قال موسى النبي لبني اسرائيل : « فكلّمكم الرب من وسط النار ، وأنتم سامعون صوت كلام . ولكن لم تروا صورة بل صوتاً » (تثنية ٤ : ١٢) أما في حالة عدم احتمال عمل تمثال له بسبب الرسوخ في الايمان ، فكان يظهر في هيئة ملاك أو إنسان (لأنها الهيئة التي يمكن للبشر التوالف بها معه) ، فظهر في الهيئة الأولى لهاجر . ولما أدركت أنه الله بعينه ، قالت له : « أنت إيل رُئي » ، أي « أنت إله حقيقي يمكن رؤيته » (تكوين ١٦ : ١٠ — ١٣) . وظهر في الهيئة الثانية لمنوح أبي شمشون . ولما سأله هذا عن اسمه قال له : « لماذا تسأل عن اسمي وهو عجيب ؟! » وعندما تجلّت حقيقة هذا الانسان عند صعوده إلى السماء ، سقط منوح هو وزوجته على الأرض ، قائلاً لها : « نموت موتاً لأننا قد رأينا الله » (قضاة ١٣ : ١٨ — ٢٢)

٤ — [إن القول « بظهور الله في ناسوت خال من الخطيئة لكي يعلن محبته الفادية

لنا ، هو محاولة لإخضاع الله لعقولنا ، والحال أن عقولنا هي التي يجب أن تخضع لله في روحانيته المطلقة وتنزّهه عن كل عرض من الأعراض] .

الرد : إن هذا الموضوع ليس محاولة منا لإخضاع الله لعقولنا ، بل إنه من مستلزمات طبيعته وعلاقته بنا كما اتضح لنا مما سلف . فالله ليس مثل الملك المحفوف بالكبرياء الذي لا عمل له إلا قبول الاكرام والاحترام من أتباعه ، ومعاقبة الذين يسيئون إليه ومكافأة الذين يخلصون له منهم ، وإظهار شيء من العطف في بعض الأحيان على من تنزل بهم الكوارث مثلاً ، مع بقائه في برجه العاجي مترفّعاً عنهم أجمعين . لكنه مثل الأب الطيب الذي لا يدع فاصلاً بينه وبين أولاده ، بل وفي محبة شديدة يقترب إليهم ويقربهم إليه ، كما ينزل إلى مستوى مداركهم لكي يعلن لهم ما خفي عنهم من جهة شخصه وأغراضه الصالحة من نحوهم . وإذا استلزم الأمر فإنه يضحي بكل ما لديه من أجلهم ، لكي يرقى بهم إلى أسعد حالة ممكنة .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الله لا يريد أن ندنو منه ونحن في حالة الرعب أو الذعر (لأن هذه الحالة لا تتوافق مع كماله ولا تعود علينا بخير ما) ، بل أن ندنو منه ونحن في حالة المحبة له والشوق اليه . وأنه لا يمكن أن ندنو منه في الحالة الثانية إلا إذا أعلن لنا ذاته ومحبته بهيئة مدركة لنا كل الإدراك ، اتضح لنا ان اتخاذ الله لنفسه ناسوتاً قدوساً لإعلان محبته لنا وتكفيره عن خطايانا ، أمر يتوافق مع ذاته ومع علاقته بنا كل التوافق

٥ — [إن الفداء لا يكون إلا بين جماعة تربطها رابطة خاصة أو يجمعها جنس واحد ، والله في ذاته لا تربطنا به هذه الرابطة ، كما أنه ليس من جنسنا ، فكيف يكون فادياً لنا ؟]

الرد : إننا نقول بكل فخار إن الله خلقنا على صورته كشبهه ، وأعطانا نسمة حياة خالدة من لدنه ، كما جعلنا أعزّ الكائنات وأقربها إليه ، وعرفنا بالكثير عن ذاته ومقاصده من نحونا بواسطة وحيه الذي كان يرسله إلينا من وقت إلى آخر — فضلاً عن ذلك ، قال لنا بعبارة صريحة إنه ألصق نفسه بنا وألصقنا به (أرميا ١٣ : ١١) ، وليس هناك رابطة في الوجود مثل هذه الرابطة . أما من جهة وجوب كون الفادي واحداً من جنسنا ، فهذا يتحقق بالتمام باتخاذ الله لنفسه ناسوتاً مثلنا (إنما خالياً من الخطية خلواً تاماً كما ذكرنا) — وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال « فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم ، اشترك هو أيضاً كذلك فيهما ، لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس ، ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية » (عبرانيين ٢ : ١٤ — ١٥) .

٦ ـــ [كيف نعلم أن الله يريد فداءنا ، أو التكفير عنا بنفسه ؟]

الرد : (ا) فضلاً عن الأدلة المتعددة الواردة في التوراة والانجيل عن قيام الله بفدائنا أو التكفير عنا ، كما ذكرنا فيما سلف ، نقول : بما أن الله لم ينفذ حكم الموت في آدم بعد سقوطه في الخطيئة مباشرة ، بل أبقاه حياً . وبما أنه ليس من المعقول إزاء كمال الله أن يكون قد أبقاه حياً لكي يلد ملايين البشر للشقاء الأبدي . إذاً فعدم قضاء الله على آدم بالموت بعد سقوطه في الخطيئة مباشرة ، دليل على أنه لا يريد هلاك البشر بل خلاصهم . وبما أن خلاصهم لا يتحقق إلا بفدائه إياهم بنفسه ، إذاً فمن المؤكد أنه أراد أن يقوم بهذه المهمة منذ القديم .

(ب) كما أننا إذا وضعنا أمامنا ، أن الذبائح الحيوانية التي كانت تُقدّم بقصد التكفير عن الخطيئة ، لم تكن صالحة فعلاً لهذا الغرض كما مرّ بنا ، وأنه على الرغم من عدم صلاحيتها كان الله يأمر الناس بوجوب المواظبة على تقديمها طوال العهد القديم ، بل وجعل تقديمها وقتئذ الوسيلة الوحيدة لقبولهم أمامه ، اتضح لنا أنه لابد أنها كانت ذات معنى لديه ، وهذا المعنى (كما يتضح من دراسة التوراة والانجيل) ينحصر في أنها (أي الذبائح) كانت رمزاً إلى فاد يستطيع التكفير عن الخطيئة تكفيراً حقيقياً إلى الأبد (١كورنثوس ٥ : ٧ ، عبرانيين ١٣ : ١١ و١٢) . وبما أن الذي يقوم بهذه المهمة هو الله دون سواه ، إذاً لابد أنه قصد أن يفتدينا بنفسه منذ القديم .

(جـ) أخيراً نقول : إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس ، نرى أن الإنسان عندما يطيع الله ، تصبح الملائكة خداماً له . فقد قال الوحي عن الملائكة إنهم جميعاً أرواح خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص (عبرانيين ١ : ١٤) ، الأمر الذي يدل على أن الإنسان هو أعظم المخلوقات وأقربها إلى الله وأحبها إليه ، وأن الله قصد منذ الأزل أن تكون له مع هذا الإنسان علاقة وثيقة مستمرة . وبما أنه لا مجال لهذه العلاقة مع وجود الخطيئة ، ولا مجال لمحو الخطيئة إلا بفداء الله للإنسان (أو بالحري إلا بتكفيره عن خطاياه وامداده بحياة روحية يستطيع بها التوافق معه) ، إذاً لا شك أن الله قصد منذ الأزل أن يفتدينا بنفسه .

٧ ـــ [ألا توجد وسيلة للخلاص من خطايانا إلا بافتداء الله لنا بنفسه ؟]

الرد : (ا) حقاً ما أصعب هذا السؤال أمام بعض الناس ، وما أكثر الحيرة التي يسببها لهم ، لكن دون تحيز لأي رأي من الآراء نقول : إننا لا نستطيع بعقولنا أن

نعرف كل أفكار الله وتدبيراته ، لأن إدراكنا محدود وهو فوق الحدود ، لذلك فمن الشطط أن نتصوّر خطة خاصة يتحتم عليه استخدامها في أمر خلاصنا من الخطيئة . لكن بحسب العقل الذي تفضّل وأعطاه لنا نقول : لو كان من الجائز أن تقل عدالة الله وقداسته عن رحمته ومحبته ، لكان من الجائز أن ينقذ جميع البشر من خطاياهم ويقربهم إلى حضرته بكلمة واحدة ، كما خلق العالم من قبل بمثل هذه الكلمة . لكن بما أن عدالته توازي رحمته ، وقداسته توازي محبته (وذلك بسبب كمال كل صفة من صفاته وتوافقها معاً توافقاً تاماً) ، إذاً فمع رحمته ومحبته اللتين لا حد لهما ، فإن من مستلزمات الكمال الذي يتصف به ، ألا يتساهل في شيء من مطالب عدالته وقداسته . وبما أنه لا يستطيع سواه إيفاء مطالب هذه وتلك ، إذاً لا سبيل للخلاص من الخطيئة ونتائجها إلا بقيامه بافتدائنا بنفسه .

(ب) أما لو صفح الله عنا وقرّبنا إليه دون أن يفتدينا بنفسه ، لكانت عدالته وقداسته قد انخفض قدرهما عن رحمته ومحبته ، أو لكان قد انحاز إلى رحمته ومحبته دون عدالته وقداسته . وبما أنه لكماله المطلق لا يمكن أن تقل عدالته عن رحمته أو قداسته عن محبته ، ولا يمكن أيضاً أن ينحاز إلى صفة فيه دون أخرى ، إذاً فمن المؤكد أنه يقبل القيام بافتدائنا بنفسه ، لأن هذا يكون أكثر موافقة لكماله من الصفح عنا وتقريبنا إليه بوسيلة لا تتفق مع عدالته وقداسته . وبالإضافة إلى كل ما تقدم ، فإنه أيسر لنا أن نؤمن بإله يحب خليقته ويبذل كل ما لديه في سبيل إسعادها ، من أن نؤمن بإله غير كامل الصفات أو ينحاز إلى صفة دون الأخرى .

٨ — [إن الله (كما أعلن الوحي) بطيء الغضب وكثير الاحسان (خروج ٣٤ : ٦) ، ومن ثم يمكنه أن يصفح عن الخطاة من مجرد رحمته ، لا سيما وأن هذا التصرف يكون أحسن لدى الله من الفداء الذي يكلفه كثيراً] .

الرد : (ا) إذا كان الله يصفح عن الخطاة دون مراعاة لعدالته ويقرّبهم إليه دون مراعاة لقداسته ، تكون عدالته قد قلت في قيمتها عن رحمته ، وتكون قداسته قد قلت في قيمتها عن محبته ، وهذا ما لا يمكن حدوثه بسبب كماله المطلق وتوافق صفاته معاً كما ذكرنا . كما أنه إذا كان الله يترك الأشرار يطغون ويعبثون ، وفي نهاية الأمر يأتي بهم إلى سمائه لكي ينعموا معه فيها (إذا كانوا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً) ، لا يكون رحيماً أو رؤوفاً بل متساهلاً مع الشر والإثم . ولكن بتكفيره عن البشر بنفسه (أو بالحري بتحمله نتائج خطاياهم عوضاً عنهم ، وإمداده إياهم بحياة روحية يمكنهم بها التوافق

معه في صفاته السامية) يظهر منتهى العدالة ومنتهى الرحمة ، كما يظهر منتهى القداسة ومنتهى المحبة . فضلاً عن ذلك فإنه يذيب قلوب المخلصين منهم ، فيُقبلون إليه بكل حب وإخلاص ، وهم على استعداد تام لخدمته وإكرامه مهما كلفهم الأمر من جهد .

ولا مجال للاعتراض على وضعنا لعدالة الله وقداسته نصب أعيننا دائماً عند البحث في مسألة الغفران والقبول لديه ، لأن العدالة والقداسة لديه ليستا مبدأين أدبيين منفصلين عن ذاته ، يراعيهما عند القيام بأعماله كما هي الحال عند المخلصين من الحكام والقضاة ، بل أنهما (مع المبادىء الأدبية الأخرى) صفتان كائنتان في ذاته . ومن ثم لا يمكن أن يتخلى عنهما أو يتصرف بالرحمة والمحبة . دون إيفاء مطالب كل منهما أولاً .

(ب) أخيراً نقول : إن الأحسن لدى الله ليس هو الأسهل في نظرنا ، لأن الله لا ينظر إلى أمر من الأمور التي يعملها من جهة كونه سهلاً أو صعباً ، إذ أن كل الأمور سهلة لديه . لكنه ينظر إلى كل أمر من جهة كونه متوافقاً مع كماله أو غير متوافق معه . ولما كان فداء الله لنا بنفسه يتوافق مع كماله كل التوافق ، لأنه يتمشى مع عدالته وقداسته التي يجب إيفاء مطالبهما على أي نحو من الانحاء ، لذلك فهو الشيء « الأحسن » لديه ـــ إن كان هناك مجال لوجود شيء « حسن » وآخر « أحسن » في الأعمال التي يقوم بها .

٩ ـــ [إذا كان ولابد من الفداء ، فهل يعجز الله عن خلق شخص يقوم به نيابة عنه ؟]

الرد : بما أنه لا يستطيع القيام بالفداء إلا الله كما مر بنا ، وبما أنه ليس من المعقول أن يخلق الله شخصاً نظيره ، لأن المخلوق يكون محدثاً ، والمحدث لا يكون مثل القديم الأزلي في شيء من خصائصه ، إذاً ليس هناك كائن غير الله يستطيع أن يفدينا ويكفر عنا سيئاتنا .

فضلاً عن ذلك لو أن الله خلق شخصاً نظيره للقيام بهذه المهمه ، لكان قد ظلم هذا الشخص وعاقبه بأشنع عقوبة دون ذنب جناه . أما إذا كان هو يقوم بافتدائنا بنفسه ، فلا يكون قد ظلم أحداً أو قسا عليه ، بل يكون قد أظهر منتهى المحبة والرحمة لنا ، الأمر الذي هو خليق به . كما أنه لو قام شخص غير الله بفدائنا ، لأصبح هذا الشخص مصدر حياتنا وولي نعمتنا (لأنه يكون بالنسبة لنا المنقذ من العذاب الأبدي والواهب الحياة الأبدية لنا) ، لصرنا كلنا تبعاً لذلك عبيداً له من دون الله . كما يكون الله قد تنازل لهذا الشخص عن مجده الذاتي كالسيد الرب الوحيد الذي له وحده

الاكرام والعبادة . والحال أن الله لا يمكن أن يتنازل عن مجده هذا لكائن ما (إشعياء ٤٢ : ٨) ، لأنه فضلاً عن أنه لا إله إلا هو ، لا يجوز أن يكون هناك إله معه على الاطلاق (وإلا لكان محدوداً في قدرته ، وهذا محال) ، لذلك كان أمراً بديهياً أن يقوم الله نفسه بافتدائنا كما ذكرنا .

١٠ — [إن محبة الله للبشر ، مهما بلغت شدتها ، لا يمكن أن تصل إلى الدرجة التي يقوم معها بفدائهم بنفسه ، لما يتطلبه الفداء من تضحية لا قبل لنا على تصورها] .

الرد : إذا كان الأب البار بأبنائه ، مع ما فيه من نقائص ، يحبهم محبة شديدة ويحتمل بنفسه نتائج أخطائهم عوضاً عنهم ، لذلك لا غرابة إذا كان الله الكامل كل الكمال يرضى ، في محبته التي تفوق محبة الآباء بدرجة لا حد لها ، أن يتحمل عنا نتائج خطايانا ، بل يعوّض لنا أيضاً ما نكون قد فقدناه ، بل وأكثر مما نكون قد فقدناه من امتيازات ، بسبب جهلنا وانحرافنا عنه . والكتاب المقدس مليء بالآيات التي تدل على أن الله يسرّ بنا ويحبنا محبة لا حد لها ، الأمر الذي يدل على أن فداءه لنا أمر يتوافق ليس فقط مع ذاته وما بها من كمال مطلق ، بل ويتوافق أيضاً مع علاقته بنا كما ذكرنا .

ففي التوراة ، أعلن الوحي أن لذّات الله هي مع بني آدم (أمثال ٨ : ٣١) ، وأنه أحب المؤمنين محبة أبدية ، ولذلك أدام لهم الرحمة (أرميا ٣١ : ٣) . وأنهم أعزاء ومكرمون في عينيه (إشعياء ٤٣ : ٤) ، وبمثابة حدقة العين لديه (تثنية ٣٢ : ١٠) وأنه بمحبته ورأفته يفكهم من ضيقاتهم (إشعياء ٦٣ : ٩) ، وأنه يجذبهم بربط المحبة إذا ضلوا عنه (هوشع ١١ : ٤) ، وأنه أحبهم ليس لصلاح فيهم بل أحبهم فضلاً (هوشع ١٤ : ٤) ، أو بالحري دون أن يكون هناك شيء فيهم يدعوه إلى إظهار المحبة لهم .

وفي الانجيل ، أعلن الوحي أن مسرة الله هي في الناس (لوقا ٢ : ١٤) ، وأنه أحب العالم بأسره (يوحنا ٣ : ١٦) ، وأنه أحب المؤمنين به إلى المنتهى (يوحنا ١٣ : ١) وأنهم لذلك يدعون أحباء الله (رومية ١ : ٧) وأولاده (١يوحنا ٣ : ١) .

فضلاً عن ذلك فقد أعلن الوحي أن المحبة ليست مجرد صفة من صفات الله بل أنها ذات طبيعته ، فقد قال « الله محبة » (١يوحنا ٤ : ٨) ، أي أنه بكلياته وجزئياته (إن جاز التعبير) محبة . ولذلك فإنه لا يقف عند حد الاهتمام بالناس أو الاحسان إليهم ، بل إنه أيضاً يتوق إليهم ويريد الاتصال بهم اتصالاً وثيقاً . ومن ثم فإنا بقولنا إن

الله يحب البشر ، نعني (سواء اعترفنا بشفاهنا أو لم نعترف) أنه يضحي بكل شيء لديه في سبيل خيرهم وإسعادهم .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المسيحية وحدها هي التي تعلن أن الله يحب جميع الناس ، وليس الصالحين منهم فحسب كما تقول غيرها من الأديان . ومحبة الله لنا ليست هي الرحمة والشفقة فحسب (كما يظن البعض) ، بل هي (إن جاز التعبير) التعلّق بنا تعلقاً يجعله يجد كل سروره فينا ، كما يجعله يضحي بكل عزيز وغال لديه في سبيل إسعادنا . ولإيضاح الفرق بين المحبة والرحمة بمثل مادي نقول : قد تأخذنا الشفقة أحياناً على مجرم أثيم وصل إلى أحط درجات البؤس والشقاء ، فنمدّه (مثلاً) بما يحتاج إليه من غذاء أو كساء ، ولكننا لا نستطيع أن نأتي به إلى منزلنا ليعيش بين أفراد عائلتنا ويأكل ويشرب ويتسامر معنا ، وذلك بسبب اختلاف اخلاقه عن أخلاقنا كل الاختلاف . فنحن بتصرفنا هذا ، نكون قد أشفقنا عليه ، لكن لا نكون قد أحببناه . والرحمة الخالية من المحبة قاسية كل القسوة ، ولا تقبلها إلا النفوس الدنيئة الحقيرة ، كما أنها لن تكون عاملاً في تهذيب هذه النفوس أو إصلاحها . أما الله جل شأنه فلا يشفق على الخطاة فقط بل ويحبهم أيضاً ، ومن ثمّ فإنه يتحمل في نفسه خطاياهم ، بل ويعمل على تأهيلهم للتوافق الروحي معه ، الأمر الذي يملأ المخلصين منهم بالمحبة الخالصة له ، ويجعلهم يحفظون وصاياه ويتفانون في خدمته واكرامه دون النظر إلى جزاء أو ثواب .

١١ ــ [من هو الانسان بالنسبة إلى الكون المترامي الأطراف ، حتى يحبه الله بهذا القدر] ؟

الرد : إن العظمة ليست في الضخامة بل في الفهم والادراك ، وإلا لكان الفيل أعظم قدراً من الانسان لأنه أكبر حجماً منه ــ حقاً إن الانسان مخلوق ضعيف ، إذ أن أصغر الميكروبات تستطيع الفتك به . لكن الله في نعمته الغنية ميّز الانسان عن كل المخلوقات بمميزات سامية ، إذ فضلاً عن أنه خلقه على صورته كشبهه ، فقد جعله الممثل له على الأرض والمتسلط عليها من قبله (تكوين ١ : ٢٨) . والواقع يؤيد هذه الحقيقة كل التأييد ، فإن آثار الانسان في العالم تدل على أنه أسمى المخلوقات وأعظمها ادراكاً وذكاء ، فقد أخضع قوى الطبيعة لسلطانه ، واستأنس الحيوانات واستخدمها لقضاء حاجاته ، وزرع النباتات وألف منها أنواعاً جديدة ، وكشف عن مصادر الثروة في البر والبحر معاً . كما عرف الكهرباء والطاقة الذرية واستخدمهما في قضاء مآربه . وفي الوقت الحاضر انطلق إلى الفضاء وهبط على القمر والمريخ وأخذ يحاول الهبوط على غيرهما من الكواكب أيضاً . وحقاً لقد صدق شكسبير في قوله قديماً عن الانسان

« إنه أعظم من كل ما في الكون من كائنات » ، فليس في العالم كائن يشبه الانسان في الفهم والادراك والطموح إلى العلاء ، ومن ثم لا عجب إذا كان الله يحب الانسان محبة لا حد لها ، ويقبل على افتدائه بنفسه طالما أنه ليس هناك من يفتديه سواه ، كما ذكرنا فيما سلف .

١٢ — [إن الله وإن كان لا يعسر عليه أمر ، لكن تحمله نتائج خطايانا في نفسه عوضاً عنا ، أمر لا يتفق مع العقل] .

الرد : (ا) إن الله ليس فقط مثل الحاكم الذي لا يعامل شعبه إلا بالحق والعدل ، بل مثل الأب الذي يبذل النفس والنفيس من أجل اسعاد أبنائه كما سبقت الاشارة . فضلاً عن ذلك ، فهناك فرق كبير بين الأمور التي لا تتفق مع العقل وبين تلك التي تفوق ادراكه . فالثانية هي ما تتفق مع العقل في ذاتها ، لكن لعظمتها تسمو فوق ادراكه في كيفية تنفيذها ، ومن ثمَّ لا يستطيع الاحاطة بها . أما الأولى فلا تتفق مع العقل إطلاقاً ، لا في ذاتها ولا في كيفية تنفيذها ، فإذا قيل (مثلاً) إن الله لا يعبأ بالانسان (كما ينادي بعض الفلاسفة) ، فإن هذا القول لا يتفق مع العقل ، لأنه من المفروض أن يهتم الله بالانسان الذي خلقه على صورته كشبهه . أما إذا قيل إنه أحب الانسان وفداه بنفسه ، فإن هذا القول لا يكون ضد العقل بل أسمى منه ، لأنه من المفروض أن يحب الله الانسان كما ذكرنا ، ومن المفروض أيضاً أن تكون محبته له متناسبة مع ذاته . وبما أن ذاته لا حد لها ، تكون محبته للانسان لا حد لها أيضاً . وبما أن المحبة التي لا حد لها تظهر في القيام بخدمات وتضحيات لا حد لها في قدرها ونوعها ، إذاً إن كان الله يقوم بأعظم تضحية في سبيل انقاذنا من قصاص خطايانا ومنحنا طبيعة روحية نتوافق بها معه في صفاته السامية ، لا يكون قد أتى أمراً ضد العقل ، بل أسمى من العقل ، وفي الوقت نفسه يتفق مع العقل كل الاتفاق — وهذا ما يدعونا إلى تصديقه وقبوله بكل شكر وحمد .

(ب) فضلاً عن ذلك إذا كانت الحكومات تبجل من يضحون بعضو من أجسامهم — ومن بين الذين قاموا بهذا العمل في مصر في عام ١٩٦٤ سيدة ، فاعتبرت أماً مثالية ، وعامل في عام ١٩٦٦ فمنح وسام الجمهورية ، وسيدة في عام ١٩٧٢ فمنحت وسام الكمال من الدرجة الثانية ، واعتبرت أماً مثالية — وإذا كنا نحن نبجل الفدائيين ونجلهم ونشيد بعظمتهم ، مع أنهم في سبيل إنقاذ بلادهم من أيدي الأعداء المغتصبين ، يقتلون أشخاصاً قد يكونون أبرياء كل البراءة ، فلا شك أن فداء الله لنا الذي يترتب عليه أن يتحمل نتائج خطايانا عوضاً عنا ، دون أن يسبب ضرراً

أو أذى لواحد منا ، لأمر عظيم كل العظمة وسام كل السمو ، وجدير أيضاً بكل إكرام وتقدير .

١٣ — [إن افتداء الله لنا بنفسه يفرض علينا التأثر ، والتأثر يدل على التغيير ، والحال إن الله لا يتغير] .

الرد : إذا نظرنا إلى الله كمجرد فكرة أو قوة ، أو كإله جامد أو غير معين ، أو كمقيم في عزلة عن خليقته (كما ينظر إليه بعض الفلاسفة) ، لا يمكن طبعاً إسناد التأثر إليه بحال . لكن إذا نظرنا إليه كما هو ، ذات يتصف بكل صفات الكمال ويتصل بنا اتصالاً وثيقاً لمحبته التي لا حد لها لنا ، ووضعنا أمامنا أن كل علاقة بين طرفين تقتضي حدوث تأثير في كل منهما ، اتضح لنا أنه لا مفر من التسليم بأن الله يتأثر (على نحو يتفق مع روحانيته المطلقة) بسبب علاقته بنا كما ذكرنا في الباب الأول . غير أن تأثر الله هذا لا يؤدي إلى حدوث تغير في ذاته ، لأنه كان يعرف كل شيء عنا منذ الأزل ، ومن ثم يكون قد قصد من الأزل أن يفتدينا بنفسه ، لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لخلاصنا . ولذلك عندما أخطأنا في الزمان وتطلب الأمر أن يعلن فداءه لنا ، لا يكون قد طرأ عليه أمر جديد يستدعي حدوث تغير في ذاته ، إذ يكون فقط قد أعلن لنا ما قصد أن يعمله أزلاً ، كما خلق العالم في الزمان دون أن يطرأ عليه تغير ما ، بسبب علمه بهذا العالم منذ الأزل .

١٤ — [ما الذي يُلزِم الله بافتدائنا ، وما الذي يهدف إليه بهذا الافتداء] ؟

الرد : (ا) طبعاً ليس هناك شيء في الوجود يستطيع أن يفرض على الله القيام بعمل ما ، بل إنه يقوم بكل أعماله بمحض إرادته ومشيئته ، لأنه ليس هناك من له أدنى سلطة أو تأثير عليه . لذلك من البديهي أن يكون الباعث الوحيد على افتدائه لنا ، هو كماله المطلق ومشيئته الصالحة من نحونا . فقد قال الوحي عنه: يعمل كل شيء « حسب قصده » و « حسب مسرة مشيئته » ، و « حسب مسرته التي قصدها في نفسه » (أفسس ١ : ٥ — ١١) .

كما أن الله لا يهدف بهذا الفداء إلى الحصول على خير منا ، لأنه فضلاً عن أنه ليس في حاجة إلى خير من أي كائن من الكائنات ، لأنه كامل في ذاته كل الكمال ومستغن عن كل شيء من الأشياء ، فإن التضحية التي تعمل للحصول على خير تفقد قيمتها وتصبح عملاً تجارياً لا يليق بكائن عظيم مثل الله ، ومن ثم فإنه لا يقصد بالفداء إلا خير البشر وإسعادهم ، وفي خيرهم وإسعادهم تتحقق أغراضه السامية من نحوهم .

(ب) فضلاً عن ذلك ، إذا كان الأمناء من البشر (كما نعلم جميعاً) يتصرفون في الأعمال المسندة إليهم بكل نزاهة وإخلاص . وإن استلزم الأمر ، فإنهم يضحون عن طيب خاطر بصحتهم ومالهم للقيام بهذه الأعمال على الوجه الأكمل ، ليس خوفاً من رؤساء أو طمعاً في جزاء بل مراعاة لضمائرهم ومبادئهم ، لذلك ليس من المعقول إطلاقاً أن يترك الله ، وهو الكامل في كل صفاته ، طريق الفداء الذي يتفق مع عدالته وقداسته ، ويلجأ إلى طريق التساهل معهما أو عدم المبالاة بهما ، ألا وهو طريق الغفران بدون فداء .

ومن أمثلة الأمناء الذين أشرنا إليهم (كما طالعتنا الصحف أكثر من مرة) قضاة ، عُرضت عليهم قضايا ضد أشخاص يمتون إليهم بصلة القرابة . ولما درسوها وجدوا أن القانون يقضي على هؤلاء الأشخاص بغرامات مالية يعجزون عن دفعها ، فأبت نزاهتهم أن يستغلوا مراكزهم لتبرئة أقربائهم أو تخفيض الغرامات الواجب تحصيلها منهم ، ولذلك بعد أن أصدروا الأحكام عليهم بالغرامات القانونية ، دفعوا من جيوبهم هذه الغرامات عوضاً عنهم ، ومن ثم حفظوا للقانون كرامته ، ولنفوسهم نزاهتها وعفتها ، كما رفعوا رؤوس أقربائهم وصانوهم من نقد المنتقدين وتهكم المتهكمين — فإذا كان بعض البشر يتصرفون هذا التصرف النبيل ، فلا شك أن الله الذي هو أسمى منهم بدرجة لا حد لها ، لا يمكن أن يهمل مطالب عدالته وقداسته بسبب عطفه على الناس ومحبته لهم .

(جـ) أما الاعتراض [بأن القضاة المذكورين ربما دفعوا الغرامات خوفاً من المؤاخذة وبالأخص من رؤسائهم ، لكن الله ليس عليه رقيب يحاسبه ، ولذلك لا حرج عليه إذا كان يعفو عن الخطاة دون تضحية من جانبه] فنقول : إن الله وإن لم يكن عليه رقيب يناقشه الحساب ، لكن له كماله الذاتي الذي ينزهه عن أي تصرف لا يتفق مع القداسة والعدالة ، كما ذكرنا في الباب الثالث .

١٥ — [إن التضحية بالمال والصحة والوقت أمر جائز ، لكن تحمُّل الآلام نيابة عن المذنبين أمر لا يتفق مع العدالة ، لأن هذه تقتضي بأن المذنب هو نفسه الذي يجب أن يسجن أن يجلد أو يقتل] .

الرد : (ا) طبعاً لو كان المذنبون السابق ذكرهم محكوماً عليهم بالسجن أو الجلد أو القتل ، لما كان من الجائز للقضاة مهما كانت درجة القرابة التي تربطهم بهم ، أن يتحملوا عنهم هذه العقوبات . لكن لا يمكن أن يكون هذا هو الحال من جهة موقف

الله إزاء الخطاة ، لأنه هو وحده الذي وضع القانون الخاص بمعاقبتهم ، وهو وحده الذي ينفذ هذا القانون ، وذلك بالطريقة التي تتفق ليس مع عدالته فحسب بل ومع رحمته أيضاً ، لأن هذه متحدة مع تلك كل الاتحاد في ذاته . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن عقولنا لا تستبعد مطلقاً أن يقوم الله بالتكفير بنفسه عنا ، لأنه بهذه الوسيلة يفي مطالب عدالته التي لاحد لها ، وفي الوقت نفسه يظهر لنا رحمته التي لا حد لها أيضاً .

ولو لم يقم بهذا العمل من تلقاء ذاته ، لكان حرج موقف الأتقياء الذين يحبونه والبؤس الذي يهددهم في الحاضر والمستقبل معاً مثل غيرهم من الناس ، يطالبانه باسم رحمته ومحبته اللتين لا حد لهما ، أن يقوم به على حساب نفسه ، لأنه خالقهم ولا ملجأ لهم إلا شخصه ولا رجاء لهم إلا عنده ، ولا ريب أنه كان يستجيب لهم ، مهما تطلب الأمر من تضحية ، وهذا ما حدث فعلاً كما سنرى في الباب التالي .

١٦ ـــ [إن العدالة ، كما أعلن الوحي ، هي أن لا يحمل الابن إثم أبيه ، أو الأب إثم ابنه (تثنية ٢٤ : ١٦ ، حزقيال ١٨ : ٢٠) ، بل أن النفس التي تخطىء هي تموت . فكيف يحمل الله إثمنا ويتألم بسببه عوضاً عنا ؟!]

الرد : (ا) إن كلا من الأب والابن مخلوق بواسطة الله ، ومسئول شخصياً أمامه عن الآثام التي يقترفها وحده ، ولذلك لا يحمل أحدهما من إثم الآخر . ولكن الله وإن كان غير مسئول أمام كائن ما ، غير أنه مسئول (إن جاز التعبير) أمام ذاته ، وذاته لا تتصف فقط بالعدالة التي لاحد لها ، بل وأيضاً بالرحمة التي لا نهاية لها ، لأن هذه وتلك متحدتان في ذاته دائماً أبداً ، وذلك لكماله المطلق في كل صفة من صفاته . ومن ثم فإن موقف الله إزاءنا لا يكون موقف العدالة المجردة ، بل موقف العدالة المتحدة بالرحمة ، أو بالحري موقف التضحية . وهذا ما يدعوه إلى تحمل نتائج خطايانا إيفاء لمطالب عدالته ، وتحملها نيابة عنا إيفاء لمطالب رحمته .

فناموس التضحية وإن كان يختلف عن ناموس العدالة ، لكنه لا ينقض أحكامه بل يثبتها ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الله في قيامه بالتضحية لا يكون مرغماً أو مجبراً ، بل متطوعاً للقيام بها بمحض اختياره ومشيئته لأجل الخير العام ، لا يبقى هناك مجال للاعتراض .

(ب) حقاً ما أخطر النتيجة التي وصلنا إليها ، لكنها على أي حال ليست مؤسسة على ظنون أو أوهام بل على حقائق معقولة ، ولذلك فإن سموها عن إدراكنا لا يقلل مطلقاً من قانونيتها وأحقيتها . وإننا إذ نقرر ذلك ، لا نكون قد سلكنا مسلكاً شاذاً بل مسلكاً طبيعياً مألوفاً ، فنحن جميعاً نؤمن (مثلاً) بوجود الروح البشرية وتكوين

الأفكار المعنوية في المخ المادي ، ليس لأننا أدركنا ماهية الأولى أو كيفية حدوث الثانية ، بل لمجرد ظهور أدلة معقولة تثبت حدوث هذه ووجود تلك ، ومن ثم لا يجوز رفض حقيقة افتداء الله لنا ، طالما قد توافرت الأدلة على صدقها .

أما من جهة تهكم بعض الناس علينا بسبب اعتقادنا بتكفير الله بنفسه عن خطايانا ، فلا يؤثر على موقفنا منه في قليل أو كثير ، لأنهم إذا كانوا على شيء من الاخلاص ، فلينبئونا كيف يمكن أن يغفر الله لنا خطايانا وهو عادل بقدر ما هو رحيم ، وكيف يمكننا أن ندنو منه وهو قدوس بقدر ما هو رؤوف ؟! وإن عجزوا عن الإجابة ، ولا نخالهم إلا عاجزين ، فإنهم كما قال الوحي يعترضون باب الخلاص ، فهم لا يدخلون ، ولا يدعون الراغبين في الدخول أن يدخلوا (متى ٢٣ : ١٣) ، ومن ثم لا يكون لأقوالهم وزن أو قدر .



— ٤ —

ظهور الله في ناسوت للقيام بالفداء

حقاً ليس هناك مؤمن في الوجود إلا ويتوق لمعرفة الشخص (أو بالحري الناسوت) الذي ظهر الله فيه للقيام بالفداء . فمن هوهذا الشخص يا ترى ؟

الجواب : إذا تصفحنا حياة الأشخاص الذين ظهروا في العالم نرى أن هذا الشخص هو المسيح ، لأنه هو الذي توافرت فيه جميع الشروط التي ذكرناها في الفصل الأول ، كما يتضح فيما يلي :

١ — فهو لم يرث الخطيئة في طبيعته الإنسانية ، لأنه وُلد بدون الأب المورّث لها ، إذ كانت ولادته من العذراء بقوة الروح القدس (لوقا ١ : ٣٥) .

٢ — وعاش بقوته الذاتية دون خطيئة ، مع أنه كانت له كل الاحساسات الطبيعية مثل الشعور بالجوع والعطش والألم والحاجة إلى النوم (متى ٤ : ٢ ، يوحنا ٤ : ٧ ، ١٨ : ٢٣ ، لوقا ٨ : ٢٣) ، وغير ذلك من الاحساسات التي كانت كافية (لولا كماله الذاتي) بأن تميل به إلى الانحراف عن حق الله ، ولكنه لم ينحرف عنه على الاطلاق . ولذلك كان أسمى من آدم بما لا يقاس ، فهذا على الرغم من أنه خُلق خالياً من الخطيئة ، غير أنه مال إليها وسقط فيها ، على النقيض من المسيح تماماً .

٣ — ومن ثم فان نفس المسيح كانت توازي نفوس البشر جميعاً ، بل وتفضل عنها قيمة وقدراً . لأنه هو الكامل ، أما هم فبسبب خطاياهم ناقصون . وإن اجتمع بعضهم إلى البعض الآخر ، فإن هذا لا يقلل من نقصهم ، بل يزيده نقصاً .

٤ — ومع ذلك كان المسيح (من الناحية الناسوتية) إنساناً حقيقياً من جنسنا ، فجسده وإن كان خالياً من الخطيئة ، غير أنه كان جسداً مادياً مثل أجسادنا . فقد قال الوحي :« فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم ، اشترك هو (أي المسيح) أيضاً كذلك فيهما » (عبرانيين ٢ : ١٤) . كما أنه لما ظن تلاميذه بعد قيامته من بين الأموات أنه روح ، قال لهم : « انظروا يديّ ورجليّ ، إني أنا هو . جسوني وانظروا ، فان الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي » (لوقا ٢٤ : ٣٦ — ٣٩) .

٥ — ورغم أنه كان إنساناً حقيقياً ، كانت نفسه ملكاً له . فقد قال عنها : « ليس أحد يأخذها مني ، بل أضعها (أي أسلمها) أنا من ذاتي . لي سلطان أن أضعها ، ولي سلطان أن آخذها (أي استردها) أيضاً » (يوحنا ١٠ :١٨) .

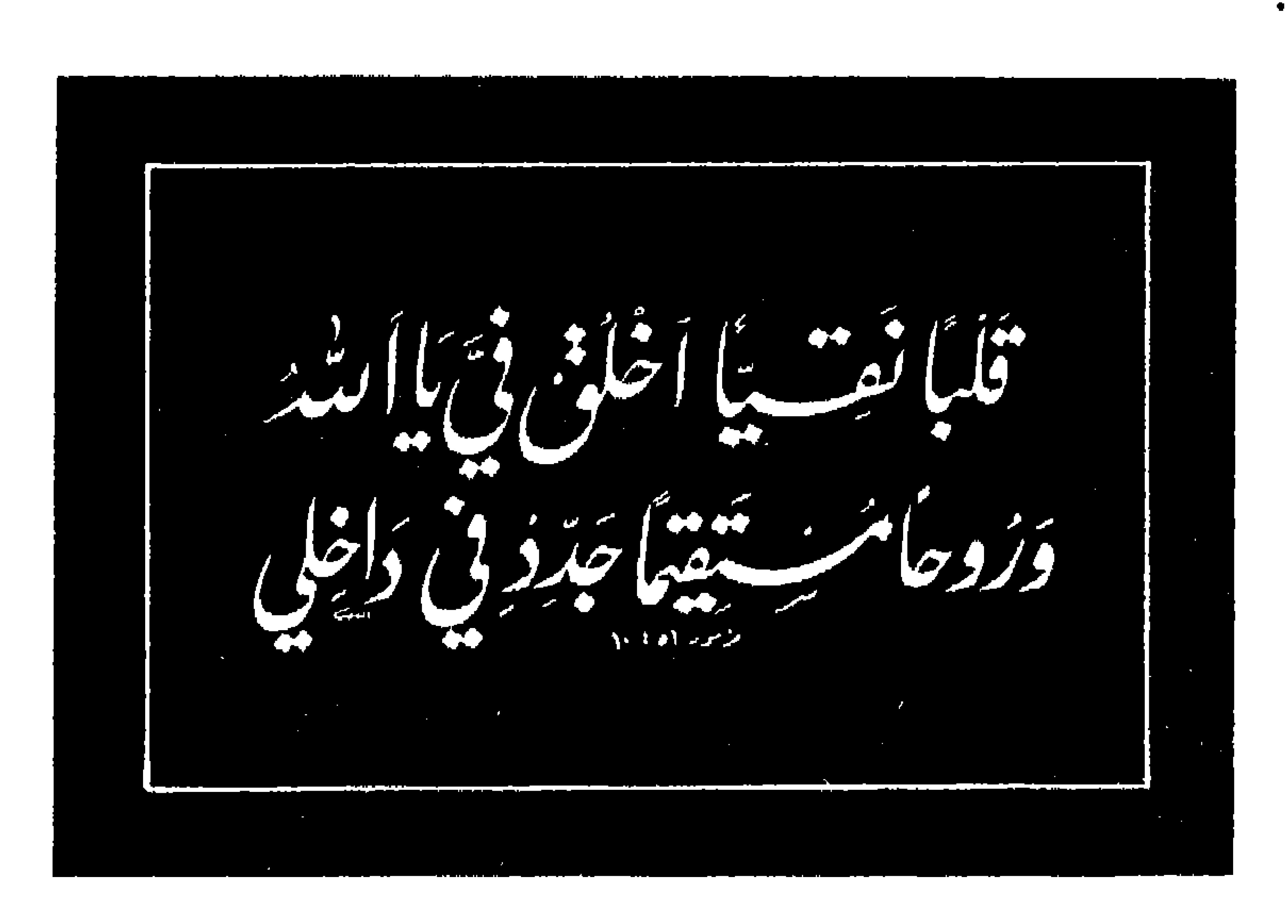
وقد برهن عملياً على صدق شهادته هذه ، إذ أنه بعدما قدم نفسه كفارة عن البشر وأسلم روحه من أجلهم ، استردها ثانية وقام من بين الأموات ، كما ذكرنا بالتفصيل في كتاب « قيامة المسيح والأدلة على صدقها » .

٦ ـــ وكان في امكانه أن يبعث حياة روحية في البشر ، ترقى بهم فوق قصورهم الذاتي وتجعلهم أهلاً للتوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية إلى الأبد . فقد قال عن رعيته : « وأنا أعطيها حياة أبدية ، ولن تهلك إلى الأبد » (يوحنا ١٠ : ٢٨) .

وقد اختبر المؤمنون به هذه الحياة عملياً في نفوسهم ، فقد قال أحدهم : « لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع ، قد اعتقني من ناموس الخطيئة والموت » (رومية ٨ : ٢) .

٧ ـــ فضلاً عما تقدم فقد كان من الناحية الباطنية (كما يتضح مما يلي) هو ذات الله ، ومن ثمَّ استطاع أن يكفّر عن البشر جميعاً تكفيراً يفي مطالب عدالته التي لا حدّ لها ، كما يتضح من الباب التالي .

وإذا كان الأمر كذلك ، فالمسيح هو أيضاً الشفيع أو المحامي الذي أشرنا إليه في آخر الباب الثاني . ومن ثم قال الرسول للمؤمنين الحقيقيين : « أكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا (لأنه أعطاكم بالمسيح حياة روحية تستطيعون بها التسامي فوق الخطية) . وإن (حدث أن) أخطأ أحد (سهواً) فلنا شفيع عند الآب ، يسوع المسيح البار ، وهو كفارة لخطايانا ، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً » (١يوحنا ٢ : ١) .



— ٥ —
شخصية المسيح

نرى من الواجب ، قبل التحدث عن شخصية المسيح ، أن نوجه أذهان القراء إلى أننا نحن المسيحيين نؤمن أنه لا إله إلا الله ، وأنه لا تركيب فيه على الإطلاق . فقد قال تعالى على لسان إشعياء النبي : « أنا الأول وأنا الآخر ، ولا إله غيري » (٤٤ : ٦) . وقال الوحي عنه إنه « روح » (يوحنا ٤ : ٢٤) ، والروح لا تركيب فيه بحال . كما نؤمن أنه ذات [أي ليس مجرد عقيدة في الذهن ، أو قوة تحرك الكون] . وذاته وإن كانت لا يحدها زمان أو مكان ، تتصف بالصفات اللائقة بكماله ، مثل السمع والبصر والكلام والعلم والإرادة والقدرة والعدالة والقداسة والمحبة والرحمة ، وذلك دون أن تكون له أعضاء ما . أما ما نختلف فيه عن غيرنا من المؤمنين بالله ، فهو نوع الوحدانية الخاصة به ودرجة علاقته بنا ، ولذلك نحصر الحديث عنهما فيما يلي :

أولاً — نوع الوحدانية اللائقة بالله

١ — عدم توافق الوحدانية المطلقة مع الله : بما أن الله ذات يتصف بصفات خاصة ، وبما أن هذه الصفات لو كانت عاطلة أزلاً ثم صارت عاملة عندما خلق الكائنات ، لكان (أولاً) قد تعرّض للتغير ، إذ تكون صفاته قد صارت عاملة بعد أن كانت عاطلة ، ويكون قد دخل في علاقات بعد أن كان بلا علاقة أصلاً ، (ثانياً) ولكان أيضاً قيامه بالخلق ضرورة لجأ إليها لكي يظهر ذاته ويمارس صفاته (كما يقول بعض الفلاسفة ورجال الدين) ، الأمر الذي يتنزه عنه لتعارضه مع كماله الذاتي كل التعارض . لذلك لابد أن صفاته وعلاقاته كانت بالفعل أزلاً ، قبل وجود أي كائن من الكائنات سواه .

٢ — توافق الوحدانية الجامعة أو الشاملة مع ذات الله الواحدة : وهنا تساءل البعض « كيف يكون الله واحداً لا تركيب فيه ، وفي الوقت نفسه تكون وحدانيته وحدانية جامعة ؟ » وللرد على ذلك نقول : بما أن الله جوهر ، لأنه تعالى قائم بذاته ، وكل قائم بذاته جوهر (المدخل في الفلسفة ص ١٧٧) ، وفي الوقت نفسه له تعيُّن خاص يدل عليه ، لأنه ليس بلا تعيّن إلا غير الموجود ، لذلك إذا قلنا إن الله جامع أو شامل من جهة وواحد من جهة أخرى ، لا يكون هناك تناقض ما ، لأن التناقض لا يكون إلا إذا كان الاختلاف في أمر واحد من جهة واحدة (كما لو قلنا عن شخص

ما ، إنه ضعيف البنية وقوي البنية في نفس الوقت) ، فمن أي جهة يكون الله واحداً ومن أي جهة يكون جامعاً أو شاملاً ؟ طبعاً يكون واحداً من جهة الجوهر لأنه لا تركيب فيه ، ويكون جامعاً أو شاملاً من جهة التعيّن ، لأن وجود صفاته وعلاقاته بالفعل أزلاً ، يدل على أنه جامع من هذه الجهة .

وإننا بقولنا إن الله جوهر ذو تعيُّن ، لا نفرق بين جوهر الله وتعينه ، بل نقصد فقط أنه ليس جوهراً مبهماً أو غامضاً بل جوهراً له وجود حقيقي يتميز به عن غيره . فجوهر الله ما هو إلا اللاهوت ، وهذا الجوهر نفسه بالنظر إلى تعيّنه ما هو إلا الله . والله ليس شيئاً غير اللاهوت بل هو اللاهوت معيناً . واللاهوت ليس شيئاً غير الله بل هو الله جوهراً . ولذلك كثيراً ما تستعمل كلمة اللاهوت بدلاً من كلمة الله ، وكلمة الله بدلاً من كلمة اللاهوت .

مما تقدم يتضح لنا أن جوهر الله الذي لا تركيب فيه ، والجامع أو الشامل في تعينه لكل ما هو لازم لوجود صفاته بالفعل أزلا ، واستغنائه بذاته عن كل شيء في الوجود ، منذ الأزل الذي لا بدء له إلى الأبد الذي لا نهاية له ، أمر يتوافق مع كماله كل التوافق .

٣ ــ ما هية الجمع أو الشمول القائمة بها ذات الله : ان معظم الفلاسفة وعلماء الدين الذين يعتقدون معنا أن وحدانية الله هي وحدانية جامعة أو شاملة يقولون إن هذه الوحدانية الجامعة ، هي ذات الله وصفاته . لكن لو سلمنا باعتقادهم هذا ، ووضعنا أمامنا أن صفات الله وعلاقاته كانت بالفعل أزلا كما اتضح لنا مما سلف ، لانتهى بنا الأمر إلى أن الله كان في الأزل يكلم صفاته ويسمعها ويبصرها ويريدها ... أو أن صفاته كانت تكلمه وتبصره وتريده ... أو أنها كان يكلم بعضها بعضاً ويسمع بعضها بعضاً ويبصر بعضها بعضاً ويريد بعضها بعضاً ... وكل ذلك باطل ، لأن الله لا يتعامل مع الصفات ، ولا الصفات تتعامل مع الله ، أو مع بعضها البعض . إذ أن التعامل لا يكون إلا بعد التعيّنات العاقلة ، والصفات معان وليست تعينات ، ومن ثم لا يمكن أن يكون المراد بالجمع أو الشمول لدى الله ، هو ذاته وصفاته ، بل هو ذاته وحدها . فالله مع وحدانية جوهره وعدم وجود تركيب فيه ، هو نفسه جامع أو شامل ، أو بتعبير آخر إنه قائم ليس بتعين واحد بل بتعينات .

وبما أن ذات الله تعيّنات ، إذاً فكل تعين من تعيناته لا يكون جزءاً من ذاته ، بل يكون ذاته بعينها (لأنه غير مركب من عناصر أو أجزاء) ، وأن يكون أيضاً ذاته بكل خواصها وصفاتها (لأن تعينات الله هم عين جوهره) ، ولذلك يكون كل تعين لله ،

هو الله الأزلي الأبدي السميع الكليم البصير المريد ... إذ أنه على هذا الأساس ، يكون الله ممارساً لكل صفاته وعلاقاته بينه وبين ذاته منذ الأزل ، إلى درجة الكمال الذي ليس بعده كمال ، دون أن يكون هناك تركيب في ذاته أو شريك معه .

٤ ــ **عدد التعينات وأسماؤهم** : أما عدد التعينات أو أسماؤهم فليس في وسعنا أن نتكهن به ، لأن المرجع الوحيد بشأنه هو الوحي الإلهي . وبالرجوع إليه يتضح أن العدد المذكور هو «٣» لا أكثر ولا أقل . وقد اصطلح المسيحيون منذ القديم على تسمية هؤلاء التعينات بالأقانيم (والمفرد أقنوم) . فالأقانيم إذاً ليسوا كائنات في الله أو مع الله ، بل هم ذات الله الواحد الأحد ، لأنهم تعينات اللاهوت أو اللاهوت معيناً . فضلاً عن ذلك فقد أطلق الوحي على تعينات الله اسماً واحداً ، وليس أسماء كثيرة ، فقال « **باسم** الآب والابن (أو الكلمة) والروح القدس » (متى ٢٨ : ١٩) ، وفيما يلي معنى كل أقنوم من هؤلاء الأقانيم .

ثانياً ــ معاني الأقانيم

١ ــ « الابن » أو « الكلمة » : لا يراد بهذا الأقنوم أنه « ابن » بالمعنى الحرفي لأن الله لا يلد ولا يولد ، بل يراد به ابن بالمعنى الروحي ، وهذا المعنى كما يتضح من الكتاب المقدس هو « المعلِن » . كما دُعي « الكلمة » (يوحنا ١ : ١ ــ ٢) بهذا المعنى عينه ، لأن الكلمة هي التي تعلن صاحبها . ومما تجدر الإشارة إليه أن المسيح لم يُدعَ كلمة الله لأنه خُلق بكلمة الله ، إذ أن هناك فرقاً بين « الكلمة » و« أثر الكلمة » . فالمخلوقات ليس كلمة الله بل أنها « أثر كلمة الله » ، لأنها مخلوقة بواسطته . ولذلك قال الوحي « الله لم يره أحد قط . الابن الوحيد الذي هو في حضن الأب ، هو خبّر » (يوحنا ١ : ١٨) . ولا يُراد بالحضن هنا المعنى الحرفي بل الروحي ، لأن الآب ليس له صدر مادي . والمعنى الروحي للحضن هو الحب العميق والوحدة الروحية الكاملة . ولا مجال للاعتراض على ذلك ، لأن الأقانيم ليسوا هم الأب والأم والروح القدس ، بل هم « الآب والابن والروح القدس » .

وبما أنه لا يعلن الله إلا الله ، لأنه لا نظير له على الاطلاق ، لذلك « فالمعلن لله » (أو بالحري ابن الله أو كلمته) هو نفسه الله معلناً ــ ولا غرابة في ذلك فالاصطلاح « ابن الشيء » كثيراً ما يرد في اللغة العبرية بمعنى « ذات الشيء » . فمثلاً قول الله « بنت شعبي » أو « ابنة شعبي » (إرميا ٨ : ١١) لا يراد به إلا ذات شعبه . كما أن الاصطلاح « بنات الفكر » في اللغة العربية ، لا يراد به إلا « ذات الفكر واضحاً ومعلناً ».

٢ ــ « الآب » ــ إن هذا الأقنوم لا يسمى « الوالد » بل « الآب » . وهناك فرق عظيم بين الاسمين . فقد يكون هناك والد مجرد من كل صفات الأبوة ، وقد يكون هناك شخص تتجمع فيه هذه الصفات ، دون أن يكون متزوجاً أو له أولاد . ومن ثم لا يراد بهذا الأقنوم المعنى الحرفي بل الروحي . والمعنى الروحي للآب كما يتضح من الكتاب المقدس ، هو القائم بالمحبة الباطنية . وهذا المعنى معروف لدينا جميعاً .

وقد أعلن أقنوم الابن عندما كان في الجسد على الأرض عن محبة الآب الأزلية له ، فخاطبه قائلاً « لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم » (يوحنا ١٧ : ٢٤) ، وبذلك كشف المسيح لنا عن سر من الأسرار التي كانت في اللاهوت ، أو بالحري بين أقانيم اللاهوت ، قبل خلق أي شيء في الوجود . أو بتعبير آخر في الأزلية السحيقة المجهولة لديهم ، أعلن لنا « الابن » أن المحبة كانت متبادلة بين الآب وبينه ، ومتبادلة طبعاً بكل سموها وكمالها .

والوحي لا يسند المحبة إلى أقنوم أو أقنومين بل إلى الأقانيم جميعاً ، أو بالحري إلى اللاهوت الذي هو جوهر كل أقنوم وجوهر الأقانيم معاً ، فقد قال « الله محبة » (١يوحنا ٤ : ٨) . ولذلك فإن الآب يحب الابن كما ذكرنا ، والابن يحب الآب (يوحنا ١٤ : ٣١) ، والروح القدس هو روح المحبة (٢تيموثاوس ١ : ٧) ــ وتبادل المحبة بين الأقانيم ، هو النتيجة الحتمية لوحدة جوهرهم ، والدليل على وحدتهم التامة في كل أعمال اللاهوت وتصرفاته .

أخيراً نقول : إن كون « الآب » منذ الأزل ، دليل واضح على أن « الابن » هو « الابن » منذ الأزل أيضاً ، لأنه ليس هناك أبوة إلا ومعها بنوة ، كما أنه ليست هناك بنوة إلا ومعها أبوة . وإذا كان الأمر كذلك ، لا يبقى لدينا أي شك في أن « الابن » ليس مخلوقاً بواسطة الآب أو مولوداً منه ، بل أنه واحد معه في الأزلية . لأنه ليس من المعقول أن الله كان غير معلن أولاً ، ثم صار معلناً في دور من الأدوار .

٣ ــ « الروح القدس » ــ إن هذا الاقنوم لا يدعى بهذا الاسم ، لأنه يتميز دون الأقنومين الآخرين بروحانية الجوهر ، كلا ، لأن جوهر الأقانيم واحد كما ذكرنا . فقد قال الوحي بعبارة صريحة إن الله (من جهة أقانيمه الثلاثة) هو روح (يوحنا ٤ : ٢٤) ، إنما دعي بهذا الاسم لأنه يقوم (كما يتضح من اسمه) بأعمال اللاهوت بطريقة روحية ــ بينما يقوم الابن بها بطريقة علنية أو ظاهرية .

كما أن هذا الأقنوم لا يوصف بالقدس لأنه يتميز بالقداسة دون الأقنومين الآخرين ، كلا . لأن الأقانيم الثلاثة يتصفون معاً بهذه الصفة وبكل صفات الكمال الأخرى

بدرجة واحدة ، ولكن يوصف بالقدُس لأنه هو الذي يعلن بحالة روحية قداسة الله في كل تصرفاته ، ولأنه أيضاً هو الذي يقدس نفوسنا حتى تتوافق مع الله في قداسته .

مما تقدم يتضح لنا ما يأتي :

١ ــ أن كل أقنوم سُمي باسم خاص ، ليس لأن أحدهم أقدم من الآخر زماناً ، أو أفضل منه مقاماً ، أو لأنه يختلف عنه جوهراً ، بل لأن كلا منهم يقوم بعمل يتناسب مع أقنوميته ، ولأن بين أحدهم والآخر نسباً روحية خاصة ، بها للاهوت أو لله علاقات متكاملة بينه وبين ذاته منذ الأزل الذي لا بدء له إلى الأبد الذي لا نهاية له ، بغض النظر عن وجود أي كائن من الكائنات سواه . فالوحي يسمي أحد الأقانيم بالآب ، لأنه يبطن كل معاني المحبة في اللاهوت ، ويسمي أقنوماً آخر بالابن لأنه يعلن كل معاني المحبة في اللاهوت ، ويسمي أقنوماً غيره بالروح القدس ، لأنه يقوم بأعمال اللاهوت بطريقة روحية .

٢ ــ إن الله ، لتبادل المحبة بين أقانيمه إلى درجة الكمال ، هو مستغن بذاته عن كل شيء في الوجود منذ الأزل الذي لا بدء له إلى الأبد الذي لا نهاية له ، لأن حياة المحبة هي في الواقع أسمى نوع من أنواع الحياة ، إذ أن من يحياها لا يشعر أنه في حاجة إلى شيء على الإطلاق . ومن ثم لا يكون الخلق ضرورة لجأ الله إليها لكي يظهر ذاته ويمارس صفاته كما يقول بعض الفلاسفة وعلماء الدين ، بل يكون نتيجة طبيعية للمحبة العاملة في ذاته ، لأن من شأن المحبة أن تعمل وأن تعمل عملاً نافعاً .

أخيراً نقول : وإن كان « قيام الله بثلاثة أقانيم » يتفق كل الاتفاق مع ذاته وما هو لازم لكمالها واستغنائها عن كل شيء في الوجود ، غير أنه يسمو فوق العقل كثيراً . ولا غرابة في ذلك ، فهووصف لذات الله ، والبحث في ذات الله لا تصل إليه المدارك على الاطلاق . ومن ثم كان يتجنبه علماء الدين جميعاً ، فقد قالوا « من خاض في الذات بفكره ، فهو عاص لله ورسوله » . كما قالوا « إن الحق تعالى لا يدرك بالنظر الفكري أبداً ، وليس عندنا أكبر من ذنب الخائضين في ذات الله بفكرهم » (كتاب الفتوحات ص ٦٥) ــ وإننا نتفق مع هؤلاء العلماء على تعذر البحث في ذات الله ، بل وأيضاً على عدم جواز البحث فيها . ومن جانبنا لولا أن الكتاب المقدس أعلن لنا أن الله هو « الآب والابن (أو الكلمة) والروح القدس » ، وأن الأدلة العقلية والنقلية ، أثبتت لنا صدق هذا الإعلان ، لما خطر ببالنا مطلقاً أن يكون هذا هو كنه الله . وأقصى ما كان يخطر ببالنا عنه ، أنه جامع في ذاته ومستغن بها كل الاستغناء ، كما يعتقد كل الفلاسفة ورجال الدين الذين يتأملون كثيراً في ذاته .

ثالثاً ــ ظهور أقنوم الابن في المسيح

بما أن أقنوم الابن هو الذي يعلن الله أو اللاهوت بطريقة منظورة كما ذكرنا فيما سلف ، لذلك كان أمراً بديهياً أنه إذا أراد الله أن يظهر ذاته لنا (وعمل مثل هذا يتوافق مع كماله كل التوافق ، لأن من دواعي هذا الكمال أن لا يكون في عزلة عنا ، بل أنه يظهر ذاته لنا لكي ندركه ونتوالف معه) ، أن يتم هذا الظهور بواسطة أقنوم الابن . ومن ثم فالله الذي لا يمكن رؤيته أو إدراكه في ذاته ، يصبح من الميسور لنا أن نراه وندركه في أقنوم الابن . وهذا ما حدث فعلاً ، فقد اتحد الأقنوم المذكور بالمسيح اتحاداً تاماً ، ولذلك استطعنا به أن ندرك قداسة الله وقدرته ومحبته ومعرفته التي لا حد لها .

أما قبل ظهوره في المسيح ، فكان تارة يظهر في هيئة ملاك وتارة أخرى في هيئة انسان ، ولكن تدل كل القرائن على انه لم يكن في ذاته هذا أو ذاك ، بل كان هو الرب نفسه الذي يستحق كل اكرام وسجود . (تكوين ٢١ : ١٧ ــ ٢٠ وقضاة ٦ : ١١ ــ ٢٤) . وفيما يلي بعض الأدلة التي تثبت هذه الحقيقة :

(ا) الأدلة الكتابية على شخصية المسيح

١ ــ شهادته عن ربوبيته وبنوته لله ووحدته الجوهرية مع الآب وإعلانه له : فقد قال المسيح إنه الرب (متى ٢١ : ٣) ، وإنه رب داود (متى ٢٢ : ٤٢ ــ ٤٥) ، ورب الرسل (متى ٢٤ : ٤٢) . كما قال إنه ابن الله (يوحنا ٩ : ٣٥ ــ ٣٨ ، ١٠ : ٣٦) ، وإن الله أبوه بمعنى أنه معادل له ، أو بالحري واحد معه (يوحنا ٥ : ١٨) ، وإنه والآب واحد (يوحنا ١٠ : ٣٠ ، ١٧ : ٢٢) ، وإنه في الآب والآب فيه . وإن كل من رآه فقد رأى الآب (يوحنا ١٤ : ٩ ، ١٠) ، وإنه يجب على جميع الناس أن يكرموه كما يكرمون الآب (يوحنا ٥ : ٢٣) .

٢ ــ شهادته عن أزليته وأبديته : فقد قال إن له مجداً خاصاً قبل إنشاء العالم (يوحنا ١٧ : ٥) ، وإنه قبلما ولد ابراهيم على الأرض ، هو كائن أو بالحري كائن بذاته (يوحنا ٨ : ٥٨) ، وإنه الألف والياء . والبداية والنهاية . والأول والآخر (رؤيا ١ : ٨ و١٧) .

٣ ــ شهادته عن عدم تحيزه بزمان أو مكان : فقد أعلن إبان وجوده على الأرض ، أنه كان وقتئذ في السماء أيضاً (يوحنا ٣ : ١٣) ، وأنه حيثما اجتمع اثنان أو

ثلاثة باسمه على الأرض ، يكون في وسطهم (متى ١٨ : ٢٠) ، وأنه يظل مع تلاميذه ، أو بالحري المؤمنين الحقيقيين به ، إلى انقضاء الدهر (متى ٢٨ : ٢٠) .

٤ ــ **شهادته عن كونه الحياة والمحيي** : فقد شهد أنه الحياة (يوحنا ١١ : ٢٥) ، وأنه يحيي من يشاء (يوحنا ٥ : ٢١) ، وأنه أتى لكي تكون لنا حياة وحياة أفضل (يوحنا ١٠ : ١٠) ، وأن من يؤمن به إيماناً حقيقياً تكون له الحياة الأبدية (يوحنا ٣ : ١٦) .

٥ ــ **شهادته عن سلطانه في غفران الخطايا وإدخال التائبين إلى الفردوس** : فقال للمفلوج « مغفورة لك خطاياك » (لوقا ٥ : ٢٠) ، وقال عن المرأة الخاطئة « قد غُفرت لها خطاياها الكثيرة » (لوقا ٧ : ٤٧) ، وقال للص الذي التجأ إليه نادماً عما فعله من شر « اليوم تكون معي في الفردوس » (لوقا ٢٣ : ٤٣) .

٦ ــ **شهادته عن سلطانه في قبول السجود** : فقد سجد له المجوس وهو بعد طفل صغير (متى ٢ : ١ ــ ١١) ، وسجد له الأبرص (متى ٨ : ٢) ، والأعمى (يوحنا ٩ : ٣٨) ، ورئيس المجمع (مرقس ٥ : ٢٢) ، والكنعانية (متى ١٥ : ٢٥) ، وبطرس الرسول (لوقا ٥ : ٨) ، وكل الذين كانوا في السفينة (متى ١٤ : ٣٣) ، وأخيراً سجد له الرسل جميعاً (متى ٢٨ : ١٧) .

٧ ــ **شهادته عن محاسبته للناس وقضائه على الشيطان** : فقد قال إنه متى جاء في مجده يجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم عن البعض الآخر ، ويقيم الأبرار عن يمينه والأشرار عن يساره ، ويقول للفريق الأول « تعالوا يا مباركي أبي ، رثوا الملك المعد لكم منذ تأسيس العالم » . ويقول للفريق الثاني « اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية » (متى ٢٥ : ٣١ ــ ٤٦) . كما أعلن أن الشيطان سقط أمامه كما يسقط البرق من السماء (لوقا ١٠ : ١٨) .

(ب) الأدلة العقلانية على شخصية المسيح

١ ــ لو كان المسيح يسعى وراء العظمة الدنيوية ، أو لو كان ذا بطش وقوة ، أو لو كانت شهادته قد وجدت قبولاً لدى الكثيرين من الناس ، لكان هناك مجال للطعن في شهادته السابق ذكرها ، بدعوى أنه كان متكبراً ، أو أن الناس هم الذين شجعوه على الادعاء بالالوهية . لكن المسيح على النقيض من كل ذلك . كان وديعاً كل الوداعة وحكيماً كل الحكمة وصادقاً كل الصدق (متى ١١ : ٢٩) ، فضلاً عن ذلك ،

كان معاصروه يقاومونه بسبب شهادته المذكورة (يوحنا ١٠ : ٣٢ ، ٣٣) فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان يصرّ على الشهادة عن نفسه أنه ابن الله على الرغم من إهانة الناس له (يوحنا ٥ : ١٧ — ٢٣ ، ١٠ : ٣٠ — ٣٨) ، وأنه لو كان قد تنحى عن هذه الشهادة لما أصابوه بسوء ما ، اتضح لنا أنه لابد أنه ابن الله كما قال .

٢ — إن اليهود كانوا قد التفوا حول المسيح في أول الأمر ليجعلوه ملكاً عليهم لأنهم وجدوا فيه المسيا الذي كانوا يحلمون به (يو ٦ : ١٥) . ولو كان المسيح أراد أن يؤله نفسه لكان قد أجابهم إلى رغبتهم ، لأن الملوك كانوا وقتئذ يعاملون معاملة الآلهة (أعمال ١٢ : ٢٢) . لكن المسيح رفض رغبتهم هذه ، وفي الوقت نفسه ظل يشهد أنه ابن الله وهو في حالة الوداعة والفقر التي اختارها لنفسه ، الأمر الذي يدل على أنه لم يكن مدعياً بل صادقاً كل الصدق في شهادته عن نفسه .

٣ — كما أن المسيح لم يفرض على الناس الاعتقاد بأنه ابن الله ، حتى كان يجوز الشك في صدق شهادته عن نفسه ، بل تركهم يستنتجون هذه الحقيقة من تلقاء أنفسهم (يوحنا ٦ : ٦٦ — ٧١ ، متى ١٦ : ١٣ — ١٨) ، ولذلك لم يطلب منهم أن يؤمنوا بشهادته المذكورة إيماناً أعمى ، بل كان يثبت لهم بالدليل العملي صدقها . فمثلاً عندما أعلن لهم أن له سلطاناً على غفران الخطايا ، الذي يتفرد به الله ، أظهر أحقيته في ممارسة هذا السلطان إذ شفى بكلمة واحدة مفلوجاً لم يكن يستطيع حراكاً على الإطلاق . ولذلك كان يقول للناس : « الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي » (يوحنا ١٠ : ٢٥) ، و « صدقوني أني في الآب والآب فيّ . وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها » (يوحنا ١٤ : ١١) ، وشخص يضع حياته وأعماله تحت الاختبار لكي يفحصها الناس بأنفسهم ويحكموا بواسطتها على حقيقة أمره ، هو شخص صادق كل الصدق في شهادته عن نفسه .

٤ — ولادته من عذراء : إن ولادة المسيح من عذراء لم تعرف رجلاً على الاطلاق ، دليل على أن له وجوداً ذاتياً قبل ولادته منها ودليل أيضاً على أن له حياة ذاتية تجعله في غنى عن بذرة حياة من رجل ما — وكائن له وجود ذاتي وله حياة ذاتية ، هو الله ، أو أقنوم من أقانيمه .

أما القول : [إن الله خلق آدم دون أب أو أم ، وأخذ حواء من أب دون أم ، ولكي يبين قدرته سمح بأن يولد المسيح من أم دون أب ، ومن ثم لا يكون إلا واحداً من البشر] ، فلا يجوز الأخذ به . لأن الله خلق آدم دون أب أو أم ، لأنه لم يكن قبله

رجل وامرأة يولد منهما . وأخذ حواء من آدم فقط لكي يكونا واحداً فلا ينفصل أحدهما عن الآخر (متى ١٩ : ٥) ، وفي الوقت نفسه لأنه لم يكن قبل حواء امرأة لتولد منها . لكن بعد وجود الذكور والإناث على الأرض ، لم يبق هناك داع لأن يأتي إنسان من أم دون أب ، أو من أب دون أم ، أو من دونهما معاً ، لأن الله أوجد الجنسين في بدء الخليقة لكي يتناسل منهما البشر جميعاً . ولذلك لو كان المسيح مجرد إنسان ، لما وُلد إلا من أب و أم مثل باقي الناس — حقاً إن الله أظهر قدرته في ولادة المسيح من عذراء ، ولكن يجب أن لا يفوتنا أن إظهار قدرته في ولادة المسيح من عذراء ، دليل على أنه ليس له مثيل أو نظير بين البشر على الإطلاق .

٥ — عصمته : مع ان المسيح عاش في جسد من لحم ودم ، وسكن في ذات العالم الذي نعيش فيه ، وكانت كل مغريات هذا العالم تحيط به مثلنا سواء بسواء ، لكنه لم يتجه إلى واحدة منها (على النقيض من كل الرسل والأنبياء ، فقد عثروا جميعاً وتلوثت حياتهم بخطايا متنوعة) . ولذلك لما اجتمع اليهود حول المسيح محاولين اختلاق التهم التي تبرر في نظرهم القبض عليه ، وقف بينهم عالي الرأس وقال لهم : « من منكم يبكتني على خطيئة ؟ » فلم يقدر أحد أن يذكر له خطية واحدة في أي دور من أدوار حياته . أما عن شهادة الأصدقاء عنه فكثيرة . ولذلك نكتفي بالقول : إن بولس الرسول الذي كان ألد أعداء المسيح فيما سلف ، قال عنه عندما عرفه ، إنه قدوس بلا شر ولا دنس ، قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات في الطهر والقداسة (عبرانيين ٧ : ٢٦) .

٦ — عمل المعجزات بسلطانه الذاتي : كان أنبياء الله يعملون المعجزات ليس بناء على إرادتهم الشخصية بل بناء على إرادة الله ، أما المسيح فكان يعملها بإرادته الذاتية ، ولذلك كانت بالنسبة له أمراً عادياً . فكان يقول للأبرص « أريد فاطهر » فيطهر في الحال (متى ٨ : ٣) . ويقول للمفلوج « قم واحمل سريرك وامش » ، فتزول علته كما تدب فيه العافية ويحمل سريره ويمشي (مرقس ٢ : ٩) . ويقول للميت « قم » ، فيقوم على الفور وليس به عرض من أعراض الموت أو الضعف (لوقا ٧ : ١٤) . فضلاً عن ذلك كان يمشي على الماء لينقذ أشخاصاً كانوا مشرفين على الغرق ، ويدخل البيوت والأبواب مغلقة لكي يهدىء روع أشخاص تملكهم الخوف والفزع (متى ١٤ : ٢٥ ، يوحنا ٢٠ : ٢٦) ، وكان ينتهر العواصف فتهدأ في الحال ويعود السلام إلى قلوب الذين فيها (مرقس ٤ : ٣٩) . فضلاً عن ذلك فقد استطاع أن يمنح

تلاميذه سلطاناً على عمل المعجزات ، فكانوا يعملونها **باسمه** (متى ١٠ : ١) ، الأمر الذي لم يفعل مثله نبي من الأنبياء أو رسول من الرسل .

٧ ـــ علمه بالغيب : فقد كان يعرف أسماء الناس دون أن يكون قد التقى بهم من قبل ، كما كان يعرف الأعمال التي كانوا يقومون بها في الخفاء (يوحنا ١ : ٤٢ ـــ ٤٧) والخواطر التي كانت تجول في عقولهم (يوحنا ٦ : ٦١) . والأسرار التي كانت تكمن في أعماق نفوسهم (يوحنا ٤ : ١٨) ، فضلاً عن ذلك كان يعرف ما جاء في الكتب دون أن يدرسها (يوحنا ٧ : ١٥) ، وما يحدث في الأماكن التي تبعد عنه كثيراً (مرقس ١٤ : ١٣) ، وما يوجد في أعماق البحار وما ابتلعه السمك من أشياء (متى ١٧ : ٢٧) ، كما كان يعرف ما يخبئه المستقبل من مختلف الأحداث . فعرف أن أورشليم سيحل بها الخراب والدمار (لوقا ٢١ : ٦) ، وأن لعازر سيموت وأنه سيقيمه من بين الأموات (يوحنا ١١ : ١١ ، ١٤) ، وأن يهوذا سيسلمه لليهود (متى ٢٦ : ٢٣) ، وأن بطرس سينكره ثلاث مرات (متى ٢٦ : ٣٤) ، وأنه هو نفسه (أي المسيح) سيُصلب ويقوم من بين الأموات في اليوم الثالث (متى ١٦ : ٢١) . اضف إلى ذلك أن علمه بهذه الأمور لم يكن مرتبطاً بزمان ما ، بل كان لديه أزلاً (يوحنا ٦ : ٦٤) ، الأمر الذي ينفرد به الله دون سواه .

٨ ـــ قيامته من بين الأموات : بالرجوع إلى الكتاب المقدس نرى أن الناس الذين قاموا من بين الأموات بقوة معجزية ، ماتوا بعد ما عاشوا على الأرض فترة من الزمن . أما المسيح ففضلاً عن أنه لم يمُت بعد قيامته ، بل بعد ما عاش على الأرض مدة من الزمن يثبّت فيها إيمان تلاميذه ، ارتفع إلى السماء (لوقا ٢٤) ، فانه له المجد قام من بين الأموات بقوته الذاتية وبارادته الشخصية . فقد قال لليهود قبل صلبه عن جسده : « انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه » (يوحنا ٢ : ١٩) وقال لهم أيضاً عن نفسه : « أنا هو القيامة والحياة » (يوحنا ١١ : ٢٥) ، وشخص تكون نفسه ملكاً له ، يسلّمها إذا أراد ويستردّها إذا أراد ، ويكون أيضاً هو القيامة والحياة لا يكون مخلوقاً. وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال عن المسيح إنه اتضح أنه ابن الله بالقيامة من الأموات (رومية ١ : ٤) .

أخيراً نقول : (أولاً) لو كان الله قد ظهر لنا في مجده الخاص لكي يعلن لنا ذاته ويقربنا إليه ، لما استطاع واحد منا أن يقف في حضرته ، بل لسقط ميتاً في الحال أمامه فقد قال الله لموسى : « الانسان لا يراني ويعيش » (خروج ٣٣ : ٢٠) ، وبما أن الله لا يريد أن يرعبنا ، بل يريد أن ندنو منه حباً فيه وشوقاً إليه ، فمن ثمّ كان من البديهي

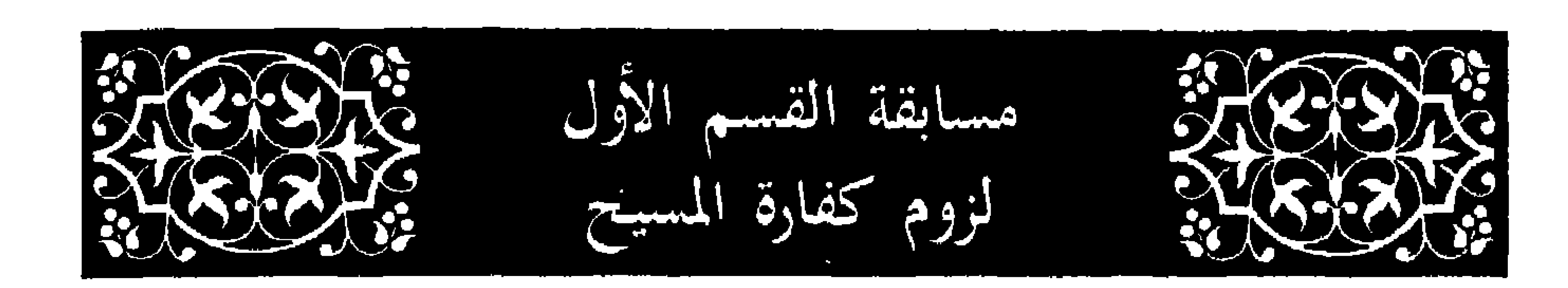
أن يظهر لنا في ناسوت مثل ناسوتنا . وكل ما في الأمر يكون هذا الناسوت خالياً من الخطيئة ، لكي يكون متوافقاً مع قداسته المطلقة .

(ثانياً) إن الله بظهوره في المسيح لم يتحيّز بحيّز ، بل ظل كما هو المنزَّه عن الزمان والمكان . وقد أشار المسيح من جهة لاهوته إلى هذه الحقيقة ، فقال عندما كان بالجسد على الأرض إنه كانٍ في نفس هذا الوقت ، في السماء عينها (يوحنا ٣ : ١٣) .

(ثالثاً) كما أنه بظهوره في المسيح ظل هو الله بكل خواصه . كما ظل ناسوت المسيح هو الناسوت بكل خواصه ، لأنه لم يحدث بين اللاهوت وبين الناسوت اختلاط أو امتزاج يؤدي إلى طروء تغيير في أيهما .

ومع كل فقد ظهر من خلال حياة المسيح الناسوتية مجد أدبي لا يقل في شيء عن ذاك الذي ينتظر ظهوره من الله نفسه ، ومن ثم استطاع الأتقياء من البشر أن يؤمنوا أنه « ابن الله » أو « الله الظاهر في الجسد » كما يتضح من (يوحنا ١ : ٤٩ و٢ : ١١ ، ٢٣ و٤ : ٣٩ — ٤٢ و٧ : ٣١ و١١ : ٢٧ ومتى ١٦ : ١٦) .





أيها القارىء الكريم ، ان كنت قد درست القسم الأول من هذا الكتاب . فستجاوب على الأسئلة التالية . إن أرسلت لنا رداً صحيحاً على عشرين سؤالاً من الأسئلة الخمسة والعشرين ، نرسل لك جائزة . لا تنس كتابة اسمك وعنوانك بوضوح على رد المسابقة ، وليس على المظروف الخارجي فقط .

١ ــ ما هي الخطية ؟
٢ ــ هل هناك صغائر وكبائر في نظر الله ؟
٣ ــ كيف تسربت الخطية إلى البشر جميعاً من آدم ؟
٤ ــ ما هي نتائج ولادة البشر بالخطية ؟
٥ ــ كيف ستكون الأبدية بالنسبة للخطاة ؟
٦ ــ كيف تتفق محبة الله للبشر مع معاقبته إياهم من أجل خطاياهم ؟
٧ ــ لماذا لم يحدد لنا الله أوقاتاً محددة نصلي فيها ؟
٨ ــ ما الفرق بين معرفة الله والمعرفة عنه ؟
٩ ــ على أي أساس تقوم العلاقة الحقيقية بالله ؟
١٠ ــ ما الغرض الحقيقي من الصوم ؟
١١ ــ هل تمحو التوبة خطايا الماضي ؟ ولماذا ؟
١٢ ــ لماذا لا تفيد الصدقة في غفران الخطية ؟
١٣ ــ هل لأن لله حرية مطلقة ، يصفح عن الخطاة بدون تعويض ؟ ولماذا ؟
١٤ ــ ما هي الشروط الواجب توافرها في الحيوان الذي كان يُقدم للفداء في اليهودية ؟ ولماذا ؟
١٥ ــ لماذا قبل الله هابيل ورفض قايين ؟
١٦ ــ ما هي الشروط الواجب توافرها في الفادي ؟

١٧ ــ لمن تشهد التوراة والانجيل بالتفرُّد بعملية الفداء ؟
١٨ ــ لماذا يظهر الله ، الذي لا حدَّ لعظمته في ناسوت مثلنا ؟
١٩ ــ ألا توجد وسيلة للخلاص إلا بافتداء الله لنا بنفسه ؟ اشرح ذلك .
٢٠ ــ ما رأيك في القول : إن محبة الله للبشر ، مهما بلغت شدتها ، لا يمكن أن تصل إلى الدرجة التي يقوم معها بفدائهم بنفسه ، لما يتطلبه الفداء من تضحية تفوق التصور ؟
٢١ ــ لماذا تكون الوحدانية الجامعة هي اللائقة بالله ؟
٢٢ ــ ما هو التفسير لكون الله قائماً ليس بتعيُّن واحد بل تعيُّنات ثلاثة ؟
٢٣ ــ ما هو سبب تسمية كل اقنوم باسم خاص ؟
٢٤ ــ ما رأيك في الأدلة العقلانية على شخصية المسيح ؟
٢٥ ــ لماذا ظهر الله في شخص المسيح ؟

يسعدنا أن نجاوب على أسئلتك

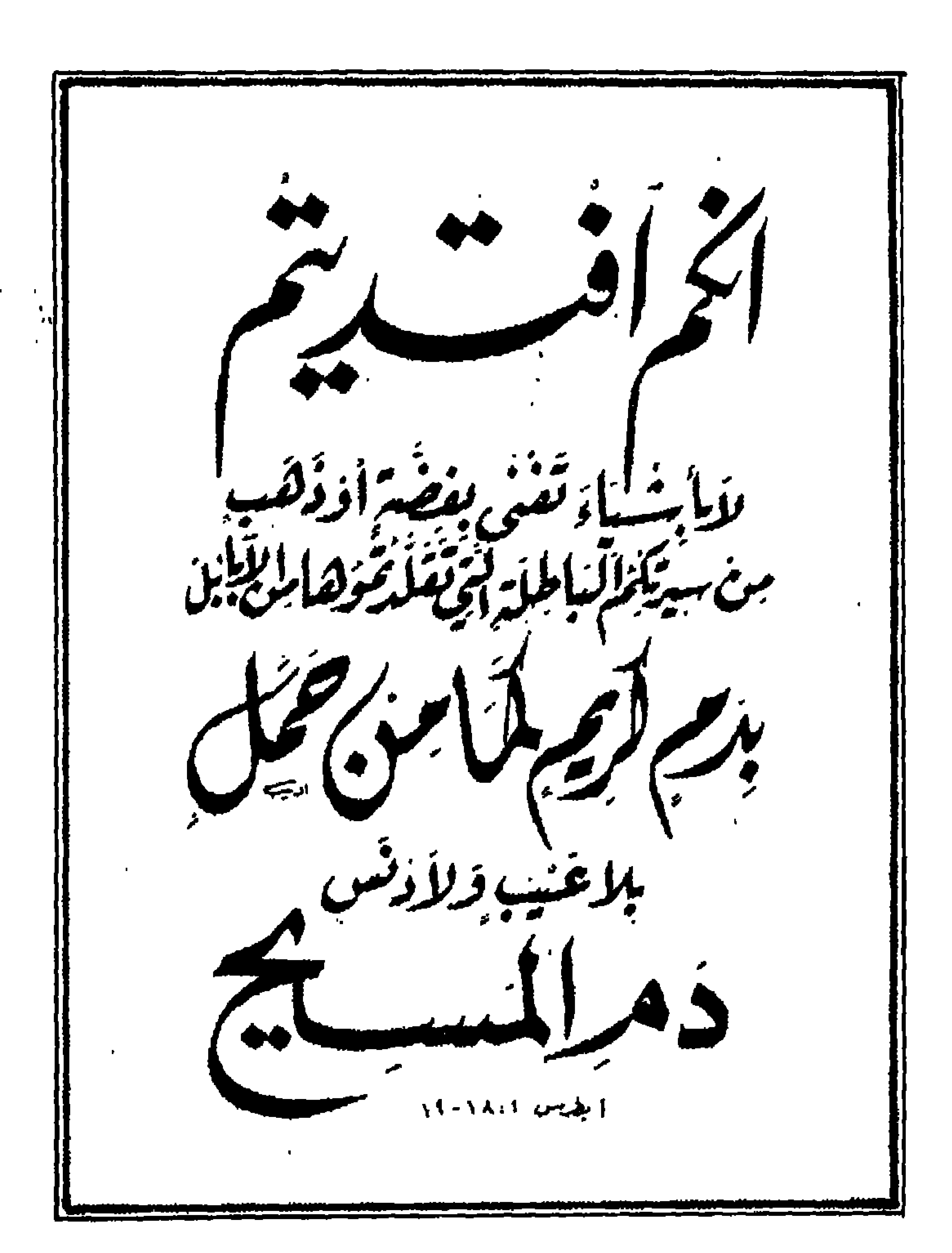
إن كان لديك سؤال عن الإيمان المسيحي ، يُسعدنا أن نجاوب عليه .

أرسل لنا سؤالك ، مع عنوانك الكامل الواضح ـ لا تَنْسَ أن تكتب اسمك وعنوانك في داخل الخطاب ، وليس على مظروفه فقط .

عنوانا

كنيسة قصر الدوبارة

٧ شارع الشيخ ريحان جاردن سيتي . القاهرة


انكم افتديتم
لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب
من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء بل
بدم كريم كما من حمل
بلا عيب ولا دنس
دم المسيح
١ بطرس ١: ١٨-١٩

القسم الثاني

كيف تنتفع بكفارة المسيح ؟

لَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ

الخَلاصُ

لأَنْ لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ

قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ

الباب الخامس

قيام الله بالفداء في المسيح

إن الذين ليست لهم دراية بشخصية المسيح ، يظنون أن صلبه يرجع فقط إلى كراهية كهنة اليهود له ، بسبب توبيخه إياهم على شرورهم وآثامهم . ولذلك يكون المسيح ، بناءً على رأيهم ، قد مات شهيد الحق والواجب فحسب . لكن وإن كان هذا الرأى صواباً من جهة تصرف هؤلاء الكهنة إزاء المسيح ، غير أننا إذا رجعنا الى الكتاب المقدس وإلى القرائن الخاصة بحادثة صلب المسيح الواردة فيه ، نرى أنه لم يمت شهيداً فحسب ، بل وكفارة أيضاً ، كما يتضح مما يلي :

— ١ —

أدلة كتابية عن موت المسيح كفارة أو فدية

أولاً — شهادة المسيح عن موته كفارة ، والأدلة على صدقها

١ — شهادة المسيح : قال المسيح عن نفسه قبل حادثة الصلب : « أنا هو الراعي الصالح ، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف » (يوحنا ١٠ : ١١) [قاصداً بالخراف المؤمنين الحقيقيين وأوجه الشبه بينهما أن الخراف تكره القذارة وتطيع راعيها ، والمؤمنين الحقيقيين يكرهون الشر ويطيعون الله] . وقال « كما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الانسان (على الصليب) لكي **لا يهلك كل من يؤمن به** بل تكون له الحياة الأبدية . لأنه هكذا أحب الله العالم حتى **بذل ابنه** الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يوحنا ٣ : ١٤ — ١٦)

كان بنو إسرائيل قد تذمروا على الله في البرية ، فأثار عليهم الحيات المحرقة ، فلدغت عدداً كبيراً منهم . ولما رأى الباقون أنهم سيموتون حتماً مثل غيرهم ، هرعوا إلى موسى وقالوا له : قد أخطأنا ، فتضرع إلى الله ليرفع عنا الحيات . فصلى موسى لأجلهم . فقال الله له : « اصنع لك حية من نحاس وضَعْها على راية ، فكل من لُدغ ونظر إليها يحيا » (عدد ٢١ : ٤ — ٩) — والحية النحاسية هذه كانت رمزاً إلى المسيح من النواحي الآتية : (أولاً) إنه لم يكن بها سم مثل الحيات ، والمسيح لم تكنْ به خطيئة مثل الناس . (ثانياً) إنها لم تكن في ذاتها حية بل كانت شبه حية ، والمسيح وإن كان قد ظهر في الهيئة كانسان مثلنا ، لكنه لم يكن في حقيقة ذاته واحداً منا ، فقد كان يحلّ فيه كل ملء اللاهوت جسدياً ، كما أنه وُلد من عذراء لم تعرف رجلاً على الاطلاق .

(ثالثاً) إن الموت أتى إلى بني إسرائيل عن طريق حية ، ولذلك شاء الله أن يكون خلاصهم منه عن طريق حية من نوع آخر . وهكذا الحال من جهة الخطيئة التي تؤدي إلى العذاب الأبدي ، فإنها دخلت إلى البشر بواسطة آدم الأول ، ولذلك شاء الله أن يكون خلاصهم منها ومن عذابها بواسطة آدم الأخير الذي هو المسيح (رومية ٥ : ١٢ ـــ ١٩) . (رابعاً) إن النظر الجسدي إلى الحية النحاسية كان هو السبيل الذي عيّنه الله للشفاء من لدغة الحيات المحرقة ، والنظر الروحي إلى المسيح أو بالحري الإيمان الحقيقي به ، هو السبيل الذي عيَّنه الله للخلاص من الخطيئة وعذابها (يوحنا ٣ : ١٦) .

وقال المسيح أيضاً : « إن ابن الانسان لم يأت ليُخدم بل ليَخدم **وليبذل نفسه فدية** عن كثيرين » أو بالحري عوضاً عنهم (مرقس ١٠ : ٤٥) . وأيضاً « لأن ابن الانسان قد جاء لكي **يخلص ما قد هلك** » (متى ١٨ : ١١) . وعندما شبه نفسه بحبة الحنطة قال : « إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت ، فهي تبقى وحدها ـــ ولكن **إن ماتت تأتي بثمر كثير** » (يوحنا ١٢ : ٢٤) ، مشيراً بذلك إلى أنه على أساس موته ستكون لكثير من الناس حياة أبدية ، أو بالحري سيكون موته موتاً كفارياً

وعندما تحدث عن نفسه كالخبز النازل من السماء ليهب حياة أبدية للذين يتناولون روحياً منه ، قال « والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي ، الذي **أبذله من أجل حياة العالم** » (يوحنا ٦ : ٥١) . كما قال لتلاميذه مرة بأن جسده سيبذل وبأن دمه **سيُسفك عنهم وعن كثيرين** (لوقا ٢٢ : ١٩ و٢٠) ، الأمر الذي يدل على أن موت المسيح لم يكن مجرد استشهاد ، بل كان أيضاً كفارة عن الخطاة .

٢ ـــ الأدلة على صدق شهادة المسيح : فضلاً عن أن شهادة المسيح عن موته كفارة مسجلة بالوحي الإلهي ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في صدقها ، فإننا إذا نظرنا إليها من الناحية العقلية يتضح لنا أنها لابد أن تكون صادقة أيضاً . وذلك للسببين الآتيين :

(ا) إن القادة والزعماء (كما نرى في كل البلاد) يحاولون بشتى الوسائل أن يبثوا الشجاعة والإقدام في نفوس اتباعهم . وحتى إذا كان هؤلاء القادة والزعماء مرضى أو على شفا الموت ، فإنهم يُخفون حالتهم الصحية عن أتباعهم لئلا يتسرب إليهم اليأس والفشل . وإذا كان الأمر كذلك ، وكان المسيح بعيداً كل البعد عن وسائل التمويه والتحايل التي يلجأ إليها الناس ، فلا ندحة من التسليم بأنه كان يعلم علم اليقين أنه

سيموت كما قال ، لأنه لولا ذلك لما خطر بباله أن يتحدث مع تلاميذه عن موته ، إذ أن الحديثَ عنه حزّ في نفوسهم وفتَّ في عضدهم ، وهم في أول الطريق معه .

(ب) إن المسيح لم يكن مدعياً أو متكبراً بل كان صادقاً كل الصدق ومتواضعاً كل التواضع . ولذلك ليس من المعقول أن يكون قد نادى بأن موته سيكون موتاً كفارياً ، والحال أنه كان موتاً استشهادياً أو موتاً عادياً فحسب .

(جـ) كما أننا إذا أمعنا النظر في « حديث المسيح عن موته كفارة » ، يتضح لنا أنه لا يجيء بمعزل عن تعاليمه التي كان يوجهها إلى سامعيه (مثل محبة الله للبشر واهتمامه بهم ورغبته في تقريبهم إليه) ، بل يجيء ممتزجاً بها كل الامتزاج ، حتى أنه لا يمكن فصل هذا الحديث عنها بحال . ومن ثم لا يكون كرقعة أرتقت بثوب بل كالخيوط التي يتكون منها نسيج الثوب ، أو بالحري لا يكون دخيلاً على أقوال المسيح بل يكون من ذات أقواله .

ثانياً ــ شهادة الرسل عن موت المسيح كفارة ، والأدلة على صدقها

(ا) قال بطرس الرسول للمؤمنين :« إن كنتم تدعون أباً الذي يحكم بغير محاباة حسب عمل كل واحد ، فسيروا زمان غربتكم بخوف ، عالمين أنكم **أفتُديتُم** لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء ، بل **بدم** كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس **دم** المسيح معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم » (١ بطرس ١ : ١٧ ــ ٢٠) ولا غرابة في ذلك ، فالله كان يعلم منذ الأزل أن الانسان سيسقط في الخطيئة ، فجهَّز له الخلاص منها من قبل أن يخلقه ، الأمر الذي يتوافق مع كماله كل التوافق .

(ب) وقال يوحنا الرسول عن المسيح « بهذا أُظهرت المحبة ، أن ذاك (الذي هو المسيح) وضع **نفسه لأجلنا** »(١ يوحنا ٣ : ١٦) . وأيضاً « في هذا هي المحبة ، ليس أننا نحن أحببنا الله ، بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا » (١ يوحنا ٤ : ١٠) .

(جـ) وقال بولس الرسول لأهل كورنثوس عن المسيح إنه « **مات من أجل خطايانا** حسب الكتب (النبوية) » . وقال أيضاً عنه « وهو **مات لأجل الجميع** ، كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم ، بل للذي **مات لأجلهم** وقام » . وأيضاً« إن الله جعل (المسيح) الذي لم يعرف خطية ، (ذبيحة) خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه » (١ كورنثوس ١٥ : ٣ ، ٢ كورنثوس ٥ :١٥ ، ٢١) .

وقال لأهل رومية : « فإنه بالجهد يموت أحد لأجل بار ، ربما لأجل الصالح يجسر أحد أيضاً أن يموت . ولكن الله بيّن محبته لنا ، لأنه ونحن بعد خطاة ، **مات المسيح لأجلنا** » (٥ : ٧ ، ٨) . وقال أيضاً : « متبررين مجاناً بنعمته **بالفداء الذي بيسوع المسيح** الذي قدمه الله **كفارة** » (٣ : ٢٤ و٢٥) . وأيضاً : « لأن الموت الذي ماته ، **قد ماته للخطية** مرة واحدة » (٦ : ١٠) .

وقال لأهل كولوسي عن المسيح « لأنه فيه سُرَّ أن يحل كل الملء (أي اللاهوت كله) وأن يصالح به الكل لنفسه **عاملاً الصلح بدم صليبه** بواسطته » (١ : ١٩ و٢٠) . كما قال لهم « وإذ كنتم أمواتاً .. أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا ، إذ محا الصك (أو بالحري دين الخطايا) الذي علينا في الفرائض الذي كان ضداً لنا . وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب » في المسيح (كولوسي ٢ : ١٣ ، ١٤) .

وقال لأهل أفسس عن المسيح : « الذي فيه لنا **الفداء بدمه** غفران الخطايا حسب غنى نعمته » (١ : ٧) ، وأنه **صالحنا في جسد واحد مع الله بالصليب** ، قاتلاً العداوة به » (٢ : ١٦) . وأنه « أسلم نفسه **لأجلنا قرباناً وذبيحة لله** رائحة طيبة » (٥ : ٢) . وأنه أحب المؤمنين **وأسلم نفسه لأجلهم** لكي يحضرهم لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غَضَن . [كلمة « الكنيسة » ليست عربية بل عبرية ، ويُراد بها « جماعة من الناس » تجمعها وحدة ما . أما في المسيحية فيُراد بها المؤمنون الحقيقيون وحدهم (أفسس ٥ : ٢٥) . أما « الغَضَن » فهو التجعد الذي يعلو الوجه عند الشيخوخة أو الأعياء . والمراد بالعبارة المذكورة أعلاه ، أن الله سيحضر المؤمنين الحقيقيين إليه كاملين كل الكمال ، بفضل كفارة المسيح الثمينة لأجلهم على الصليب ، وعمله الروحي في قلوبهم طوال وجودهم على الأرض]

وقال للعبرانيين عن المسيح : « لكي يذوق بنعمة الله **الموت لأجل كل واحد** » (٢ : ٩) لأن المسيح عندما كان على الصليب ، كان يمثل كل انسان في موقفه كمذنب أمام الله في يوم الدينونة ، فحمل كل خطاياه من بداية حياته إلى آخرها ، الأمر الذي يعطي كل مؤمن حقيقي الاطمئنان الكامل من جهة قبوله أمام الله على أساس كفارة المسيح . كما قال « إنه أُظهر مرة عند انقضاء الدهور **ليبطل الخطية بذبيحة نفسه** » (عبرانيين ٩ : ٢٦) ، كما قال عنه « فبعدما قدم **عن الخطايا ذبيحة واحدة** جلس إلى الأبد عن يمين الله » (١٠ : ١٢) . وإنه « لكي **يقدس الشعب بدم نفسه تألم** خارج الباب » (عبرانيين ١٣ : ١٢) أو بالحري خارج باب المدينة حيث كانت تحرق الذبائح الكفارية عوضاً عن الخطاة في العهد القديم .

وقال لتلميذه تيموثاوس عن المسيح : « **إنه بذل نفسه فدية لأجل الجميع** » (١تي ٢ : ٦) ، لكي **يفتدينا** من كل إثم .

٢ ــ الادلة على صدق شهادة الرسل : فضلاً عن أن شهادة الرسل مسجلة بالوحي الإلهي ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في صدقها ، فإننا إذا نظرنا إليها من الناحية العقلية يتضح لنا أنها لابد أن تكون صادقة أيضاً : وذلك للاسباب الآتية :

(ا) إن شهادة الرسل عن موت المسيح كفارة لا تجيء بمعزل عن نصائحهم وإرشاداتهم للمؤمنين ، بل تجيء ممتزجة بهذه وتلك كل الامتزاج . ومن ثم فإنها لا تكون كرقعة أرتقت بثوب ، بل كالخيوط التي يتكون منها نسيج الثوب ، الأمر الذي يدل على أن موت المسيح كفارة ، حقيقة لا سبيل للطعن فيها .

(ب) إن الرسل لم يكونوا من أصحاب الجاه أو السلطان الذين إذ قالوا شيئاً غير الحقيقة صدقهم بعض الناس وأمّنوا على أقوالهم ، كما نشاهد في بعض الأحيان ، بل كان معظمهم من الفقراء المعدمين الذين يملكون بالكاد قوت يومهم . فإذا أضفنا إلى ذلك [(أولاً) أن الرسل الذين ذكرنا شهادتهم كان يختلف أحدهم عن الآخر من جهة السن والثقافة والطباع والمركز الاجتماعي اختلافاً عظيماً . فبطرس كان جريئاً متحمساً ، ويوحنا كان وديعاً هادئاً ، فضلاً عن ذلك كان الأول فقيراً ومتقدماً في السن ، بينما الآخر كان غنياً وحديثاً في السن (ثانياً) إن بولس كان عالماً كبيراً وشخصاً متعنتاً عنيداً لا يسلم بآراء غيره بسهولة ، كما كان من قبل ألد أعداء المسيحية وأكبر المقاومين لها (ثالثاً) إن إتفاق مجموعة متباينة من الناس (مثل هذه) على أمر ما ، دليل على أنه حقيقة واقعة لا مجال للشك فيها] ، اتضح لنا أن شهادة الرسل السابقة لابد أنها صادقة كل الصدق .

(جـ) أخيراً نقول : بما أن الرسل بشهادتهم أن المسيح مات كفارة عن البشر ، كانوا يعلنون لليهود زوال فائدة الذبائح الحيوانية التي كانوا يقدمونها لله على أيدي كهنتهم ، مؤكدين لهم أنها كانت مجرد رموز إلى كفارة المسيح . وبما أن هذه الشهادة كانت تثير هؤلاء الكهنة ضد الرسل وتدفعهم لشن الاضطهاد عليهم ، لأن بامتناع اليهود عن تقديم الذبائح المذكورة ، يحرم الكهنة من موارد رزقهم . وبما أنه لو لم يكن المسيح قد مات فعلاً كفارة عن البشر ، لما كان قد خطر ببال الرسل أن ينطلقوا بمثل هذه الشهادة ، لأنه ليس من المعقول أن يختلقوا (وهم جماعة متباينة من الناس كما ذكرنا) موضوعاً لا حقيقة له ، وفي الوقت نفسه يتعرضون بسببه للاضطهاد

والعذاب . كما أنه على الرغم من تهاطل هذا وذاك عليهم يستمرون في إذاعته بكل ما لديهم من قوة ونشاط ، لذلك لابد أن شهادتهم عن موت المسيح كفارة هي شهادة صادقة كما ذكرنا .

ثالثاً — شهادة أنبياء العهد القديم عن موت المسيح كفارة والأدلة على صدقها

(ا) قال داود النبي بروح النبوة سنة ١٠٠٠ ق.م عن لسان المسيح « أكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب (مشيراً إلى كراهية اليهود له وصلبهم إياه) ، حينئذ رددت **الذي لم اخطفه** » (مزمور ٦٩ : ٤) قاصداً بذلك أن المسيح مع أنه لم يخطف شيئاً (أو بالحري لم يسلب الله حقاً من حقوقه) لأن الذي فعل ذلك هم البشر وحدهم ، غير أنه ردّ بنفسه لله ما خطفوه وسلبوه ، أو بالحري قام بايفاء مطالب عدالة الله وقداسته في نفسه نيابة عنهم .

(ب) وقال إشعياء النبي بروح النبوة سنة ٧٠٠ ق.م. عن المسيح « **وهو مجروح لأجل معاصينا** (وليس لأجل معاص ارتكبها) . **مسحوق لأجل آثامنا** (وليس لأجل آثام اقترفها) ، تأديب سلامنا عليه (أي أن ما نستحقه من قصاص ، حتى تتحقق عدالة الله من جهتنا ويصفو الجو بيننا وبينه ، قد احتمله المسيح عوضاً عنا) ، وبحُبُره (أي جروحه) شُفينا (من مرض الخطية القتال) . كلنا كغنم ضللنا ، ملنا كل واحد إلى طريقه ، والرب **وضع عليه إثم جميعنا** » (٥٣ : ٥ ، ٦) ، عوضاً عن أن يبقيه علينا ويحمّلنا مسئوليته وقصاصه .

(جـ) وقال الملاك جبرائيل لدانيال النبي الذي عاش سنة ٥٥٠ ق.م. في رؤيا خاصة « سبعون أسبوعاً (أي ٤٩٠ سنة) . قُضِيَت على شعبك (أي على اليهود) وعلى مدينتك المقدسة (أورشليم) لتكميل المعصية وتتميم الخطايا (اللذين حدثا برفضهم للمسيح) ولكفارة الاثم (أي لإزالة معصيتهم والانتهاء من أمر خطاياهم) ، وليُؤتَى بالبر الأبدي (الذي يدوم إلى الأبد على أساس الكفارة المذكورة) ولختم الرؤيا والنبوة (أي لاتمامهما وتحقيقهما) ، ولمسح قدوس القدوسين (أيضاً) ، فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها — الذي حدث في عهد ارتحشستا الملك (نحميا ٢ : ١ — ٨) — إلى المسيح الرئيس (في مجيئه الأول) سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً (أي ٤٩ سنة + ٤٣٤ سنة = ٤٨٣ سنة) .

وبعد اثنين وستين أسبوعاً (أي ٤٣٤ سنة) . يُقطع المسيح (أي يرفض ويقتل) وليس له ،(أي ليس له الملك الذي يحق له)» (دانيال ٩ : ٢٤ — ٢٦) .

والأسبوع هنا هو اسبوع السنين ، فقد قال الله لحزقيال النبي عن الأزمنة الخاصة بالنبوات التي أعلنها له ، انه جعل له اليوم عوضاً عن سنة (حزقيال ٤ : ٥) . أما عندما يكون المراد بالاسبوع سبعة أيام عادية ، فان الكتاب المقدس ينص على ذلك ، فقد ذكر في موضع آخر أن دانيال قال « في تلك الأيام أنا دانيال كنت نائحاً ثلاثة أسابيع أيام » (دانيال ١٠ : ٢) .

(د) وقال الملاك ليوسف خطيب العذراء مريم : « ستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع **لأنه يخلص شعبه من خطاياهم** » (متى ١ : ٢١) ، ولا خلاص من الخطايا إلا بالتكفير عنها ، فيكون المسيح هو الشخص الذي يكفر عن الخطايا .

(هـ) وقال زكريا الكاهن (أبو يوحنا المعمدان) متنبئاً عن فداء الله في المسيح : « مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد وصنع **فداء** لشعبه » (لوقا ١ : ٦٨) ، فيكون المسيح هو الفادي الذي يخلص البشر من خطاياهم .

(و) وقال سمعان الشيخ لله ، عندما حمل المسيح في طفولته : « الآن تطلق عبدك يا سيد (من العالم) حسب قولك بسلام ، لأن عينيَّ قد أبصرتا **خلاصك** الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب » (لوقا ٢ : ٢٥ — ٣١) ، الأمر الذي يدل على أن هذا الشيخ قد اطمأن من جهة مستقبله الأبدي ، لأنه رأى في المسيح الخلاص الذي كان الله قد أعدّه للنجاة من شر الخطيئة وقصاصها .

(ز) وقال يوحنا المعمدان عن المسيح : « هوذا حمل الله الذي **يرفع خطية العالم** » (يو ١ : ٢٩) أو بالحري هو « كبش الفداء » الذي يموت كفارة عن البشر جميعاً .

(ح) وقال قيافا رئيس كهنة اليهود بروح النبوة « إن يسوع مزمع أن **يموت عن الأمة** ، وليس عن الأمة فقط ، بل ليجمع أبناء الله المتفرقين (في جميع أنحاء العالم) إلى واحد » (يوحنا ١١ : ٤٩ — ٥٢) ، أو بالحري ليفديهم ويجعلهم شعباً واحداً لله .

الأدلة على صدق شهادة العهد القديم : فضلاً عن أن هذه الشهادة مسجلة بالوحي الإلهي ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في صدقها ، فإننا إذا نظرنا إليها من الناحية العقلية يتضح لنا أنها لابد أن تكون صادقة أيضاً ، وذلك للأسباب الآتية :

(ا) إن التوراة التي وردت بها معظم هذه الآيات ، كتبت قبل مجيء المسيح إلى العالم بمئات السنين ، ولا تزال موجودة إلى الآن في أيدي اليهود جميعاً . وفي أثناء خدمة المسيح على الأرض ، كانت هناك نسخ منها في الهيكل والمجامع والمدارس الدينية ، وكان الكهنة واللاويون يقدّسون هذه النسخ ويقرأون فيها كل يوم ويحافظون عليها بكل دقة وعناية ، فليس من المعقول اطلاقاً أن يكون بعض المسيحيين قد دوّنوا النبوات السابق ذكرها (إن سوّلت لهم نفوسهم القيام بهذه الجريمة) في عدد من نسخ التوراة . لأن جريمة مثل هذه لو حدثت ، لكانت تكتشف في الحال ، وتبعاً لذلك لكان اليهود أحرقوا النسخ التي حدث بها التزوير ، وقضوا على الذين قاموا به قضاء تاماً .

(ب) إن هذه الشهادة صادرة من أشخاص لا تربطهم رابطة ما ، فبينهم الصديق والعدو ، والملاك والإنسان ، والشيخ والشاب ، ومن عاش في بلاد الفرس قبل الميلاد بمئات السنين ، ومن عاش في بلاد أورشليم بعد الميلاد ببضع سنوات . وبالرغم من هذه الاختلافات الجوهرية اتّحدت شهادتهم على أن موت المسيح هو للتكفير عن الخطيئة . إذاً لا شك أنهم كانوا منقادين في شهادتهم هذه بروح واحد هو روح الله . إذ لولاه لما كانوا ، وهذا شأنهم من التباين والاختلاف ، يجمعون على شيء واحد .

(جـ) أخيراً نقول إن التاريخ الذي حددته نبوة دانيال النبي لمجيء المسيح للتكفير عن الخطيئة قد أثبت صدقه أساطين التاريخ مثل ياهين وهنجسبرج وسايس وأنولد وكوبر ، فقد أجمعوا على أن صدور أمر ارتحشستا لتجديد أورشليم كان سنة ٤٥٥ ق.م ، وبذلك يكون الباقي بعد خصم هذا التاريخ من ٦٩ أسبوع السنين (أي الـ ٤٨٣ سنة) هو ما يعادل ٢٨ سنة بعد الميلاد بالنسبة إلى تاريخ روما . وبعد إضافة سنة الفرق بين التاريخ القديم والحديث (الذي رأى العلماء وجوب إضافته لضبط التواريخ) يكون الناتج ٢٩ سنة ميلادية ، وهذه هي السنة التي صُلب المسيح فيها . لأن المؤرخين القدامى قدّروا تاريخ ميلاد المسيح بما اكتشف فيما بعد أنه يوافق سنة ٤ ق.م ، وذلك عندما قورن بتاريخ روما الذي كان يسود العالم وقتئذ . وبإضافة ٢٩ إلى ٤ يكون الناتج ٣٣ ، وهذا هو السن الذي صلب فيه المسيح .

— ٢ —

أدلة عقلانية على موت المسيح كفارة

١ — قبول المسيح للموت بإرادته : كان في وسع المسيح ان يتجنَّب الصلب (لو شاء أن يتجنّبه) ، وذلك إما بالعودة إلى السماء التي أتى منها ، وهذه كانت ترحب به في أي وقت أراد ، إذ أنها ملكه وتحت سلطانه ، وكان قد غادرها بإرادته ، فكان له أن يعود اليها بإرادته أيضاً (يوحنا ١٦ : ٢٨) . أو باستحضار جيش من الملائكة لكي يقضي على اليهود جميعاً في لحظة من الزمان (متى ٢٦ : ٥٣) . أو بالابتعاد عنهم بوسيلة من الوسائل كما فعل أكثر من مرة في أوائل خدمته بينهم (لوقا ٤ : ٣٠ ، يوحنا ٨ : ٥٩) ، حينما علم أن ساعة انتقاله من العالم لم تكن قد جاءت بعد (يوحنا ٧ : ٦) . أو بالكف عن توبيخ رؤساء الكهنة لأن هذا هو الذي أثارهم ضده ودفعهم إلى قتله.

لكن إذا رجعنا إلى تاريخ المسيح نرى (أولاً) أن تلاميذه حاولوا أن يمنعوه من الذهاب إلى أورشليم خوفاً عليه من عدوان اليهود وبطشهم (يو ١١ : ٨ — ١٠) ، ومع ذلك ثبت وجهه للذهاب إليها (لو ٩ : ٥١) . (ثانياً) أن الجنود الذين أتوا للقبض عليه سقطوا على وجوههم أمام هيبته ، ومع ذلك لم يستثمر هذا الظرف ليسيطر عليهم ويضمهم تحت لوائه ، بل سلم نفسه بإرادته إليهم (يو ١٨ : ٦) . (ثالثاً) أن التلاميذ لم يكونوا عزلا بل كان معهم سيفان ، ومن المحتمل أيضاً أنه كان معهم عدد من السكاكين التي كانوا يستعملونها وقتئذ في ذبح خراف الفصح كعادتهم ، ومع ذلك لم يسمح المسيح لهم باستعمال أي وسيلة من وسائل الدفاع . إذ عندما رفع بطرس سيفه وهوى به على احد اتباع كهنة اليهود ، قال المسيح له : « اجعل سيفك في الغمد » (يوحنا ١٨ : ١١) . (رابعاً) أن هيرودس الملك الذي أسندت إليه محاكمة المسيح في فترة ما ، فرح عندما رآه وطلب منه أن يعمل معجزة أمامه ، ولو كان المسيح قد أجابه إلى طلبه ، لكان هيرودس قد أطلق سراحه وصانه من أعدائه . ولكن المسيح أبَى أن يجيبه على الاطلاق (لوقا ٢٣ : ٨ و٩) . (خامساً) أخيراً نقول إن بيلاطس الوالي الذي تولى محاكمة المسيح في أول الأمر وآخره ، أفسح له المجال للدفاع عن نفسه لكي يبرىء ساحته ، ومع ذلك لم يجبه المسيح بكلمة حتى تعجب هذا الوالي جداً (متى ٢٧ : ١٢ — ١٤) — وكل موقف من هذه المواقف يدل على أن المسيح كان قد عقد النية وقتئذ على أن يقدّم نفسه للصلب ، وطبعاً لم يكن هناك داع لذلك ، لولا أنه قصد أن يكون كفارة كما ذكرنا .

٢ ــ موافقة الله على صلب المسيح : لو لم يكن موت المسيح موتاً كفارياً لكان الله قد أسرع بإنقاذه ، لأنه الشخص الوحيد الذي عاش على الأرض دون خطيئة ، وشخص مثله لا يجوز أن يقع تحت قضاء الموت ، إذ أن الموت هو فقط أجرة الخطيئة وعاقبتها . لكن المسيح وقف لكي يحاكم أمام أشر الناس ، ويُبصق على وجهه ويُلطم على خده ويُجلد على ظهره ، ثم يسمر بعد ذلك على صليب العار ، ويعلق بين اثنين من المجرمين ــ كل ذلك والسماء لم تحرك ساكناً : فلم تهلك الأشرار أو العتاة ، أو ترسل ملائكتها لإنقاذ المسيح من بين أيديهم . فهل فشل ناموس الله الأدبي في القيام بمهمته ؟ أم تغيّر تعالى في ذاته وصفاته ؟ أم ترك العالم وشأنه نهائياً تحت سلطان الشر والإثم ؟ طبعاً كلا وكلا ، لأن الله لا يتغير بأي حال من الأحوال ، ولا يترك العالم وشأنه إلى النهاية . كما أن ناموسه الأدبي لا يفشل في مهمته على الاطلاق . وإذا كان الأمر كذلك ، فلابد من التسليم بأن الله هو الذي سمح بصلب المسيح ، وأنه سمح بذلك لكي يكون المسيح كفارة عن خطايانا .

أما عن الاعتراض : فلماذا سمح الله إذاً بموت القديسين الأفاضل بأيدي الاثمة الأشرار ؟ فلا مجال له ، لأنه لو كان القديسون المذكورون قد نجوا من الموت ، لكانوا سيموتون مثل باقي الناس . ومن ثم كان الاشرف لهم أن يموتوا شهداء الحق ، من أن يموتوا موتاً عادياً .

وقد أعلن الوحي بعبارات صريحة أن موت المسيح ، وإن كان بحسب الظاهر بإرادة اليهود ، غير أنه كان في حقيقة الأمر بإرادة الله . فقد قال بطرس الرسول لليهود عن المسيح بعد صعوده إلى السماء « هذا أخذتموه **مسلّما بمشورة الله المحتومة** وعلمه السابق ، وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه » (أعمال ٢ : ٢٣) . كما خاطب هو وباقي الرسل المولى قائلين معاً له : « لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته ، هيرودس وبيلاطس البنطي مع أمم وشعوب إسرائيل ليفعلوا كل ما سبقَت **فعينَت يدك ومشورتك** أن يكون » (أعمال ٤ : ٢٧ و٢٨) ، الأمر الذي يدل على أن الله قصد بموت المسيح أن يكون كفارة عنا كما ذكرنا .

٣ ــ حزن المسيح قبل الصليب : إذا رجعنا إلى التاريخ نرى أن القديسين الشهداء كانوا يقابلون الصلب والطرح في النيران بالفرح والابتهاج ، ونظراً لأن المسيح فضلاً عن كونه أعظم منهم شجاعة واحتمالاً بدرجة لا حد لها بسبب قداسته المطلقة ، هو الذي قدم نفسه للصلب بمحض إرادته كما اتضح لنا مما سلف ، لذلك لابد أن يكون بحسب

تقديراتنا البشرية قد قابل آلامه بفرح وابتهاج أعظم منهم جميعاً . لكن إذا تطلعنا إلى المسيح قبل نزول هذه الآلام به نراه في حالة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي كنا نتوقع أن نراه عليها ، إذ أنه كان يحزن ويكتئب ويقول لتلاميذه : « نفسي حزينة جداً حتى الموت » ، كما كان يصلي بلجاجة جعلت عرقه يتساقط كقطرات الدم ، نتيجة الجهاد النفسي العنيف .

وهنا يتساءل العقل : لماذا حزن المسيح هذا الحزن المفرط ؟

الجواب : طبعاً لأن آلام الصلب التي كان ينتظرها ، لابد كانت أقسى بدرجة لا حدّ لها من آلام الصلب العادية التي كان يحتملها القديسون الشهداء . أو بتعبير آخر لابد أن هذه الآلام كانت آلام الكفارة التي نستحقها إلى الأبد بسبب خطايانا ، لأن هذه الآلام لا نهاية لهولها . ومن ثم فإنه له المجد لم يحزن بسبب خطيئة ارتكبها ، بل بسبب الخطايا التي ارتكبناها نحن جميعاً .

٤ ــ انتشار الظلام على الأرض : عندما كان المسيح معلقاً على الصليب غطى الظلام وجه الأرض ، واستمر هذا الظلام ثلاث ساعات متتالية ، من الساعة السادسة من النهار إلى الساعة التاسعة منه . وكان هذا الظلام نتيجة لهبوط سحابة كثيفة سوداء ــ والسحابة كما يتضح من الكتاب المقدس رمز لحضور الله وتداخله في شئون البشر (عدد ١١ : ٢٥) ، واللون الأسود كما نعلم رمز إلى الأسى العميق أو الغضب المريع . وليس هناك شيء يدعو إلى الأسى العميق سوى الخطيئة ، وليس هناك شيء يدعو الله لإظهار الغضب المريع سواها . ومن ثم فالمسيح ولا شك كان يحمل وقتئذ خطايا البشرية ، أو بعبارة أخرى كان يكفر عنها .

هذا الظلام لم يكن نتيجة كسوف للشمس (كما يقال) ، إذ أن المسيح صلب في اليوم الرابع عشر من الشهر القمري ، وفي هذا الوقت لا يحدث كسوف على الاطلاق ، فضلاً عن ذلك فإن أطول كسوف كلي للشمس لا يستمر إلا بضع دقائق ، كما أنه لا يحدث إلا بالتدريج . أما الظلمة التي حدثت عند صلب المسيح ، فقد بدأت دفعة واحدة ، وظلت ثلاث ساعات متتالية ، انقشعت بعدها دفعة واحدة أيضاً .

وقد أشار إلى هذا الظلام كثير من القدامى فقال فليفون الفلكي في القرن الثاني « إن الظلام الذي حدث عند صلب المسيح لم يحدث في الكون مثله من قبل » ، وقال ديونسيوس الأريوباغي ، عندما شاهد هذا الظلام : « إما أن إله الطبيعة يتألم الآن ، أو

أنه يرثي لشخص يتألم » (الخريدة النفيسة جـ ١ ص ١١٤) . وقد أشار إلى الظلام المذكور أيضاً ثلس المؤرخ الوثني وترتوليانوس الفيلسوف المسيحي في القرن الثاني ، كما أشار إليه الامام الحافظ المؤرخ الاسلامي في القرن الرابع عشر في كتابه (البداية والنهاية جـ ١ ص ١٨٢) .

٥ ــ تَرْك الله للمسيح : في الثلاث الساعات الأولى لصلب المسيح ، تحدّث له المجد في أمور شتى ، فطلب الغفران لصالبيه ، ووعد اللص التائب بالفردوس ، واستودع أمه لرعاية تلميذه يوحنا لكي يعتني بها . لكن عندما أرخى الظلام سدوله في الساعات الثلاث التالية ، لاذ بصمت رهيب ، ثم صرخ (بوصفه ابن الإنسان) قائلاً : « إلهي إلهي ، لماذا تركتني !؟ » ــ وهنا يتساءل العقل :

(ا) هل يترك الله أصفياءه في أوقات الضيق والشدة ؟ (الجواب) طبعاً كلا ، بل ينقذهم وينجيهم ، وذلك بناء على وعده الصادق : « ادعني في يوم الضيق أنقذك فتمجدني » (مزمور ٥٠ : ١٥) واذا شاء تعالى أن يموتوا شهداء الحق ، فانه يدنو منهم بصفة خاصة ويساعدهم على احتمال آلام الاستشهاد ، فيجوزون فيها بفرح وابتهاج كما حدث ويحدث مع القديسين الشهداء . لكنه تعالى لم يعامل المسيح (بوصفه ابن الانسان) حتى بهذه المعاملة المألوفة ، بل تركه وحده ، مع أن المسيح لم يكن في وقت ما (إن جازت المقارنة) اكثر سمواً لدى الله من الوقت الذي كان معلّقاً فيه على الصليب ، لأن هناك أظهر المسيح الطاعة الكاملة لارادة الله والاخلاص المطلق له . ولذلك ما كان ليتركه لولا أن موته كان موتاً كفارياً .

(ب) وهل يقتضي الأمر أن يترك الله المسيح ، إذا كان موته موتاً كفارياً ؟ (الجواب) طبعاً نعم . لأنه بما أن الله لقداسته لا يتوافق مع الخطيئة أينما وُجدت ، وبما أن المسيح رضي أن يضع على نفسه خطايانا ، كما لو كانت خطاياه الشخصية ، كان من البديهي أن يقف من الله موقفنا منه ، فيشعر بشرّ الخطيئة وشناعتها ، ويقاسي الآلام التي تتناسب معها ، ومن بين هذه الآلام أن يُحرم بصفته الانسانية من التمتع به تعالى . ولذلك فمع بقاء المسيح في مركزه الذاتي ، وهو الكامل الذي لا ينفصل عن الله على الاطلاق ، أصبح كابن الانسان في مركزه النيابي على الصليب في الساعات الثلاث المذكورة ، كما لو كان هو كل البشر حاملين خطاياهم وشرورهم ، ومحتملين في نفوسهم العذاب المريع الذي يستحقونه بسببها . وطبعاً لم يكن لكائن سوى المسيح أن ينوب عنهم في هذه الحالة المريرة ، وذلك للأسباب التي ذكرناها في الباب السابق .

(جـ) ألا يدل ترك الله للمسيح على أن لاهوت المسيح فارق ناسوته بضع ساعات ؟
(الجواب) كلا ، لأن اللاهوت واحد ووحيد ولا يتجزأ أو يتفكك على الاطلاق ، وذلك لعدم وجود أي تركيب فيه . ومن ثم فانه جوهر الآب والابن والروح القدس معاً من الأزل إلى الأبد .

وإذا كان الأمر كذلك ، أدركنا أن ترك الله للمسيح وقتئذ لا يُراد به إلا أن الله جعل المسيح (بوصفه ابن الانسان النائب عن الخطاة) يحتمل في ساعات الظلام الرهيب كلَّ دينونة العدالة الالهية عن خطايا البشر جميعاً ، دون أن يقدم له أية معونة تخفف من وطأتها على نفسه ، حتى يكون تكفيره عنهم تكفيراً قانونياً يتفق مع عدالة الله المطلقة كل الاتفاق . ومن ثم فقول المسيح : « إلهي إلهي لماذا تركتني » ليس اعتراضاً أو استفهاماً (لأن المسيح لم يكن يعترض على معاملة الله أو يجهلها) ، بل هو تعبير عن الآلام الكفارية التي كان المسيح يجتاز فيها ، والتي كانت قد بلغت وقتئذ أقصاها ، حتى تملكه الاحساس وكأنه وحيد فريد أمام شر الخطيئة وعذابها الأليم .

(د) ألا يدل صراخ المسيح هذا ، على أنه كان على الصليب مقهوراً ومغلوباً على أمره ؟
(الجواب) كلا ، لأنه له المجد لا يُقهر ولا يُغلب على أمره ، بل يدل على ثقته (بوصفه ابن الانسان) في الله كل الثقة ، على الرغم من الظروف القاسية التي كان يجتاز فيها ، لأنه لولا ذلك لما صرخ إليه على الاطلاق . كما يدل على كماله الذاتي لأن البشر العاديين إذا اجتازوا في الآلام ، لا يستطيعون أن يقولوا لله « لماذا تركتنا ؟ » لأنهم بسبب خطاياهم يستحقون أن يُتركوا منه .

ومع كل فإن هذا الترك وإن كان حقيقياً ، وقد أحس المسيح به فعلاً لأنه وضع نفسه موضع الخطاة ، غير أنه لم يكن إلا إلى حين فحسب ، لأن القول : « لماذا تركتني ؟ » تعبير عن اختبار حدث على الصليب في فترة ثم مضى وانتهى . كما أن قوله بعد ذلك : « يا أبتاه في يديك استودع روحي » (لوقا ٢٣ : ٤٦) دليل على أن صلته (حتى بوصفه ابن الانسان) بالله لم تنقطع ، وكل ما في الأمر أنه بعد معاناته لكل آلام الصلب القاسية ، عاد وأراح نفسه (كابن الانسان) بين يدي الله في المجد بعمل الكفارة الى التمام .

أخيراً نقول : إن المسيح وإن كان قد قاسى على الصليب آلاماً لا نستطيع الاحاطة بها ، غير أنه كان في الباطن مسروراً ومبتهجاً بتحملها نيابة عنا . فلسان حاله بوصفه

ابن الإنسان ، كان وقتئذ ، كما في كل وقت آخر « أن أفعل مشيئتك يا إلهي سُررت » (مزمور ٤٠ : ٨) . ولا عجب في ذلك ، فالمزمور الذي أشار إلى قول المسيح : « إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ » ليس مزمور اليأس والفشل ، بل مزمور اليقين والأمر ، لأنه ينتهي بالقول : « أخبر باسمك اخوتي . في وسط الجماعة اسبحك » (مزمور ٢٢ : ٢٢) الأمر الذي يدل على أن المسيح عندما كان معلقاً على الصليب كان واثقاً أنه سيقوم من بين الأموات ، وأنه سيعلن نعمة الله وخلاصه للمؤمنين الحقيقيين ، ثم يقودهم بعد ذلك للحمد والتسبيح لله لأجلهما .

٦ ـــ موته السريع : بعد ست ساعات من صلب المسيح ، أتى الجند وكسروا سيقان اللصين اللذين كانا مصلوبين معه ، لكي يموتا وتدفن جثتهما قبل الغروب كما جرت العادة عند اليهود . إذ كان اليوم التالي للصلب يوم سبت ، وهذا اليوم يوم مقدس لديهم يجب أن لاتبقى فيه الأجساد معلقة على الصليب . ولكن لما أتوا إلى المسيح لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات (يوحنا ١٩ : ٣٣) . ومن القرائن الخاصة بهذا الموضوع يتضح لنا أنه مات بسرعة لم تكن منتظرة على الاطلاق ، حتى أن الوالي الذي حكم عليه بالصلب عندما بلغه هذا الخبر ، لم يصدقه إلا بعدما سمعه من فم قائد المائة الذي كان ملازماً للصليب (مرقس ١٥ : ٤٤ ، ٤٥) .

إن عدم كسر ساقي المسيح لم يكن أمراً قضت به الظروف وقتئذ فحسب ، بل كان أمراً معيناً بواسطة الله منذ الأزل . وقد أشار تعالى إليه قبل صَلْب المسيح بأكثر من ١٥٠٠ سنة في رمز قديم . فقال لموسى النبي أن ينهى بني إسرائيل عن كسر عظام خروف الفصح (خروج ١٢ : ٤٦) ، الذي كان رمزاً إلى كفارة المسيح التي على أساسها تعبر الدينونة الأبدية عن المؤمنين الحقيقيين ، كما عبر سيف الهلاك قديماً عن أبكار بني إسرائيل على أساس دم الخروف المذكور . فقد قال الرسول : « لأن المسيح **فصحنا** قد ذُبح لأجلنا . إذاً لنعيّد ، ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث ، بل بفطير الإخلاص والحق » (١كورنثوس ٥ : ٧ ، ٨) ، أو بالحري نعيّد بحياة طاهرة نقية لا أثر للشر فيها ، إذ أن الخميرة ، كما يتضح من الكتاب المقدس ، رمز إلى الشر الدفين في النفس .

فلماذا مات المسيح بهذه السرعة ، وقد كان بسبب نقاوته وطهارته أقوى الناس بنية وأمتنهم أعصاباً وأقدرهم على مقاومة الآلام ؟

(الجواب) إذا وضعنا أمامنا أن المصلوب يموت (كما يقول الأطباء) موتاً بطيئاً في مدة تتروح بين ٢٤ و٢٨ ساعة « بالصدمة الثانوية Secondary shock » ، متأثراً إما

بالاجهاد العصبي والتهاب الجروح ونزف الدماء ، أو بتعطل الدورة الدموية واضطراب القلب ، اتضح لنا أن موت المسيح بعد ٦ ساعات (أي قبل الوقت الذي يُنتظر أن يموت فيه أضعف شخص يعلق على الصليب بـ ١٨ ساعة) ، لايعلل طبيعياً إلا بأن الآلام التي كان يجتاز فيها وقتئذ ، لم تكن الآلام الجسدية الظاهرية فحسب ، بل لابد أنه كانت مع هذه الآلام ، آلام أخرى . وهذه الآلام لا يمكن أن تكون سوى آلام الكفارة التي كان يتقبلها في نفسه عوضاً عنا ، لأنه لا نهاية لهول هذه الآلام أو شدتها كما ذكرنا ، ومن ثم كانت كافية بالطبيعة للقضاء على حياة المسيح الجسدية في وقت وجيز .

ولذلك ذهب الأطباء إلى أنه طرأ على المسيح عندما كان معلّقاً على الصليب ، ما يسمى فسيولوجياً « ارتشاح فجائي في القلب » ، ويُسمى لدى العامة « كسر القلب » وقد سبق الوحي وأشار إلى هذه الحقيقة ، فقال النبي عن لسان المسيح : « العار قد كسر قلبي » (مزمور ٦٩ : ٢٠) وهذا العار لم يكن طبعاً عاراً لحق بالمسيح بسبب شرّ فعله . فقد كان كاملاً كل الكمال ، بل كانت الخطيئة التي تردَّينا نحن فيها ، والذي رضي المسيح أن يحمله على نفسه نيابة عنا على الصليب .

أما قول بعض المفسرين [إن المسيح مات بسرعة بسبب جهاده في الليلة السابقة للصلب ، وجلد الجنود له بعد القبض عليه] ، فليس بصواب . لأنه وإن كان هذان الأمران يسببان الاعياء ، لكن صراخ المسيح بصوت عظيم عندما كان معلقاً على الصليب (متى ٢٧ : ٤٦) ، يدل على أنه كان وقتئذ في كامل القوة والحيوية على الرغم مما أصابه من أذى . ومن ثم فإن موته السريع كان راجعاً إلى تحمله آلام الكفارة القاسية كما ذكرنا — ومن هذا يتضح أن المسيح لم يمت كباقي الشهداء بسبب الصلب ، لأن الموت لم يكن له سلطان عليه إطلاقاً ، بل مات له المجد باختياره نيابة عنا ، بسبب قيامه بالتكفير عن خطايانا .

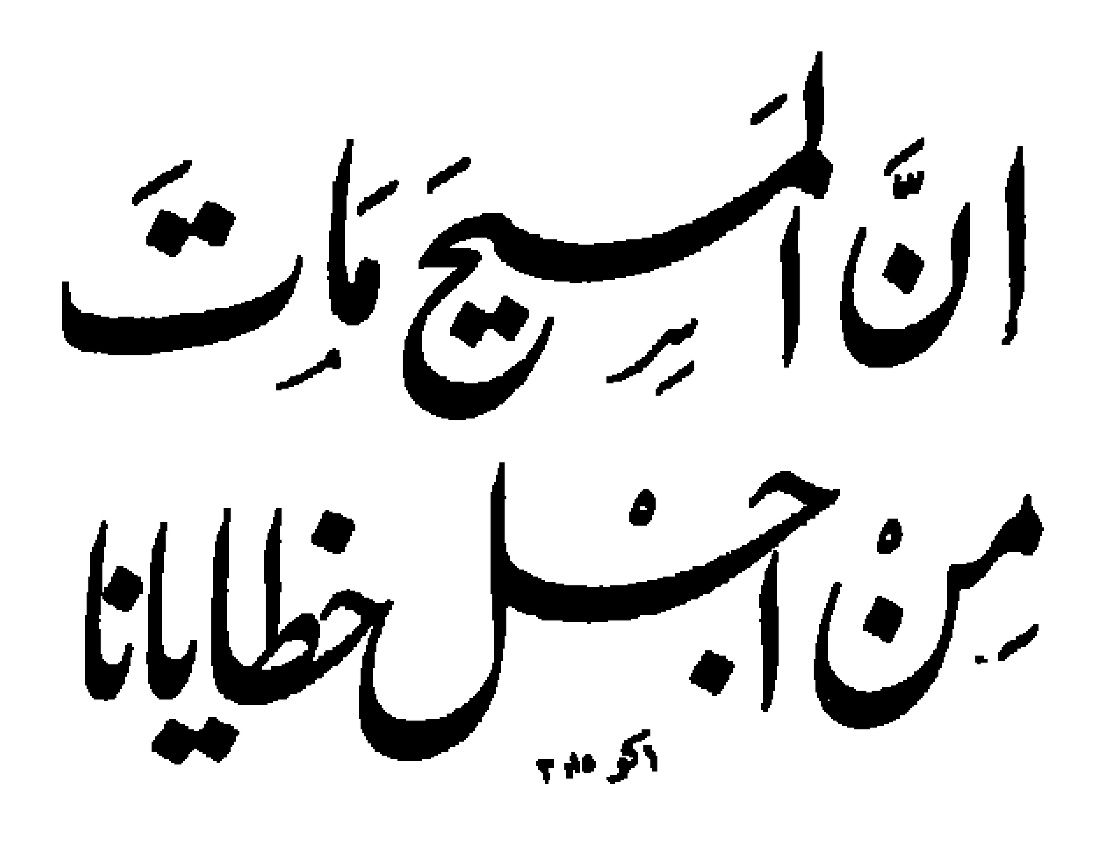
٧ — تزلزل الأرض وتشقق الصخور : ذكرنا فيما سلف ، أن الظلام الذي خيم على الأرض عند صلب المسيح لم يكن طبيعياً ، ونذكر الآن أن الزلزلة التي حدثت وقتئذ لم تكن طبيعية أيضاً . لأن أورشليم بعيدة كل البعد عن مواطن الزلازل التي تشقق الصخور ، إذ أن القشرة الأرضية (كما يقول علماء الجغرافيا) قد استقرت فيها ، وفي الشرق الأوسط عامة قبل الميلاد بآلاف السنين . وأن ما يحدث الآن من زلازل فيها أحياناً ، يكون آتياً إليها من جهات بعيدة ، ومن ثم لا يؤثر عليها تأثيراً يُذكر . والزلازل

عندما تحدث بخلاف النواميس الطبيعية تكون من علامات الدينونة الإلهية الرهيبة (متى ٢٤ : ٧ ، رؤيا ٨ : ٥) ، وهذه الدينونة كانت قد حقّقت وقتئذ على اليهود والرومان لأن شرهم كان قد بلغ أقصاه ، إذ أساءوا إلى مصدر النعم والاحسان ، واظهروا له العدوان (يوحنا ١٢ : ٣١) . ولكن لماذا لم تنصب الدينونة عليهم وقتئذ ؟ .

(الجواب) طبعاً لأن المسيح لابد أنه قد حمله في نفسه عوضاً عنهم وعن البشرية التي كانوا يمثلونها في الميل إلى الشر والانحراف عن الحق ، ومن ثم لا يكون موت المسيح استشهاداً فحسب ، بل وكفارة أيضاً كما ذكرنا .

ولنا في الطريقة التي نجا بها آدم من الموت ، ما يرمز إلى هذه الحقيقة ، فان قضاء الموت كان من الواجب أن يحل عليه وعلى زوجته عندما أخطأ، وذلك بناء على انذار الله السابق لهما . لكن هذا القضاء لم يحل عليهما وقتئذ، لأن الله سمح بحلوله على الفدية التي سمح بها لأجلهما كما ذكرنا في الباب الثالث .

لقد أنبأ الوحي الإلهي الصادق عن حدوث الظلمة والزلزلة . (ا) إن هاتين الحادثتين تردان في الانجيل بكل اختصار بعيداً كل البعد عن المبالغة التي يلجأ إليها مؤلفو الروايات (ب) إن الخبر بحدوثهما نُشر بين الناس الذين عاصروا المسيح دون أن يعترض عليه واحد منهم (جـ) إن اليهود الذين كانوا بجوار الصليب قرعوا على صدورهم نادمين (لوقا ٢٣ : ٤٨) كما أن قائد المئة الروماني شهد أن المصلوب كان بالحقيقة هو ابن الله ، الأمر الذي يدل على أن هاتين الحادثتين قد وقعتا فعلاً على مرأى منهم جميعاً ، وأنهم تأثروا بهما تأثراً بالغاً .



ــ ٣ ــ
آلام الاستشهاد وآلام الكفارة

ذكرنا فيما سلف أن المسيح احتمل على الصليب نوعين من الآلام ، هما آلام الاستشهاد وآلام الكفارة . ونظراً لأن كثيرين يعتبرون الاثنين آلاماً واحدة ، رأينا من الواجب أن نتحدث فيما يلي عن كل منهما على حدة :

أولا ــ آلام الاستشهاد

إن آلام الاستشهاد التي قاساها المسيح ، لم تكن تشمل آلاماً جسدية فحسب ، بل وآلاماً نفسية أيضاً ، كما يتضح مما يلي :

١ ــ **الآلام الجسدية** : (ا) ففي دار حنان طفحت روح البغضة والقسوة في أحد الخدام ، فصفع المسيح بكل ما لديه من قوة . وفي بيت قيافا انقضّ عليه الخدام وجنود الهيكل وافرغوا كل ما في جعبتهم من حقد ضده ، فلكمه البعض ، ولطمه البعض الآخر ، وضربه بالعصي بعض غيرهم .

(ب) وفي دار الولاية انتهز جند الرومان وجود شخص يهودي بين أيديهم قال إنه ملك ، فخلعوا عنه ثيابه وقيدوا يديه بالأغلال . ثم أحنوا ظهره وربطوه إلى أحد الأعمدة ، وطفقوا يجلدونه بكل قواهم . وكانت آلة الجلد تتكون وقتئذ من تسعة سيور ، في كل منها سبع قطع من المعادن غير المصقولة . وكان الضرب بها يقع على الظهر ، وأحياناً على الرأس أو الوجه ، فكان اللحم يتناثر وتغوص قطع المعادن في الجروح ، فيتدفق الدم بغزارة منها ، كما كانت تتقطع الأعصاب وتصاب العظام بخدوش متعددة . لذلك كان المسيح يتألم ولاشك آلاماً مبرحة . ولو كان إنساناً عادياً لكان قد مات وقتئذ ، كما كان يموت كثير من البشر . وبعد ذلك وضعوا إكليلاً من الشوك على رأس المسيح وضربوه بالقصبة عليها ، فانغرس الشوك فيها وتفجرت الدماء منها ، وأخذت تسيل على وجهه من نواح متعددة .

(جـ) وأخيراً طرحوه على الصليب المعدّ له ، ثم شدوا يديه بكل عنف على عارضتيه ، ودقوا في كل منهما مسماراً غليظاً بمطرقتهم ، وكأن المسيح قُدّ من صخر لا يشعر أو يحس . فراح المسماران يخترقان الجلد واللحم والعروق والأعصاب والعظام ، حتى نفذا في عارضتي الصليب وتمكنا فيهما . ثم وضعوا إحدى قدميه على الأخرى ، وبمسمار أطول من المسمارين السابقين سمروهما معاً حتى نفد المسمار في قائم الصليب

وتمكن فيه أيضاً . ثم رفعوا الصليب واسقطوه في حفرة ليثبتوه فيها ، فاضطربت أعصاب المسيح اضطراباً عظيماً . وهناك تركوه تحت حرارة الشمس اللافحة حتى يبست مثل شقفة قوته ولصق لسانه بحنكه ، واستبد به العطش (مزمور ٢٢ : ١٥) .

فالصليب كما قال شيشرون « هو أخس وأقسى العقوبات ، وكان لا ينفذ إلا في أشر المجرمين وألد الأعداء ، ولذلك لكي تطول مدة عذابهم . لذلك كان كل من يُصلب من البشر يتمنى الموت بأقصى سرعة ، لكن هيهات أن تتحقق أمنيته . ومن ثم كان يرزح تحت آلامه المبرحة يوماً أو أكثر من يوم ، حتى يقبل إليه الموت وينقذه » . وكان اليهود يريدون أن يكون هذا هو الحال مع المسيح ، لكن خاب أملهم ، فقد مات بعد سويعات قليلة من صلبه للأسباب السابق ذكرها .

٢ — **الآلام النفسية** : (ا) فقد خانه يهوذا الاسخريوطي على الرغم من أن المسيح كان يودع لديه كل ما يرد إليه من مال ، فضلاً عن ذلك كان قد سمح له منذ ساعات قليلة بالأكل معه في صحفة واحدة . وأنكره بطرس مقدام التلاميذ على الرغم من أن المسيح كان قد خصه بامتيازات متعددة وأسدى إليه وإلى عائلته معروفاً عظيماً . ولم يقف بطرس عند حد الانكار ، بل أخذ يلعن ويحلف أنه لا يعرف المسيح . أما باقي التلاميذ فتركوه وهربوا على الرغم من أنهم أحب الناس إليه وأقربهم إلى قلبه ، وكان قد قضى حياته بأسرها في تعليمهم وإرشادهم والعناية بهم .

(ب) وفي جثسيماني أقبل اليهود عليه بسيوف وعصي كأنه لص يسطو على البيوت أو مجرم يفتك بالناس . ثم أوثقوه كما يُوثَق العبيد والمجرمون ، وفي عنف ساقوه إلى حنّان ثم إلى قيافا ، وأخذوا يبصقون عليه كأنه أحقر الناس وأدنأهم . وفي سخرية لاذعة كانوا يغطون وجهه الكريم ، ثم يضربونه ويقولون له : « تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك ؟! » .

وبعد أن استقر رأيهم على صلبه ، ساقوه وسط مظاهر الهزء والتهكم إلى بيلاطس ووقفوا يشتكون عليه ويكيلون له التهم وراء التهم ، وقد نسوا أو تناسوا أنهم نالوا أو نال ذووهم خيراً جزيلاً ، كما أنه كان في ذاته أطهر وأقدس من عاش على الأرض بأسرها .

(جـ) وعندما وقف أمام هيرودس استهزأ الجنود به وسخروا منه ، كما ألبسوه لباساً براقاً متهكمين عليه ومحتقرين إياه . ولما عادوا به إلى دار الولاية لكي يستأنف بيلاطس الوالي محاكمته ، فضّل رؤساء الكهنة (الذين كانوا يمسكون كتاب الله في أيديهم) باراباس السفاح على المسيح ، فطلبوا من بيلاطس إطلاق سراح الأول وصلب الثاني . فأذعن لهم وخضع لمشيئتهم خوفاً على وظيفته من الضياع ، مع أنه كان يجمع في يده كل السلطة في البلاد ، وكان قد أقيم لصيانة العدالة وحمايتها من عبث العابثين .

(د) وفي دار الولاية أخذه جند الرومان وجمعوا عليه الكتيبة بأسرها ، ثم أوثقوه في وسطهم واتخذوا منه ألعوبة (أو أضحوكة) لهم ، إذ أقاموا له حفلة تتويج هزلية خلعوا عنه فيها ثيابه العادية وألبسوه رداء قرمزياً (ربما كانت عباءة مهلهلة ألقاها أحد الكبراء عنه منذ زمن طويل ، فأخذها جندي منهم) ، ثم ضفروا إكليلاً من عوسج وشوك ووضعوه على رأسه بلطف أو عنف ، كما جعلوا قصبة في يمينه عوضاً عن الصولجان ، لكي يجعلوا منه صورة ممسوخة لأحد الملوك . ثم في استهزاء لاذع طفقوا يجثون قدامه قائلين « السلام يا ملك اليهود !! » . وأخيراً انتزعوا منه القصبة التي أعطوها له ، وضربوه بها على رأسه ضربة قاسية ، إمعاناً في إهانته .

(هـ) وعندما كان معلقاً على الصليب كان المجتازون يجدفون عليه ، وهم يهزّون رؤوسهم ويتطلعون إليه من أعلى إلى أسفل بكل ازدراء واحتقار قائلين له : « إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب » ، غير عالمين أنه قَبِل الصلب باختياره لكي يكفر عن خطاياهم وخطايا غيرهم من البشر . وان المعجزة التي أراد أن يقدمها للبشرية ليست النزول عن الصليب ، بل القيامة من بين الأموات بعد إتمام عمل الفداء ...

ولو فرضنا جدلاً أنه نزل عن الصليب كما طلبوا ، لما كانوا قد آمنوا انه ابن الله ، بل لقالوا إن به شيطاناً ، كما قالوا عنه عندما كان يعمل بعض معجزاته فيما سلف . لأن السبب الحقيقي في عدم إيمانهم لم يكن راجعاً إلى حاجتهم الى برهان على نبوة المسيح الفريدة لله . بل إلى عمى بصائرهم ، فكانوا يرون الحق باطلاً والباطل حقاً .

ولقد احتمل المسيح الآلام الجسدية والنفسية السابق ذكرها ، وكانت على نفسه أقسى مما نفتكر أو نتصور ، وذلك لسببين (الأول) أنه كان سليم البنية ، فلم يقترب إليه يوماً مرض يوجعه أو أذى يؤلمه ، فيتعلم الصبر والاحتمال . كما كان سليم النفس فلم يتبلّد مرة إحساسه أو تحجّرت عواطفه أو عرف للاهانة معنى أو للاذعان مذاقاً .

(الثاني) كان قد أحب الناس فقابلوا محبته بالبغضة والعداوة ، وأحسن إليهم فقابلوا احسانه بالتمرد والعصيان — وهو لكماله المطلق يؤلمه الجحود ونكران الجميل ، وتدميه الخسة والدناءة — ومع كل فهذه الآلام لم تكن كما ذكرنا ، إلا آلام الاستشهاد التي كان يحتملها الشهداء القديسون (وإن كانت بدرجات متفاوتة) بكل فرح وابتهاج . ولذلك ليس من المعقول أنها كانت السبب في الحزن العميق الذي بدا من المسيح في جثسيماني ، ولا في الصرخة الداوية التي انطلقت من فمه وهو معلق على الصليب .

ثانياً ــ آلام الكفارة

هي الآلام غير المنظورة التي احتملها المسيح في نفسه نيابة عن البشر بسبب خطاياهم ومعاصيهم ، فسيف العدالة الإلهية كان عتيداً أن يهوى عليهم جميعاً ، لكن المسيح قبله في نفسه نيابة عنهم رحمة بهم وشفقة عليهم . فتمت فيه النبوة التي قيلت عنه قبل ذلك بأكثر من خمسمائة سنة « استيقظ يا سيف على راعيّ ، وعلى رجل رفقتي . اضرب الراعي » (زكريا ١٣ : ٧) عوضاً عن الرعية التي تستحق الضرب والعقاب ــ وآلام الكفارة هذه لا قدرة لنا على الإحاطة بهولها أو قسوتها ، لكن لكي نعرف شيئاًعنها نتأمل في النقاط الآتية :

١ــ وجود المسيح في مركز الخطاة : إن المسيح بسبب نيابته عنا على الصليب ، اعتبر في نظر العدالة الإلهية كالأثيم ، فقد قال الوحي عنه « وأُحصي مع أثمة » (إشعياء ٥٣ : ١٢) ، كما اعتُبرت خطايانا بكل فحشها ودنسها كأنها خطاياه الشخصية . وقد رأى داود النبي هذه الحقيقة منذ القديم فقال بلسان المسيح : « حماقتي وذنوبي » (مزمور ٦٩ : ٥) ، مع أنه لم يرتكب خطيئة أو اقترف إثماً . وإذا كان أنبل إنسان في الوجود ، مع كونه خاطئاً بطبيعته ، يتألم ألماً شديداً عندما ينسب إليه إثم ارتكبه غيره ، فلا ريب أن المسيح كان يتألم في نفسه على الصليب آلاماً لا حد لها . لأنه وهو القدوس البار قد وضعت عليه كل آثامنا ، وأصبح بذلك ليس كمجرد أثيم ، بل كما لو كان هو كل الأثمة حاملين آثامهم ومعاصيهم معهم ، بل أصبح كما لو كان هو ذات الخطيئة التي أفسدت العالم بأسره وتعدت على حق الله وناموسه . وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال عن الله إنه « جعل الذي لم يعرف خطيئة (وهو المسيح) ، خطيئة لأجلنا ، لنصير نحن بر الله فيه » (٢ كورنثوس ٥ : ٢١) .

٢ ــ قبوله عار الخطيئة : ولوجود المسيح في مركز النائب عن الخطاة أخذ على نفسه عارهم أو بالحري عار خطاياهم ، وعار الخطيئة ليس بعده عار . فقد قال الوحي : « عار الشعوب الخطية » (أمثال ١٤ : ٣٤) . وقد أحس المسيح بهذا العار بدرجة لا نستطيع تصوُّرها ، لأن احساس القدوس البار بعار الخطيئة أدق بدرجة لا حد لها من إحساس الإنسان المولود بها والعائش فيها . وقد رأى داود النبي بروح النبوة العار الذي أحس به المسيح عندما كان معلّقاً على الصليب ، فقال عن لسانه قبل مجيئه إلى الأرض : « العار قد كسر قلبي فمرضت » (مزمور ٦٩ : ٢٠) ــ لأن هذا العار هو الذي حطم قلب المسيح المنطوي على أسمى العواطف وأقدسها ، وأحنى رأسه العالية المشبعة بأرقى المبادىء وأطهرها ، فاعتراه ، أو بالحري اعترت نفسه ،

المرض . ومرض النفس أشر مرض في الوجود ، لأنه أثقل الأمراض وأسرعها فتكاً بالإنسان .

٣ ــ احتماله عذاب الخطيئة : نظراً لأن الخطيئة لا تجلب على فاعلها العار فحسب بل والعذاب أيضاً ، لذلك كان من البديهي وقد قبل المسيح أن يكون نائباً عنا ، أن يحتمل عذاب الخطيئة أيضاً ، وعذاب الخطيئة ليس بعده عذاب ، فهو جهنم بآلامها النفسية ونيران العدالة الإلهية . وقد رأى داود النبي بروح النبوة تأثير هذا العذاب على نفس المسيح ، فقال عن لسانه قبل مجيئه إلى العالم « كالماء انسكبت . انفصلت كل عظامي . صار قلبي كالشمع . قد ذاب في وسط أمعائي . يبسَتْ مثل شقفة قوتي ولصق لساني بحنكي » (مزمور ٢٢ : ١٤ ــ ١٥) .

٤ ــ حلول لعنة الخطيئة عليه : والخطيئة لا تجلب العار والعذاب فقط ، بل واللعنة أيضاً ، فقد قال الوحي : « ملعون كل من لا يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به » (غلاطية ٣ : ١٠) ، ولذلك كان من الواجب أن يحمل الفادي ليس عار الخطيئة وعذابها فقط ، بل ولعنتها كذلك . فهل قبل المسيح لعنة الخطيئة مع الآلام التي قبلها عوضاً عنا ؟ إننا نجيب والدمع يترقرق في مآقينا ، والقلم يبطىء السير في أيدينا : « نعم » . فقد قال الوحي « المسيح افتدانا من لعنة الناموس ، إذ صار لعنة لأجلنا » (غلاطية ٣ :١٣) فهو تبارك اسمه بسبب قبوله خطايانا على نفسه حباً بنا وعطفاً علينا ، لم يحسب ملعوناً فقط ، بل ولعنة أيضاً ، وذلك لكي يرفع لعنة الخطيئة عنا ، ويجلب إلينا البركة عوضاً عنها .

هذا شيء من آلام الكفارة ، ونحن لا نستطيع أن نكتب عنها أكثر مما كتبنا . فليس سوى الله والمسيح يعرفان قدرها وشناعتها ، لأن الأول هو الذي يعرف مطالب عدالته التي لا حد لها ، والثاني هو الذي قام بإيفاء هذه المطالب في ناسوته إلى التمام . لكن مما لا شك فيه ، أنه لو كانت آلام الكفارة قد تحولت ناراً مادية والتهمت جسد المسيح التهاماً ، لكان ذلك أهون عليه كثيراً من تحمل الآلام المذكورة ، لأنها كانت تستعر في جسده ونفسه وروحه ، معذبة إياه وهي مبقية عليه ، طوال ساعات الظلمة التي اجتاز فيها على الصليب .

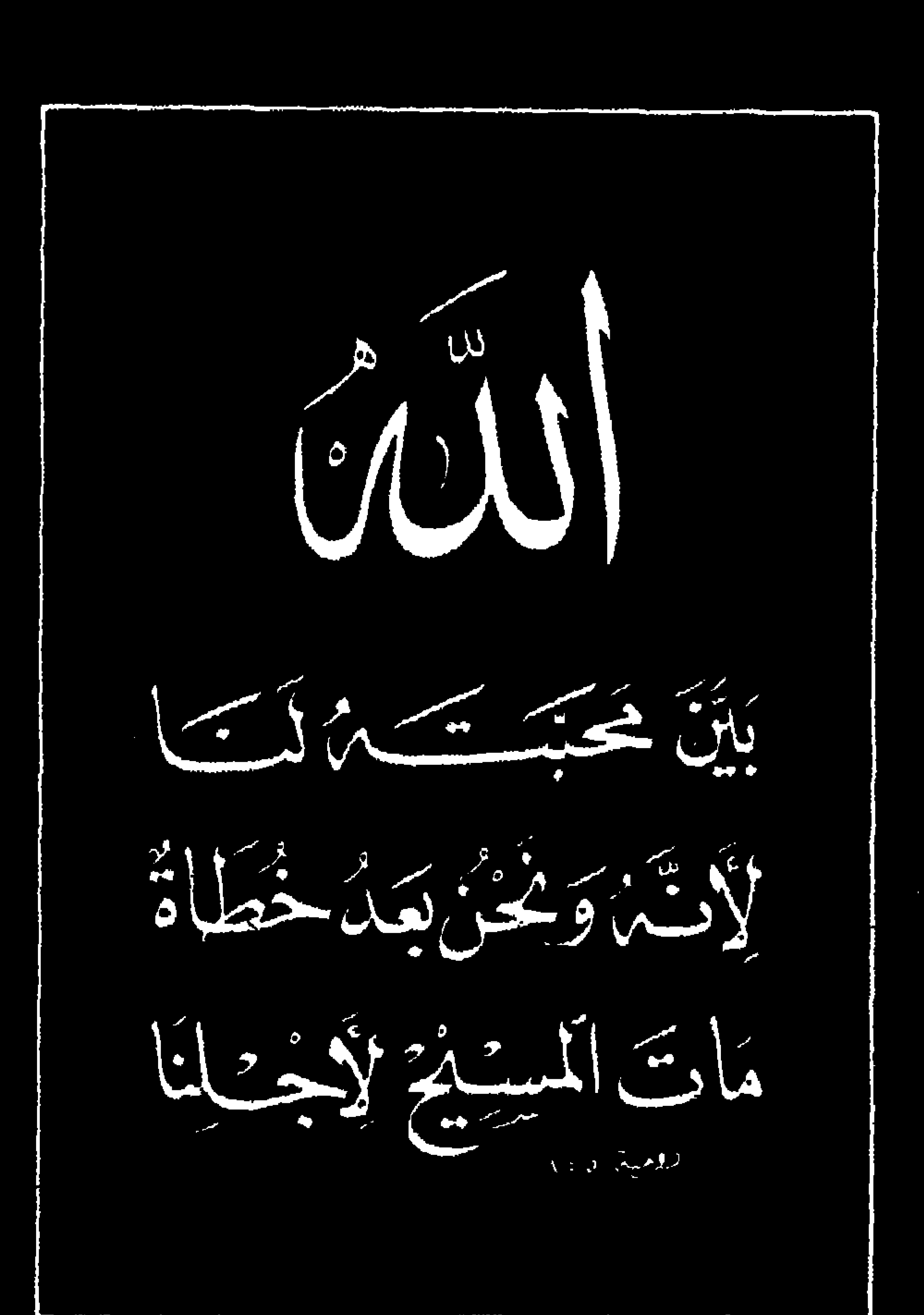
أخيراً نقول : إن الكفارة التي تحدثنا عنها كثيراً لم تكن عملاً آلياً خارجياً كان من الواجب إتمامه قبل أن يتمكن الله من الصفح عنا وتقريبنا إليه (كما يظن بعض الناس) ، بل إنه عمل صادر من نفس طبيعته تعالى . لذلك خشية أن يُساء فهم

معنى الكفارة نقول : « لولا تكفير الله بنفسه عن خطايانا في المسيح ، لما حصلنا على الخلاص » معناها : لولا أن الله يستطيع في محبة لا حد لها أن يحتمل خطايانا بكل دنسها وشناعتها ، ويرضى أن يقربنا إليه على الرغم من قصورنا الذاتي ، لما خلصنا على الاطلاق . لذلك فإن ظهوره لنا في المسيح للقيام بهاتين الخدمتين ، لم يكن عملاً خارجياً قام به ليتمكن من أداء أمر لا تقدر طبيعته أن تعمله ، بل بالعكس إنه عمل نابع من طبيعته نفسها .

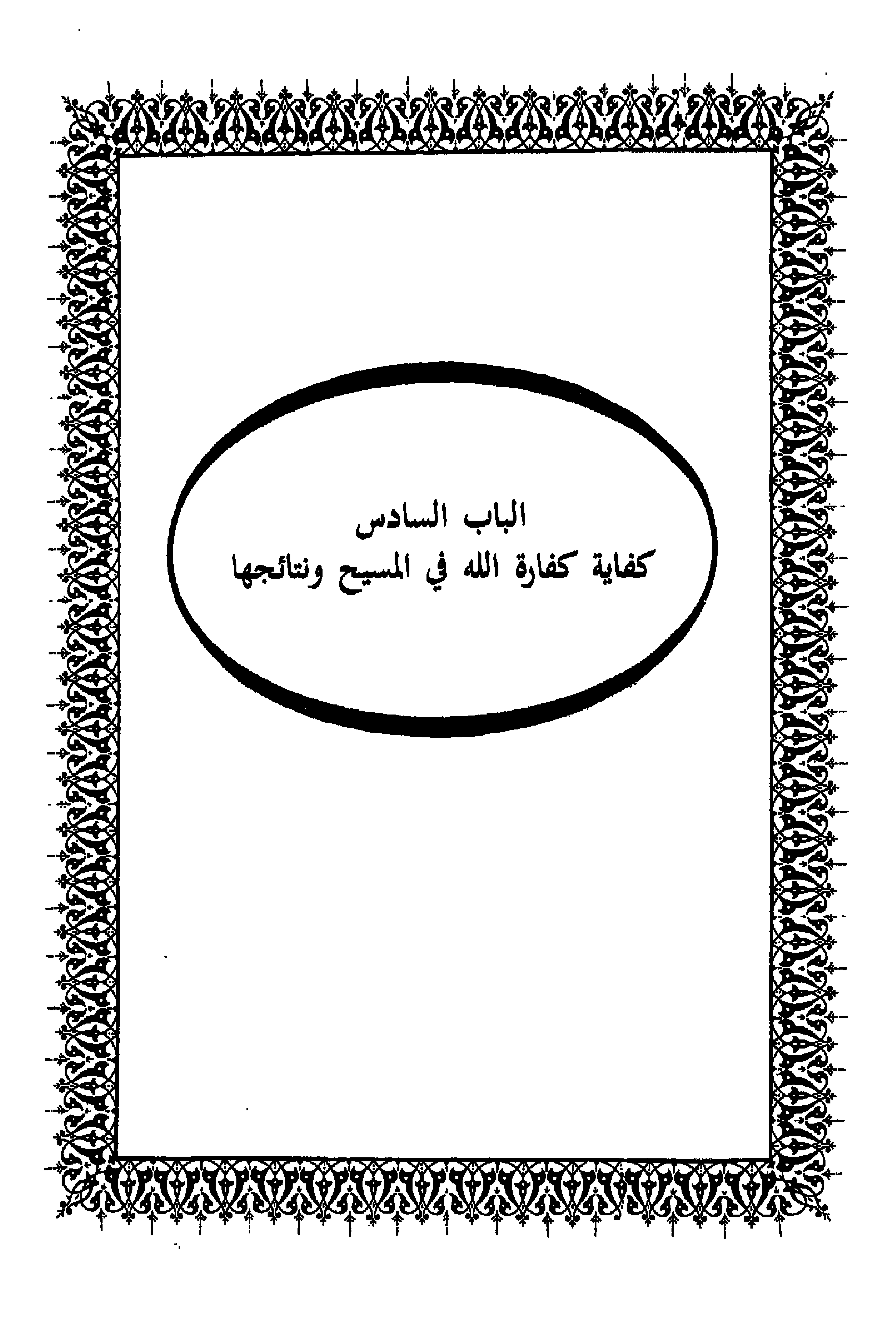
فالله بسبب محبته الشديدة للبشر ، لم يقض عليهم بسبب خطاياهم ، بل تأنى عليهم سنين عديدة . وعندما كان يطفح شر جماعة منهم ، كان يصيبها بطوفان أو نار أو وباء ، تأديباً لها حتى تتوب عن شرها . ولكن لما أتى الوقت المعيَّن منه تعالى ، وكانت نفوس المخلصين من البشر ، قد تاقت إلى الخلاص من الخطيئة ونتائجها ، ورأت عجزها التام عن الحصول عليه بكل قدراتها ، ظهر لنا في المسيح وقبل في نفسه كل شرورنا وآثامنا ، عوضاً عن أن يردها على رؤوسنا ويوقع علينا جميعاً الدينونة الأبدية بسببها . أما لو كان المسيح قد تجنب الصلب ، أو سمح لتلاميذه باستخدام السيف ، أو استدعى الملائكة للدفاع عنه ، وكل ذلك كان ميسوراً لديه كما ذكرنا ، لظلت خطايانا سائدة علينا رافعة عقيرتها متحدية محبة الله ورحمته . أما الآن فقد انتصرت محبة الله ورحمته على خطايانا انتصاراً تاماً ، ومن ثم صار لكل من يؤمن منا إيماناً حقيقياً ، امتياز الحصول على الصفح والغفران إلى أبد الآباد ، كما يتضح من الباب السابع .

فموت المسيح كفارة هو إذاً أكبر خدمة قام بها لأجلنا ، لأنه لو كان قد عاش لغاية الآن ، يعلم الناس ويطعم الجياع ويشفي المرضى ويقيم الموتى ، دون أن يكفر عن خطايانا ، لكانت هذه الخدمات مع سموها وفائدتها ، لا تخلصنا من دينونة خطايانا أو تؤهلنا للوجود مع الله والتوافق معه . فكنا نقضي حياتنا في شقاء أبدي .





الله
بيّن محبته لنا
لأنه ونحن بعد خطاة
مات المسيح لأجلنا



الباب السادس
كفاية كفارة الله في المسيح ونتائجها

— ١ —

كفاية كفارة الله في المسيح

بما أن الله هو الذي فدانا في المسيح ، لذلك لابد أن فداءه كاف لإيفاء مطالب عدالته وقداسته من نحونا ، وبالتالي لابد أنه كاف لخلاصنا من خطايانا ونتائجها الوخيمة . لكن نظراً لأهمية هذه الحقيقة ، نذكر فيما يلي بعض الأدلة التي تؤكد صدقها ، حتى تطمئن النفوس التي يساورها أي شك من جهته .

أولاً — شهادة المسيح ، والأدلة على صدقها

١ — شهادة المسيح (ا) قال المسيح قبل الفداء الذي قام به : « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له **الحياة الأبدية** » (يوحنا ٣ : ١٦) . وقال أيضاً : « الذي يؤمن بالابن **له حياة أبدية** . والذي لا يؤمن بالابن فلن يرى حياة (أبدية) . بل يمكث عليه غضب الله » (يوحنا ٣ : ٣٦) ، وأيضاً : « الحق الحق أقول لكم : من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني ، **فله حياة أبدية** ولا يأتي إلى دينونة (لأن الدينونة التي كان من الواجب أن تحل عليه ، حملها المسيح نيابة عنه) بل قد **انتقل من الموت إلى الحياة** » (يوحنا ٥ : ٢٤) — والتمتع بهذه الحياة على أساس الإيمان (أو بالحري الإيمان الحقيقي بالمسيح) ، دليل على كفاية كفارته .

(ب) وعندما كان المسيح على الصليب ، قال للص (الذي ندم على خطاياه ، ولجأ إلى نعمته مؤمناً بشخصه إيماناً حقيقياً) : « اليوم تكون معي في **الفردوس** » (لوقا ٢٣ : ٤٣) — ونظراً لأن هذا اللص كان يستحق العذاب الأبدي بسبب جرائمه ، وأن مجرد ندمه لارتكابها لم يكن ليؤهله للحصول على الغفران أو التمتع بالله كما ذكرنا في الباب الثاني ، لذلك فقول المسيح للص المذكور « اليوم تكون معي في الفردوس » ، دليل على أن كفارته (أي كفارة المسيح) كافية للخلاص من الخطايا ونتائجها .

(جـ) فضلاً عن ذلك فإن آخر عبارة قالها المسيح وهو على الصليب هي : « قد أُكمل » (يوحنا ١٩ : ٣٠) . وهناك فرق كبير بين الانتهاء من عمل وبين إكماله . فالانتهاء من عمل معناه الفراغ منه باتمامه أو عدم اتمامه . أما اكماله فمعناه إنجازه إلى التمام.لذلك فالمسيح بقوله « قد أُكمل » أعلن أنه لم ينتهِ من عمل الكفارة فحسب ،

بل وأكمله أيضاً بنجاح ، كما يتضح من اللغة الأصلية للكتاب المقدس .

٢ ـــ الأدلة على صدق شهادة المسيح : فضلاً عن أن أقوال المسيح مدونة بالوحي الإلهي ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في صدقها ، وفضلاً عن أن المسيح لم ينطق بها كلها في أوائل خدمته ، بل نطق ببعضها وهو على شفا الموت ، هذا الوقت الذي يترك المرء فيه كل إدعاء (إذا كان مدعياً) ويظهر على حقيقته تماماً ، نقول : بما أن شهادة المسيح عن موته الكفاري قد ثبت صدقها كما اتضح فيما سلف ، وبما أنه بالإضافة إلى ذلك كان بعيداً عن التفاخر والتباهي كل البعد ، إذاً لابد أن تكون شهادته عن كفاية كفارته لإيفاء مطالب عدالة الله وقداسته (أو بالحري عن كفايتها لخلاصنا من خطايانا ونتائجها) ، هي شهادة صادقة أيضاً .

ثانياً ـــ شهادة الرسل والأدلة على صدقها

١ ـــ شهادة الرسل (ا) قال بطرس الرسول عن المسيح إنه « **حمل هو نفسه خطايانا** » (أي خطايانا بأسرها) في جسده على الخشبة » (١بطرس ٢ : ٢٤) . وقال أيضاً « فإن المسيح **تألم مرة واحدة** من أجل **الخطايا** (جميعها) ، **البار من أجل الأثمة** (أو بالحري كل الأثمة) ، لكي **يقرّبنا إلى الله** مماتاً في الجسد ولكن محيي في الروح » (١بطرس ٣ : ١٨)

(ب) وقال يوحنا الرسول عن المسيح « وهو كفارة لخطايانا ، ليس لخطايانا فقط ، بل لخطايا كل العالم أيضاً » (١ يوحنا ٢ : ٢) . وقال كذلك عنه « أحبنا **وغسلنا من خطايانا بدمه** » (رؤيا ١ : ٥) . كما قال « دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية » (١يوحنا ١ : ٧)

(جـ) وقال بولس الرسول عن المسيح « وليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه ، دخل مرة واحدة إلى الأقداس (أو بالحري إلى السماء) فوجد فداء أبدياً » (عبرانيين ٩ : ١٢) . وقال أيضاً « لأنه بقربان واحد قد **أكمل إلى الأبد** المقدسين » (عبرانيين ١٠ : ١٤) . كما قال عنه إنه « صنع بنفسه **تطهيراً لخطايانا** » (عبرانيين ١ : ٣) ، وإنه « بذل نفسه **فدية لأجل الجميع** » (١ تيموثاوس ٢ : ٦) ، وإنه « ذاق الموت **لأجل كل واحد** » (عبرانيين ٢ : ٩) ، وإنه « يفدينا **من كل إثم** » (تيطس ٢ : ١٤)

ومن هذه الآيات يتضح لنا أن فداء المسيح ليس لجماعة من الناس دون جماعة أخرى ، أو عن بعض الخطايا دون البعض الآخر منها ، أو أنه يمتد إلى فترة خاصة من الزمن يحتاج الناس بعدها إلى فداء آخر ، بل إنه لكل الناس ، وعن كل الخطايا ، كما أن كفايته تمتد إلى أبد الآباد ، الأمر الذي يفتح مجال الخلاص أمام كل الناس في كل العصور والبلاد .

٢ ـــ الأدلة على صدق شهادة الرسل : فضلاً عن أن شهادة الرسل مدونة بالوحي الإلهي ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في صدقها ، وفضلاً عن الأدلة التي ذكرناها في الأبواب السابقة على صدق شهادتهم ، نقول : إن الرسل بمناداتهم بكفاية كفارة المسيح ، أعلنوا لليهود أنه لا داعي إطلاقاً ليس فقط لتقديم الذبائح التي كانوا يقدمونها ، بل ولا داعي أيضاً لوجود الهيكل أو الكهنة واللاويين الذين كانوا يخدمون فيه .

وبما أن هذا الإعلان كان يثير اليهود عن بكرة أبيهم ، ويدفعهم جميعاً بزعامة كل رجال الدين بينهم لاضطهاد الرسل أشد اضطهاد ، لأن مثل هذا الاعلان كان يقضي ليس فقط على موارد رزق هؤلاء كما ذكرنا ، بل وأيضاً على الديانة اليهودية التي يعتزون بها كل الاعتزاز . وبما أنه ليس من المعقول أن يختلق الرسل موضوعاً يكون سبباً في توجيه الاضطهاد العنيف إليهم ، وعلى الرغم من ذلك يواظبون على المناداة به جميعاً بكل شجاعة وبسالة ـــ هذا فضلاً عن استحالة اتفاقهم معاً على اختلاقه بسبب تباينهم من جهة الثقافة والنشأة والسن والبيئة والجنسية والمركز الاجتماعي ، **لذلك لابد أنهم كانوا على يقين تام** أمام الله من جهة صدق موضوع كفاية كفارة المسيح الذي كانوا ينادون به .

ثالثاً ـــ شهادة أنبياء العهد القديم والأدلة على صدقها

١ ـــ شهادة أنبياء العهد القديم (ا) قال موسى النبي سنة ١٥٠٠ ق.م إن الله قبلما أخرج آدم من الجنة ، أعلن أن نسل المرأة يسحق رأس الحية (تكوين ٣ : ١٥) ـــ وبهذا الإعلان أعطى الله لآدم وعداً بالفداء التام بالمسيح ، لأن كلمة « نسل » ترد هنا في اللغة العبرية بصيغة المفرد لا الجمع ، والشخص الوحيد الذي يدعى « نسل المرأة » هو المسيح ، لأنه ولد من أم دون أب . أما عند ورودها بالجمع

في الأصل العبري ، فانها تترجم إلى العربية « الأنسال » . ويتضح هذا من قول بولس الرسول « وأما المواعيد فقيلت في ابراهيم **وفي نسله** . لا يقول **وفي الانسال** كأنه عن كثيرين ، بل كأنه عن واحد ، **وفي نسلك** ، الذي هو المسيح » (غلاطية ٣ : ١٦) .

أما « الحية » فيُراد بها الشيطان ، لأنه هو الذي يسمّيه الوحي « الحية القديمة » (رؤيا ٢٠ : ٢) وذلك بسبب خداعه للناس وتضليلهم . وسحق المسيح لرأس الشيطان يدل على إنهاء سلطانه والقضاء الكامل عليه ، وبالتبعية يدل على كفاية كفارة المسيح له المجد ، لخلاص المؤمنين الحقيقيين من الخطية ونتائجها الأبدية .

(ب) وقال داود النبي سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد بروح النبوة عن المؤمنين الحقيقيين إنهم يأتون (من كل مكان) ويخبرون ببره (أي ببر المسيح) لشعب سيولد ، معلنين أنه قد فعل (أو بالحري فعل البر) (مزمور ٢٢ : ٣١) . كما قال أيضاً عن هؤلاء المؤمنين إنهم **سيفرحون وتحيا قلوبهم** (مزمور ٦٩ : ٣٢) — الأمر الذي يدل على كفاية كفارة المسيح لخلاصهم إلى الأبد ، لأنه لا مجال للفرح أو للحياة الأبدية بدون كفاية كفارته .

(جـ) وقال إشعياء النبي سنة ٧٠٠ ق.م. عن المسيح : « إن جعل نفسه ذبيحة إثم ، يرى نسلاً تطول أيامه ، ومسرة الرب (الخاصة بخلاص المؤمنين الحقيقيين) بيده تنجح . من تعب نفسه يرى ويشبع . وعبدي البار ، بمعرفته يبرر كثيرين (الذين هم المؤمنون الحقيقيون) ، وآثامهم هو يحملها » (إشعياء ٥٣ : ١٠ ، ١١) — وكل عبارة من هذه العبارات تدل على كفاية كفارة المسيح إلى الأبد . فالنسل الذي تطول أيامه هم المؤمنون الحقيقيون الذين يحيون إلى الأبد ، والذين بهم تشبع نفس المسيح لسروره العظيم بخلاص الخطاة نتيجة لكفاية كفارته .

ويطلق إشعياء على المسيح لقب « عبد الرب » — وهو اصطلاح كتابي يُراد به الكائن الذي يتمم كل مقاصد الله التي لا حد لها ، ويُطلق هذا الاصطلاح على المسيح من الناحية الناسوتية ، لأنه من هذه الناحية قام بالمهمة المذكورة خير قيام . ولا غرابة في ذلك ، فإنه في ذاته هو « كلمة الله » ، « وكلمة الله » هو وحده الذي يقوم بها .

٢ — الأدلة على صدق شهادة أنبياء العهد القديم : فضلاً عن أن هذه الشهادة مدوّنة بالوحي الإلهي ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في صدقها ، وفضلاً عن الأدلة السابق ذكرها عن صدق شهادة هؤلاء الأنبياء نقول : إنهم عاشوا في أزمنة متباعدة لا

تسمح لهم بالتواطؤ على فكرة ما كما يدعي البعض . فضلاً عن ذلك لا يمكن أن أحدهم قد نقل عن الآخر ، لأن كلاً منهم تنبأ عن ناحية خاصة من كفاية كفارة المسيح لم يشاركه فيها غيره ، الأمر الذي يدل على أنهم كانوا منقادين معاً بروح الله ، لأنه هو الذي يعرف كل شيء عن هذه الحقيقة من البداءة ، ومن ثم كان في وسعه أن يعلن عنها لكل نبي ، ما كان متوافقاً مع الظروف التي عاش فيها .

رابعاً ـــ شهادة الوقائع على كفاية كفارة المسيح

١ ـــ انشقاق حجاب الهيكل : عندما قال المسيح « قد أكمل » انشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل (متى ٢٧ :٥١) ـــ ولكي يتضح لنا ما يدل عليه انشقاق الحجاب في هذه اللحظة من معنى نقول : كان في خيمة الاجتماع التي أقامها موسى النبي ، وفي الهيكل الذي أقامه سليمان الحكيم بعد ذلك ، غرفة تُدعى قدس الأقداس ، كان الله قد جعلها رمزاً لسمائه يعلن فيها ظهوره بمجده وجلاله ، أو بالحري كرمز لسمائه . وكان يوجد أمام هذه الغرفة ، غرفة أخرى تدعى القدس ، يقدم فيها الكهنة العبادة لله كل يوم . وبين هاتين الغرفتين كان يوجد الحجاب المذكور (٢أخبار ٣ : ١٤ ، خروج ٢٦ : ٣١) ، رمزاً إلى أن الناس حتى الكهنة منهم ، ليسوا أهلاً بسبب خطاياهم للدخول إلى حضرة الله ، وإلى أنه تعالى لقداسته المطلقة لا يمكن أن يقبلهم في حضرته لهذا السبب .

وقد ظل هذا الحجاب قائماً بين الغرفتين المذكورتين من أيام موسى النبي حتى رُفع المسيح على الصليب ، ولذلك لم يجسر إنسان طوال هذه المدة أن يدخل قدس الأقداس أو يراه ، لئلا يموت في الحال . فقد قال الله لموسى أن ينهى حتى رئيس الكهنة ، عن الدخول كل الوقت إلى ما وراء الحجاب لئلا يموت . (لاويين ١٦ : ٢) . لكن هذا الحجاب الذي ظل قائماً في موضعه مئات السنين يعلن انغلاق باب الله في وجه البشر بسبب خطاياهم ، لم يبق لحظة واحدة بعد أن قال المسيح « قد أكمل » ، بل انشق في الحال من فوق إلى أسفل ـــ وطبعاً ما كان لينشق (أو بالحري ما كان الله ليشقه) في هذه اللحظة ، لولا أن كفارة المسيح قد وفّت كل مطالب عدالته وقداسته ، لأن الله بشقه للحجاب ، كأنه يقول للناس : « لقد كفّر المسيح عن خطاياكم تكفيراً كاملاً . ولذلك فتحت لكم بابي على مصراعيه ، فهلموا إليّ لكي تتمتعوا بالوجود في حضرتي دون حاجز أو مانع » .

٢ ــ عدم كسر ساقي المسيح : ذكرنا في الباب الخامس ، أن السبب في عدم كسر ساقي المسيح يرجع إلى أنه كان قد مات قبل الغروب . غير أننا إذا نظرنا إلى كسر الساقين من حيث كونه إهانة للمصلوب ، يتضح لنا أن الله لم يسمح بكسر ساقي المسيح إكراماً له . وطبعاً ما كان هناك داع لإكرامه وقتئذ ، لولا أن كفارته كانت قد وفَّت مطالب عدالة الله وقداسته كما ذكرنا .

٣ ــ خروج الدم والماء من جنب المسيح بعد موته : بعد موت المسيح طعن أحد الجنود جنبه بحربة ، فخرج للوقت دم وماء . وخروج الدم والماء وقتئذ ، وإن كان يعلله بعض الأطباء بعلل طبيعية ، بيد أننا إذا تطلعنا إليه في ضوء الكتاب المقدس نرى أنه دليل على كفاية كفارة المسيح . لأن الماء يرمز فيما يرمز إليه من أمور ، إلى الوسيلة الإلهية للتطهير والارتواء الروحي (يوحنا ٤ : ١٠ ــ ١٤ ، رؤيا ٢٢ : ١٧) ، والدم هو عنوان الفداء والكفارة ، إذ بدون سفك دم لا تحصل مغفرة (عبرانيين ٩ : ٢٢) . وقد جذبت هذه الحقيقة نظر يوحنا الرسول وعرف قدرها حق المعرفة ، ولذلك قال عن المسيح « هذا هو الذي أتى بماء ودم ، لا بالماء فقط بل بالماء والدم .. والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة : الروح والماء والدم . والثلاثة هم في (المسيح) الواحد » (١ يوحنا ٥ : ٦ ــ ٨) ، أي أن الروح القدس يعلن في العالم أن الفداء والحياة الأبدية هما بالمسيح ، الأمر الذي يدل على كفاية كفارته كما ذكرنا .

٤ ــ دفن المسيح في قبر جديد : قد لا يخطر ببال أحد من الناس أن دفن المسيح في قبر جديد له علاقة بكفاية كفارته ، لكن نظراً لأن كل كبيرة وصغيرة في الحياة لا تحدث إلا وفقاً لمشيئة الله وتدبيره ، فإن عقولنا لا تمر على دفن المسيح في القبر الجديد دون أن تتساءل : لماذا شاء الله أن يدفن جسد المسيح في مثل هذا القبر ، وقد كان المقرر أن يدفن مع اللصين اللذين صلبا معه في المقبرة العامة ، بناء على قوانين الدولة الرومانية وقتئذ ؟! وللرد على هذا التساؤل نقول : لو كانت كفارة المسيح لم تف مطالب عدالة الله وقداسته ، لكان مثل المسيح مثل أحد الناس لا أكثر ولا أقل ، ولدفن تبعاً لذلك في المقبرة العامة بناءً على القوانين المذكورة . ولذلك فعدم دفن جسد المسيح في هذه المقبرة دليل على كفاية كفارته وإيفائها لمطالب عدالة الله وقداسته ، بل ودليل أيضاً على كمال طهارته .

فالله سمح للبشر بصلب المسيح لا لعجزه عن إنقاذه من أيديهم ، بل لأنه شاء أن يتمم فيه كفارته عنهم جميعاً . أما وقد أكمل المسيح هذه الكفارة بالتمام ، فطبعاً لم يكن

هناك داع لأن يهان جسده الطاهر بعد ، بل كان من اللازم أن يكرم ويبجل . نعم كان عتيداً أن يُكرم ويُبجل بقيامته من بين الأموات دون أن يعتريه فساد ، لكن هذا لم يكن يمنع من إكرامه وتبجيله أيضاً في أثناء موته . فبأثمن الأكفان كان يجب أن يكفن ، وبأغلى الحنوط كان يجب أن يعطر ، وفي قبر جديد منحوت في صخر ومحاط ببستان كان يجب أن يدفن (يوحنا ١٩ : ٣٩ ـــ ٤١) .

٥ ـــ قيامة المسيح من بين الأموات : لو أن المسيح ظل مائتاً مدفوناً في قبره ، لكان هناك مجال للطعن في كماله المطلق ، بدعوى أنه لا يفرق شيئاً عن باقي الناس الذين بسبب خطاياهم يسود عليهم الموت ويظلون في قبورهم إلى يوم القيامة . ولكان هنا أيضاً مجال للطعن في كفارته التي نادى بها بدعوى عدم كفايتها لإيفاء مطالب عدالة الله وقداسته . لكن قيامته من بين الأموات في اليوم الثالث ، لم تدع مجالاً لهذا الطعن أو ذاك .

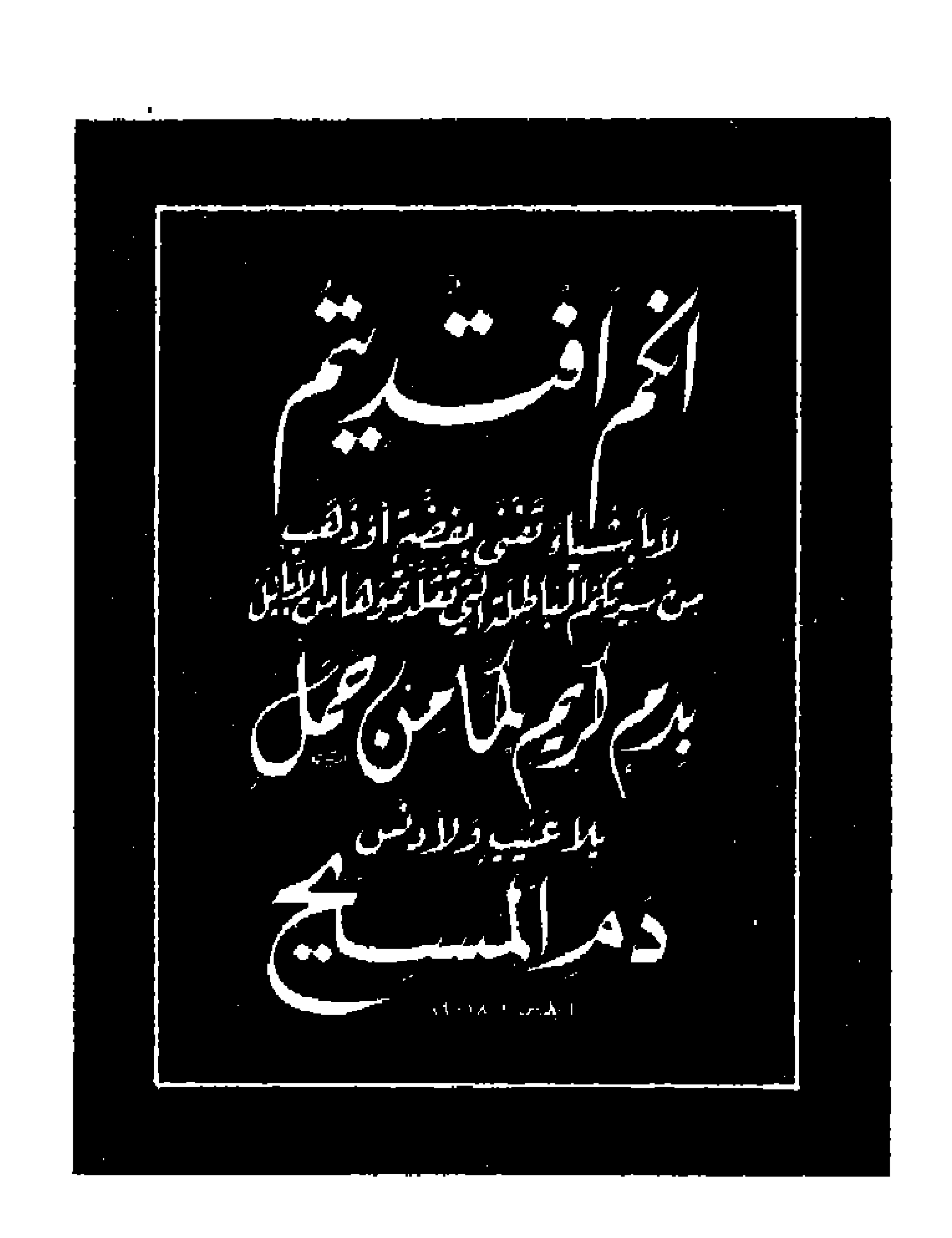
٦ ـــ قيامة بعض القديسين : على أثر قيامة المسيح من بين الأموات ، قام بعض القديسين من قبورهم ، وظهروا لكثيرين من سكان أورشليم (متى ٢٧ : ٥٢) . وهذه الحادثة فضلاً عن أنها مدونة بالوحي الإلهي ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في صدقها نقول : إنها ترد في الكتاب المقدس بأسلوب بسيط بعيد كل البعد عن المغالاة والتعليق الخاص ، اللذين نراهما في القصص التي يؤلفها البشر . كما أنها لا يمكن أن تكون من خيال التلاميذ ، لأن هؤلاء لو أرادوا إكرام المسيح بسبب قيامته من الأموات ، لما خطر ببالهم أن يكرموا معه بعض القديسين الذين ماتوا قبله ، حتى يكون وحده محط الأنظار . فضلاً عن ذلك فإن هذه الحادثة كتبت ونشرت في نفس المكان الذي صُلب فيه المسيح وقام ، وبين الناس الذين شاهدوا صلبه وسمعوا عن قيامته ، دون أن يعترض عليها واحد منهم ، الأمر الذي يدل على أنها كانت حادثة حقيقية معروفة كل المعرفة لديهم .

وسماح الله بقيامة هؤلاء القديسين من قبورهم على أثر قيامة المسيح من الأموات ، دليل على كفاية كفارته ، ودليل أيضاً على أن قوة الحياة التي لا تزول التي قام بها المسيح (عبرانيين ٧ : ١٦) ، تستطيع أن تقيم جميع القديسين الذين ماتوا والذين يموتون ، بالهيئة التي قام بها المسيح إلى المجد الأبدي .

٧ ـــ هدم الهيكل اليهودي : كان الهيكل مفخرة اليهود العظمى ، ففضلاً عن أن بناءه تكلف حوالي مليار من الجنيهات الذهبية ، فقد كان الملجأ الوحيد الذي يهرعون

إليه في ضيقاتهم ويقدمون فيه الذبائح حسب الناموس الذي أعطاه الله لموسى النبي ، لكي ينالوا من الله عند توبتهم ، رحمة وغفراناً . بل وكان هذا الهيكل هو أيضاً الشهادة العلنية على اتصالهم بالله دون غيرهم من الشعوب القديمة ، لأن هذه كلها كانت تعبد الأوثان . ولذلك كان الله يملؤه بمجده ، ويعلن لهم فيه مشيئته ، ويتقابل معهم بالروح في رحابه ـــ لكن هذا الهيكل العظيم لم يبق له أثر بعد ارتفاع المسيح إلى السماء بسنوات ، إذ أقبل تيطس القائد الروماني وأحرقه ، فهبط إلى الأرض من عليائه . ولم يكتف تيطس بذلك ، بل اقتلع أساسه من الأرض ، فتمت نبوة المسيح عنه أنه لن يترك فيه حجر على حجر لا يُنقض (متى ٢٤ : ٢) .

وقد حاول اليهود إعادة بناء الهيكل المذكور مرات متعددة عبر ألفي سنة تقريباً ، فباءت كل محاولاتهم بالفشل ـــ وهذا دليل واضح على أن ذبائحهم كانت مجرد رموز إلى كفارة المسيح ، وبالتبعية على أن كفارة المسيح هي الكفارة التي يدوم أثرها إلى الأبد .



— ٢ —

نتائج كفاية كفارة الله في المسيح

أولاً — البركات الخارجية

البركات الخارجية هي البركات التي يمنحها الله للمؤمنين الحقيقيين ، ويراهم حاصلين عليها أمامه بفضل كفاية كفارة المسيح ، وذلك بغض النظر عن حالة نفوسهم الداخلية في أي وقت من الأوقات ، وتتلخص هذه البركات فيما يلي :

(١) الغفران

كان داود النبي يرنم قبل مجيء المسيح بألف سنة قائلاً « طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته ! » (مزمور ٣٢ : ١) . وكان إرميا النبي يتساءل قبل مجيء المسيح بستمائة سنة : كيف يصفح الله عن الخطاة ؟ (إرميا ٥ : ٧) — ولكن الطوبى التي كان يترنم داود بها ويريد الحصول عليها ، لم تتحقق إلا بكفاية كفارة المسيح . والطريقة التي يمكن أن يصفح بها الله عن الخطاة والتي تساءل إرميا عنها ، لم تُستعلن إلا بكفاية هذه الكفارة . فقد قال الوحي على لسان الرسل « فليكن معلوماً عندكم أيها الرجال الاخوة أنه بهذا (أي المسيح) يُنادى لكم بغفران الخطايا » (أعمال ١٣ : ٣٨) . وقال أيضاً « حتى ينالوا (أي البشر) بالإيمان بالمسيح غفران الخطايا ونصيباً مع المقدسين » (أعمال ٢٦ : ١٨) . وأيضاً « إن كل من يؤمن به (أي بالمسيح) ينال باسمه غفران الخطايا » (أعمال ١٠ : ٤٣) . وقال للذين آمنوا إيماناً حقيقياً « قد غُفرت لكم الخطايا من أجل اسمه » (١يوحنا ٢ : ١٢) .

والله عندما يصفح عن الخطايا لا يذكرها على الاطلاق ، فتصبح كأنها لم تقترف بتاتاً . وقد كان داود النبي يشتاق إلى مثل هذا الصفح الكامل ، ولذلك كان يخاطب الله قائلاً : « لا تذكر خطايا صباي » (مزمور ٢٥ : ٧) . لكن عدم ذكر الخطايا اطلاقاً لم يكن ليتحقق إلا بفضل كفاية كفارة المسيح لأنها وحدها هي التي وفت مطالب عدالة الله وقداسته ، وعلى أساسها استطاع الله أن يقول للمؤمنين الحقيقيين « أصفح عن آثامهم ، ولا أذكر خطيتهم فيما بعد » (إرميا ٣١ : ٣١ — ٣٤)

(ب) التبرير

والتبرير لا يراد به فقط ، خلاص المؤمنين الحقيقيين من وصمة الخطايا (التي كانت لاصقة بهم) مثل الغفران ، بل يُراد به أيضاً صيرورتهم أبراراً أمام الله ، أي كأشخاص لم يرتكبوا خطيئة على الاطلاق . وفي الوقت نفسه عملوا كل البر الذي يريده الله . ولا غرابة في ذلك ، فكما أن المسيح بنيابته عنا حُسبت عليه خطايانا بكل شناعتها ، كذلك بسبب هذه النيابة عينها يُحسب لنا بره الذي يفوق كل بر .

كان أيوب الصديق وداود النبي يبحثان قديماً عن هذا التبرير ، فلم يجدا إليه سبيلاً . فتساءل الأول : « كيف يتبرر الإنسان عند الله ؟ » (أيوب ٢٥ : ٤) . وخاطب الثاني المولى قائلاً : « فإنه لن يتبرر قدامك حي » (مزمور ١٤٣ : ٢) . لكن التبرير الذي نظر هذان التقيان إليه كأمر لا يمكن الحصول عليه ، تحقق بفضل كفاية كفارة المسيح . فقد قال الرسل بالوحي للمؤمنين الحقيقيين : « متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح » (رومية ٣ : ٢٤ — ٢٨) . وقالوا أيضاً : « أما الآن فقد ظهر بر الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون » (رومية ٣ : ٢١ — ٢٢) . وأن المسيح « أُسلم من أجل خطايانا ، وأُقيم لأجل تبريرنا » (رومية ٤ : ٢٥) . وأن به « يتبرر كل من يؤمن » (أعمال ١٣ : ٣٩) .

هناك فرق بين البر الشرعي وبين البر العملي . فالأول هو ما يحسبه الله لنا بفضل كفاية كفارة المسيح عند الإيمان الحقيقي به ، أما الثاني فهو الأعمال الصالحة الخالية من النقائص ، التي نقوم بها نحن المؤمنين بفضل تأثير الله في نفوسنا . والبر الأول كامل كل الكمال وغير قابل للزيادة على الاطلاق بالنسبة إلى كل واحد منا ، كما أنه هو الأساس الوحيد لقبولنا أمام الله (لأننا لا نستطيع بكل أعمالنا الصالحة أن نكفر عن خطيئة واحدة من خطايانا) . أما البر الثاني فيختلف قدره من واحد إلى آخر منا ، لأننا نحن الذين نعمله بأنفسنا . أما من جهة فائدته فإنه الأساس الذي عليه يعطينا الله ما يراه من مكافأة ، بجانب التمتع بالقبول الأبدي أمامه على أساس كفاية كفارة المسيح .

(جـ) التطهير

قبل مجيء المسيح بمئات السنين كان أيوب الصديق يقول عن نفسه ، إنه لو اغتسل في الثلج ونظف يديه بالأشنان ، فإنه يظل مذنباً (٩ : ٣٠) . وكان ارميا النبي يقول عن البشر إنهم حتى إذا اغتسلوا بالنطرون ، فإن آثامهم لا تُمحى من أمام الله (٢ :

٢٢) . [الأشنان كلمة معربة عن اليونانية ، تُطلق على مادة تستعمل في التنظيف . أما النطرون فهو كربونات الصوديوم ، ومنه يصنع الصابون الذي يستطيع تنظيف الملابس — والأشنان والنطرون مستعملان هنا بالمعنى المجازي ، للدلالة على أن الخطيئة لا تُستأصل بأية وسيلة من الوسائل البشرية] .

وكان حزقيال النبي يقول عنهم إنهم لم يطهروا ولن يطهروا (٢٤ : ١٣) . وكان داود النبي يصرخ لله قائلاً « اغسلني كثيراً من إثمي ومن خطيتي طهرني » (مزمور ٥١ : ٢) — لكن هذا التطهير الذي كانوا يتوقون إليه ،ويرون الحصول عليه أمراً بعيد المنال ، قد تحقق بفضل كفاية كفارة المسيح . فقد قال الرسول بالوحي عن المسيح إنه « صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا » (عبرانيين ١ : ٣) . وإنه « أحبنا وغسلنا من خطايانا بدمه » (رؤيا ١ : ٥) [الغسل هنا يُراد به المعنى المجازي . والمراد بالآية المذكورة أن كفارة المسيح تزيل كل أثر للخطيئة عن المؤمنين الحقيقيين] ، وإن « دمه يطهر من كل خطية » (١يوحنا ١ :٧) . وإننا اغتسلنا بل تقدسنا بل تبررنا باسم الرب يسوع وروح إلهنا (١كورنثوس ٦ : ١١) .

(د) الصلح والسلام مع الله

كان أيوب الصديق يبحث عن شخص خال من الخطيئة وفي الوقت نفسه قادر على إيفاء مطالب عدالة الله ، حتى يستطيع أن يصالحه معه ، لكنه لم يعثر على هذا الشخص إطلاقاً . ولذلك قال يائساً « ليس بيننا مصالح يضع يده على كلينا ، ليرفع عني عصاه ولا يبغتني رعبه » (أيوب ٩ : ٣٣ — ٣٤) . وكان إرميا النبي يقول إنه ليس سلام للبشر (١٢ : ١٢) . وكان إشعياء النبي يطلب من الله أن يجعل له ولغيره سلاماً (٢٦ : ١٢) . غير أن الصلح والسلام مع الله اللذين كان يتوق هؤلاء الأفاضل إليهما ويرون الحصول عليهما أمراً متعذراً ، قد تحققا بفضل كفاية كفارة المسيح . فقد قال بولس الرسول بالوحي « فإذ قد تبررنا بالإيمان ، لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح » (رومية ٥ : ١ — ٢) . وقال أيضاً « نفتخر .. بالله بربنا يسوع المسيح الذي نلنا به الآن المصالحة » (رومية ٥ : ١١) . « ولكن الكل من الله الذى صالحنا لنفسه بيسوع المسيح » (٢ كورنثوس ٥ : ١٨ — ٢١) . وأيضاً إن الله صالح الكل لنفسه بالمسيح ، عاملاً « الصلح بدم صليبه بواسطته » (كولوسي ١ : ٢٠ — ٢٢) .

(هـ) الخلاص من الدينونة الأبدية

كان أتقى الناس قديماً يخشون الموت ، ويبكون بكاء مرّاً إذا عرفوا باقترابه منهم (٢ ملوك ٢٠ : ٣) . لأنهم كانوا يخشون الوقوف أمام عدالة الله (مزمور ١٤٣ : ٢) ويفزعون من الوقائد الأبدية التي قضي بها (اشعياء ٣٣ : ١٤) . لكن بفضل كفاية كفارة المسيح ، أصبحنا لا نخشى الدينونة ، بل ونثق كل الثقة أن لنا امتياز التمتع بالله في سمائه إلى الأبد . فقد قال المسيح إن من يؤمن به لا يدان أمام العدالة الإلهية (يوحنا ٣ : ١٨) ، والذي يؤمن بالذي أرسله فله حياة أبدية ،ولا يأتي إلى دينونة ، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة . وإن من يؤمن بالابن تكون له الحياة الأبدية ، ويقيمه الابن في اليوم الأخير (يوحنا ٦ : ٤٠) . وقال بولس الرسول بالوحي عن الخلاص من هذه الدينونة « حين ظهر لطف مخلصنا الله وإحسانه ، لا بأعمال في بر عملناها نحن ، بل بمقتضى رحمته خلصنا » (تيطس ٣ : ٥) . وقال أيضاً « لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان ، وذلك ليس منكم ، هو عطية الله » (أفسس ٢ : ٨) . وقال عن نفسه « إن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا » (١تيموثاوس ١ : ١٢ ــ ١٥) .



ثانياً ــ البركات الباطنية

عرفنا من الباب الثاني أننا لا نحتاج إلى غفران فحسب ، بل ونحتاج أيضاً إلى حياة روحية تؤهلنا للتوافق مع الله في صفاته السامية ، لأننا إذا حصلناعلى الغفران دون هذه الحياة ، ننجو من الدينونة الأبدية لكن نظل عاجزين عن التوافق مع الله ، والعجز عن التوافق مع الله هو الشقاء بعينه . لذلك لم تقف نتائج كفارة المسيح عند حد منح البركات الخارجية السابق ذكرها ، بل منحت أيضاً بركات باطنية تهيّء النفس للتوافق مع الله في صفاته المذكورة ، وهذه البركات هي :

(ا) الولادة الروحية من الله

ولكي نعرف شيئاً عن ضرورة هذه الولادة وماهيتها وأهميتها ، نتحدث عن النقاط الآتية :

١ ـــ عجز الوسائل البشرية عن اصلاح النفس : اتضح لنا في الباب الثاني عجز الأعمال الدينية (مثل الصوم والصلاة والتوبة الصادقة) عن قصاص الخطيئة عن الخطاة ، وأيضاً عن تأهيلهم للتوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية . وسنرى الآن أن محاولات رجال الاصلاح الاجتماعي في القضاء على الخطيئة قد باءت بالفشل كذلك :

قال فريق من هؤلاء الرجال إن الفقر والجهل والفراغ وثورة الشباب هي العوامل التي تقود إلى ارتكاب الخطيئة ، لأنهم رأوا أن الفقير ينقاد إليها للحصول على لقمة العيش ، والجاهل لعدم تقديره للعواقب ، والعاطل لعدم استطاعته البقاء بلا عمل ، والشباب لتهوره واندفاعه . ولذلك سعوا لتوفير المال اللازم للفقراء ، والعلم للجهلاء ، والعمل للعاطلين ، والتهذيب للمراهقين . لكن هذه الوسائل (كما أثبت الاختبار) لا تجدي في التحول عن الخطيئة ، لأن كثيرين من الأغنياء والمثقفين وأصحاب الأعمال والأشخاص الذين فاتوا دور الشباب ، يرتكبون الكثير من الآثام والموبقات مثل غيرهم من الناس .

وقال فريق ثان إن العقاب البدني كفيل بتحويل الأشرار عن شرهم ، ولذلك أمروا بمعاقبتهم إما بالسجن أو الجلد أو الأشغال الشاقة ـــ لكن هذه الوسائل (كما أثبت الاختبار) لا تجدي أيضاً ، إذ أنها تجعل الأشرار يعمدون إلى ابتكار طرق جديدة يخفون بها معالم جرائمهم ، ومن ثم يتمادون في ارتكابها دون أن يكتشف أحد أمرهم . ولو فرضنا جدلاً أنهم أقلعوا عنها لسبب من الأسباب ، فإن الميل إليها أو إلى بعضها قد يظل متأججاً في نفو-هم ، ومن ثم يظلون أشراراً كما كانوا من قبل .

وقال فريق ثالث إن للدين سلطاناً عظيماً على الناس إذا نشأوا عليه منذ نعومة أظفارهم . ولذلك جعلوا تعليم الدين اجبارياً في المدارس ، وأوصوا بتدريب الأطفال على حفظ الكثير من النصوص الدينية ، لا سيما الخاصة منها بعظمة الله ووجوب الطاعة له ـــ ولكن ألا يرتكب رجل الدين الذي نشأ منذ طفولته نشأة دينية بحتة نفس الخطايا التي يرتكبها غيره من الناس ، وهكذا يفعل التربوي والأخصائي الاجتماعي ، حتى إذا بلغ الستين تقريباً من عمره ؟

٢ ــ أسباب فشل الوسائل المذكورة في اصلاح النفس : (ا) إن السبب في فشل هذه الوسائل في تحويل البشر عن الخطيئة ، يرجع إلى أن الميل إليها ليس أمراً عرضياً فيهم بسبب ظروفهم أو حالة المجتمع الذي يعيشون فيه ، حتى لو كان من الممكن إزالته بواسطة هذه الوسائل ، بل إنه نابع من ذات طبيعتهم . وهذه الطبيعة لا تتغيّر على الاطلاق ، مهما تطبَّع المرء بطباع جديدة ، لأن الطبع (كما يقولون) يغلب التطبُّع . فالوحوش المفترسة (مثلاً) وإن كان قد أمكن تدريبها على القيام بالأعمال التي يتطلبها مروّضوها ، لكنها كثيراً ما تنقضّ عليهم وتفتك بهم . وهكذا الحال من جهة الطبيعة البشرية ، فإنه من الممكن تهذيبها ، وقد تهذَّبت فعلاً حسب الظاهر وأصبح الانسان المتحضر أفضل من انسان الغابة كثيراً ، لكن الطبيعةالتي في كليهما هي طبيعة واحدة .

نعم إن الانسان المتحضر يتسامى أحياناً فوق الخطيئة تحت تأثير عوامل دينية أو اجتماعية ، ولكن تسامياً مثل هذا لا يكون في الواقع إلا تصرفاً صناعياً ، لأنه ضد الطبيعة وميولها . أما التسامي الحقيقي فهو التسامي الطبيعي (ومثله مثل ارتفاع الأبخرة في الهواء ، لأنها بطبيعتها أقل وزناً منه) ، ولا يكون هذا التسامي طبيعياً . إلا إذا حصل المرء على طبيعة جديدة يكون السمو (وليس التسامي فقط) من شأنها . وهذه الطبيعة لا يتيسر للمرء الحصول عليها بمجهوده الشخصي أو بمجهود غيره من الناس له (وذلك للقصور الذاتي الكامن فيه وفيهم معاً) ، بل الله وحده هو الذي يستطيع أن يمنحها لمن يتهيئون لها ، إذ أنه تعالى هو الخالق لكل الأشياء سواء أكانت مادية أم روحية .

(ب) وقد أدرك رجال الله مثل أيوب وإرميا عجز البشر عن إصلاح نفوسهم ، فقال الأول متسائلاً « من يخرج الطاهر من النجس ؟ » ثم أجاب عن هذا التساؤل فقال : « لا أحد » أو بالحري لا أحد من البشر (أيوب ١٤ : ٤) . وقال الثاني « هل يغير الكوشي (أي الحبشي أو الزنجي) جلده أو النمر رقطه ؟! (الجواب طبعاً كلا) . فأنتم أيضاً (هل) تقدرون أن تصنعوا خيراً أيها المتعلمون الشر » أو بالحري المطبوعون عليه ؟ (إرميا ١٣ : ٢٣) . وقال بولس الرسول عن طبيعته البشرية « ويحي أنا الانسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت » (رومية ٧ : ٢٤) . كما أدرك ذلك كثير من الفلاسفة والعلماء ، فقال افلاطون « ليس هناك تدرج من الشر إلى الخير » ، أو بتعبير آخر إن الشرير لا يمكن أن يتدرج من تلقاء ذاته حتى يصبح خيّراً . وقال أرسطو « إني عاجز كل العجز عن إصلاح النفوس البشرية وتحويلها إلى خيّرة » . وقال

ولسن « إن العلم أخفق في تحقيق الإصلاح الأولي وتوفير الفردوس الأرضي للناس . حقاً لقد أفادهم من الناحية المادية وحررهم من الخرافات وأنقذهم من بعض الأمراض ، ولكنه فشل في تغيير الطبيعة البشرية وتخليصها من الأدران الكامنة فيها مثل الحقد والضغينة » . وقال أيضاً « إن علم الأخلاق عجز عن اقتلاع الميل إلى الشر من النفس وغرس الميل إلى الخير عوضاً عنه فيها » . وقال بيتشر « ضع ما يروق لك على حمار وحشي . ضع لجاماً من ذهب في فمه ، وسرجاً من دمقس على ظهره . هل هذا يُغير من طبيعته ؟! زيّنه بكل زينة في الوجود ، فهل يخرجه هذا من وحشيته ؟ هكذا الطبيعة البشرية لا يمكن تغييرها ، مهما بذل معها رجال الدين والاصلاح من جهود » . وقال سينيكا « إن الناس يكتنفهم شعور غامض بضعفهم وعجزهم إزاء التقدم الأدبي . فهم يكرهون رذائلهم ومع ذلك ينجذبون إليها . فما يحتاجون إليه هو أن توضع يد تحتهم لكي ترفعهم إلى أعلى » ، وهذه اليد لا تكون طبعاً إلا يد الله .

(جـ) وإذا كان الأمر كذلك ، فإن رجال الدين والاصلاح الاجتماعي الذين ذكرنا محاولاتهم في البند الأول ، لا يشبهون إلا جماعة من الناس رأوا شخصاً مشرفاً على الغرق ، فأخذوا يصيحون نحوه قائلين (مثلاً) : « لقد أخطأت بذهابك إلى البحر ، وكان من الواجب عليك أن لا تخاطر بحياتك ، طالما أنت لا تحسن السباحة . أما وقد بلغ بك الأمر إلى هذا الحد ، فعليك أن تجاهد وتكافح ولا تدع الماء يتسرب إلى جوفك ، حتى لا تتعرض للغرق » — فهل لذاك اللوم أو هذا النصح من فائدة ؟! طبعاً لا . لأن ما يجب عمله في هذه الحالة هو إنقاذ المشرف على الغرق أولاً ، ثم توجيه اللوم والنصح اليه بعد ذلك . وهذا ما تفعله المسيحية مع الخاطىء ، فهي لا تطلب منه مبدئياً أن يحيا حياة القداسة والطهارة ، بل أن يُقبل بكل قلبه الى المسيح الفادي ، وحينئذ لا تُغفر له خطاياه فحسب ، بل وينال أيضاً من الله طبيعة روحية تؤهله للارتقاء فوق الطبيعة الخاطئة الكامنة فيه ، وبذلك يستطيع تنفيذ كل وصايا الله على أحسن وجه — وهذا العمل هو ما يسمى « الولادة من الله » .

٣ — ماهية الولادة من الله (ا) فهذه الولادة ليست إذاً إصلاح الطبيعة البشرية العتيقة بواسطة الصوم والصلاة أو الوعظ والإرشاد ، أو هي بدء صفحة جديدة في الحياة بواسطة التوبة عن الخطيئة ومحاولة الابتعاد عنها ، أو الانضمام إلى جماعة دينية ومزاولة بعض النشاط الديني أو الأدبي بينها ، أو دراسة الكتب المقدسة والسعي للعمل بما جاء فيها (وإن كانت هذه كلها أموراً طيبة في حد ذاتها) ، بل إن الولادة من الله هي حصول المرء من الله على طبيعة روحية تؤهله للتوافق معه في صفاته السامية .

(ب) وقد أشار الرسل إلى الولادة المذكورة فقالوا « وأما كل الذين قبلوه (أي قبلوا المسيح) فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله ، أي المؤمنون باسمه . الذين وُلدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل ، بل من الله » (يوحنا ١ : ١٢ و١٣) « ليس من دم » أي ليس من سلالة أو جنس ما . « ولا من مشيئة جسد » أي ليس بواسطة المجهود الجسدي أو الذاتي . « وليس من رجل » أي ليس بواسطة التفاعل الطبيعي أو بواسطة رجل من رجال الدين مثلاً ، وقالوا أيضاً : « كل من يؤمن (إيماناً حقيقياً) أن يسوع هو المسيح ، فقد وُلد من الله » (١يوحنا ٥ : ١) . وأيضاً إن « الله ولدنا ثانية لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات » (١ بطرس ١ : ٣) . وإنه « شاء فولدنا بكلمة الحق لكي نكون باكورة من خلائقه » (يعقوب ١ : ١٨) . وإن المؤمنين (الحقيقيين) وُلدوا ثانية ، لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى ، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد » (١بطرس ١ : ٢٣) وإن الله وهبهم كل ما هو للحياة والتقوى لكي يصيروا شركاء الطبيعة الإلهية (الأدبية) هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة (٢ بطرس ١ : ٣ و٤) . وقد نبّه السيد المسيح من قبل إلى ضرورة هذه الولادة ، فقال لأحد كبار معلمي اليهود : « المولود من الجسد جسد هو ، والمولود من الروح هو روح . لا تتعجب أني قلت لك : ينبغي أن تولدوا من فوق » (يوحنا ٣ : ٦ — ٧) .

(جـ) والولادة من الله يعبر عنها أيضاً بالخليقة الجديدة . فقد قال الرسول « إذاً إن كان أحد في المسيح ، فهو خليقة جديدة . الأشياء العتيقة قد مضت . هوذا الكل قد صار جديداً » (٢كورنثوس ٥ : ١٧) . كما قال عن نفسه وعن المؤمنين « لأننا نحن عمله (أي عمل الله) مخلوقين (مرة ثانية) في المسيح يسوع ، لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها ، لكي نسلك فيها » (أفسس ٢ : ١٠) .

(د) فالولادة من الله ليست وهماً أو بعض وهم (كما يظن بعض الناس) ، بل هي حقيقة واقعة ، لها الأدلة الكافية على وجودها . وقد اهتم كثير من علماء النفس بدراستها لا سيما في الأشخاص الذين كانوا يرتكبون الجرائم ويدمنون المخدرات من قبل ، فهالهم أمرها واعترفوا بأحقية وجودها . فالأستاذ « دراموند » عندما رأى آثارها في الأشخاص المذكورين ، اقتنع بوجودها ووصفها وسجل نتائجها في كتبه . والعلامة « ستوربوك » عندما درس نتائج هذه الولادة ، أسندها إلى حدوث تغيير عظيم في النفس . والأستاذ « برونتج » وجد أن الولادة المذكورة لا تتم في النفس بالتدريج ، بل دفعة واحدة . وقال الأستاذ جويت : « إن الولادة الثانية لا تخضع لنواميس العلاج النفسي بل لناموس

آخر ، هو ناموس الله » . وقال الأستاذ سافينارولا « إن الولادة من الله تبعث في النفس حياة خلاقة » لأنه وجد المولودين من الله يحيون حياة روحية سامية لا يستطيع سواهم أن يحياها .

٤ ــ **ضرورة الولادة الجديدة** : (ا) إن نفس الإنسان ليست مريضة فقط بالخطيئة حتى كان يكفيها علاج ما ، لكنها ميتة بالخطيئة ، إذ أن هذه سيطرت عليها تماماً . ومن ثم فانها تحتاج قبل كل شيء إلى حياة روحية . وهذه الحياة هي التي أتى المسيح إلى العالم ليمنحها لنا . فقد قال عن نفسه : « أما أنا فقد أتيت (لا لكي أعظ أو أعلم أو أرشد أو أعمل معجزات ، وإن كان قد قام بهذه الأعمال خير قيام) ، بل أتيت لتكون لهم حياة . ويكون لهم أفضل » (يوحنا ١٠ : ١٠) .

وهذه الحياة ليست قوة أدبية (كما يظن بعض الناس) ، بل هي حياة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، مثلها في ذلك مثل الحياة التي تدب في الميت فينهض من رقاده ويقوم بما أراد من أعمال . ومن ثم فبواسطتها يصبح الميت بالذنوب والآثام شخصاً روحياً يستطيع بنعمة الله الارتقاء فوق كل الخطايا ، كما يستطيع التوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية . والرسول الذي اختبر هذه الحياة في نفسه قال : « لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت » . (رومية ٨ : ٢) .

ومن ثم فكما أنه بالولادة من آبائنا وأمهاتنا نحصل على صفاتهم وخصائصهم ، ونبدأ حياتنا على الأرض معهم ، ويكون لنا أيضاً حق التمتع بهم وبكل ما لديهم من خير (إن كان لديهم خير) ، هكذا الحال من جهة الولادة من الله ، فان بها دون غيرها نحصل على طبيعته الأدبية ، فتبدأ علاقتنا الحقيقية معه ، ونستطيع التمتع به في كل أمجاده .

(ب) مما تقدم يتضح لنا أنه كما أن الطبيعة أوصدت بابها بين مملكتي الجماد والحيوان ، فلا يمكن أن ينتقل جماد من حالة الجمود إلى الحياة ، كذلك لا يمكن للميت بالخطايا والذنوب أن يكوّن بنفسه الحياة الروحية المذكورة ، مهما بذل من مجهود . ولذلك فعلى من يريد الحصول عليها أن يتجه بقلبه إلى الله مباشرة مؤمناً إيماناً حقيقياً بالمسيح ، فيمنحه الله إياها كما ذكرنا . أما من يكتفي بما يقوم به من الأعمال التي تُدعى الصالحة لكي يستر خطاياه ، فمثله مثل شخص يحاول القضاء على رائحة ميت ، مهما أكثر من تعطيره ، لا يمكن أن يجعل الميت حياً . أو مثل شخص يصنع زهوراً ، لكن مهما أتقن صناعتها فلا يمكن أن يجعلها تبعث من تلقاء ذاتها رائحة زكية .

(ب) الحصول على الروح القدس

١ ــ العلاقة بين حلول الروح القدس وكفارة المسيح : كان الروح القدس ، أو بالحري روح الله ، يحل على الأنبياء قديماً في أوقات خاصة لكي يبلغهم أقوال الله . ولكنه لم يسكن في واحد منهم ، لأن الخطيئة لم تكن قد أُزيلت عنهم من أمام الله بعد . وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال عن الروح القدس : « إنه لم يكن قد أُعطي بعد . لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد » (يوحنا ٧ : ٣٩) . ولكن لما تمجد المسيح بالقيامة من الأموات والصعود بعد ذلك إلى السماء ، على أساس كفاية كفارته ، حلّ الروح القدس على تلاميذه وسكن فيهم (أعمال ٢) ، بناء على وعد المسيح السابق لهم (أعمال ١ : ٤) . ومن هذا الوقت إلى الآن وهو يحل في المؤمنين الحقيقيين . فقد قال الرسول لهم : « إذ آمنتم خُتمتم بروح الموعد القدوس » (أفسس ١ : ١٣) ، كما قال لهم : « إنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم » (١كورنثوس ٣ : ١٦) .

٢ ــ تهيئة المؤمنين الحقيقيين للصلاة : ذكرنا في الباب الثاني أن البشر بسبب قصورهم الذاتي لا يستطيعون أن يرفعوا من تلقاء أنفسهم الصلاة المقبولة أمام الله . ولكن بفضل سكنى الروح القدس فيهم تكون لهم القدرة على القيام بهذه الصلاة ، لأنه يسمو بنفوسهم إلى حالة الشركة مع الله ، كما يعلن لهم مشيئته من نحوهم . وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال « لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي (بسبب عجزنا الطبيعي) . ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها . ولكن الذي يفحص القلوب يعرف ما هو اهتمام الروح ، لأنه بحسب مشيئته يشفع في القديسين » (رومية ٨ : ٢٦ ، ٢٧) .

٣ ــ تعليمه للمؤمنين الحقيقيين وإعطاؤهم الغلبة على الخطيئة . فقد قال المسيح لتلاميذه عن الروح القدس إنه « يعلّمكم كل شيء ويذكّركم بكل ما قلته لكم » (يوحنا ١٤ : ٢٦) . وقال الرسول للمؤمنين عنه « وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه (أي من الله) ثابتة فيكم ولا حاجة بكم أن يعلمكم أحد (شيئاً من أموره تعالى) ، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء » (١يوحنا ٢ : ٢٧) .

ونظراً لأن هذا الروح هو روح الله ، فانه يعطيهم الغلبة على الخطيئة . فقد قال الرسول للمؤمنين « إنهم بالروح القدس يميتون أعمال الجسد » (رومية ٨ : ١٣) . فضلاً عن ذلك فإنه عندما يسود عليهم يربطهم بالله ويطبعهم بطابعه السماوي المقدس . ومن ثم ينظم تفكيرهم ، ويهيئهم للسير في طريق الله في كل حين ، فيسيرون في طريقه ، كما تسير الكواكب في أفلاكها بانتظام ، بسبب الجاذبية الكائنة بينها

(جـ) البنوة لله

هناك فرق لا حد له بين بنوة المؤمنين الحقيقيين لله وبين بنوة المسيح الفريدة له . فهؤلاء المؤمنون يُعتبرون أبناء لله بالنعمة ، من وقت إيمانهم بالمسيح إيماناً حقيقياً فحسب . أما المسيح فهو ابن الآب بالحق والمحبة منذ الأزل (٢ يوحنا ٣) . ولذلك فانه دون سواه هو « ابن الله الوحيد » (يوحنا ١ : ١٨) .

١ ـــ كان إرميا النبي يبحث قديماً عن كيفية الحصول على هذا الامتياز الثمين ، لكنه رأى استحالة بلوغه بالمجهود الذاتي ، فتساءل قائلاً : « كيف أضعك (أيها الإنسان) بين البنين ؟ » (إرميا ٣ : ١٩) . لكن هذا الامتياز الذي كان إرميا يرى استحالة حصول الإنسان عليه لقصوره الذاتي ، قد تحقق فعلاً بفضل كفاية كفارة المسيح وعمله الروحي في قلوب المؤمنين الحقيقيين . ولذلك قال الرسل لهؤلاء المؤمنين : « بما أنكم أبناء ، أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً (أو هاتفاً) يا أبا الآب » (غلاطية ٤ : ٦) . وكلمة « أبا » كلمة سريانية معناها « آب » . ونظراً لشيوع استعمالها في نشأة المسيحية ، سجلت كما هي في الكتاب المقدس ، وسجل بعدها معناها باللغة المترجم إليها . ولذلك فان هذه الآية تقرأ فقط « صارخاً أيها الآب » .

وقالوا أيضاً لهم : « أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب . الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله . فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً ، ورثة الله ، ووارثون مع المسيح » (رومية ٨ : ١٥ ، ١٦ ، ١٧) . والمراد « بوراثة الله » أن يكون تعالى هو النصيب الأبدي للمؤمنين الحقيقيين ، لأن هؤلاء لا يشتهون التمتع بأمجاد السماء (وإن كانت هذه ثمينة وغالية) ، بل يشتهون التمتع بالله ذاته ، فهو لديهم أعظم من هذه الأمجاد بما لا يقاس .

وأيضاً « أنظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله » (١يوحنا ٣ : ١) . وأيضاً : « فلستم بعد غرباء ونزلا بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله » (أفسس ٢ : ١٩) .

٢ ـــ والحق أن جعل الله إيانا أولاداً له ، هو أعظم إحسان أنعم علينا به ، على أساس كفاية كفارة المسيح . فهو لم يتبنانا لنفسه كما يتبنى انسان بعض الأطفال ، بل ولدنا بروحه معطياً إيانا طبيعته الأدبية السامية . وهذا هو الاحسان الذي لا يستطيع أحد في العالم أن يجود بمثله . لأننا نرى أنه إذا أراد إنسان كريم الخلق أن يتبنى لنفسه غلاماً مطبوعاً على الشر (مثلاً) ، فإنه يعامله بكل عطف ولطف ، ويرسله إلى أرقى

المدارس والمعاهد ، ويقدم له أفخر الملابس والأطعمة ، ويوفر له كل أسباب الراحة والهناء . لكن مهما أوتي من حكمة وكرم لا يستطيع أن يلد الغلام المذكور مرة ثانية (أو بالحري لا يستطيع أن يولد فيه ذات الأخلاق الكريمة التي يتمتع هو بها) ، لذلك فإن هذا الغلام وإن كان يتثقف ذهنياً وظاهرياً ، غير أنه يظل بنفسيته الشريرة التي طُبع عليها — لكن ما لايستطيع البشر قاطبة أن يعملوه ، قد عمله الله في نفوسنا بولادتها منه .

٣ — إن رجال الإصلاح الاجتماعي الذين تأثروا بالخراب الذي يحل بالبشر بسبب الحروب ، يتجهون في الوقت الحاضر إلى إزالة الفوارق بين البشر حتى يصيروا شعباً واحداً متآلفاً ، يحب كل فرد فيه غيره كما يحب نفسه . وما أسمى هذا الفكر وما أنبله !! لكن هل من الممكن تحقيقه بدون ولادة البشر من الله ولادة جديدة ؟ طبعاً كلا ، لأن هذه الولادة هي التي تجعلهم فعلاً أولاداً لله ، واخوة بالروح بعضهم لبعض.

(د) الحياة الأبدية والصلة الحقيقية بالله

١ — **الحياة الأبدية** : الحياة الأبدية ليست هي التمتع بالله بعد الانتقال من العالم الحاضر كما يظن بعض الناس ، بل هي الحياة الروحية التي يهبها الله للمؤمنين الحقيقيين بمجرد إيمانهم في هذا العالم . فقد قال المسيح « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له (الآن) الحياة الأبدية »(يوحنا ٣ : ١٦) . وان من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني ، فله (الآن) حياة أبدية (يوحنا ٥ : ٢٤) . وقال الرسول « إن الله أعطانا (الآن) حياة أبدية ، وهذه الحياة هي في ابنه . من له الابن له (الآن) الحياة ، ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة (١ يوحنا ٥ : ١١) . والحياة الروحية التي يتمتع بها المؤمنون الحقيقيون في العالم الحاضر ، ستظل فيهم إلى الأبد مؤهِّلة إياهم للتمتع بالعلاقة السامية مع الله الى مالا نهاية . فكل من لا يحصل على هذه الحياة في الوقت الحاضر ، سوف لا تكون له حياة مع الله بعد انتقاله الى رحابه ، لأنه كما يكون الانسان في هذا العالم ، سيكون كذلك في الأبدية .

٢ — **الصلة بالله** : إن الأنبياء قديماً لم يكن في وسعهم الهروب من دينونة الله ، فعندما ظهر الله لموسى صرخ في الحال « أنا مرتعب ومرتعد » (عبرانيين ١٢ :

٢١) . وعندما ظهر لإشعياء صرخ قائلاً « ويل لي إني هلكت » (إشعياء ٦ : ٥) . ولكن بفضل كفاية كفارة المسيح أصبح للمؤمنين الحقيقيين امتياز الدنو من الله منذ الآن للتمتع به وبأمجاده . ولذلك قال الرسول « فإذ لنا أيها الاخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع ... لنتقدم بقلب صادق » (عبرانيين ١٠ : ١٩ — ٢٢) . وقال أيضاً « فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة ونجد نعمة عوناً في حينه » (عبرانيين ٤ : ١٦) . وأيضاً إن بالمسيح لنا قدوماً إلى الآب (أفسس ٢ : ١٨) . لأننا بعدما كنا بعيدين عنه صرنا قريبين منه بفضل كفارة المسيح (أفسس ٢ : ١٣) .

(هـ) الاتحاد الروحي بالمسيح وإدراك الحقائق الروحية

١ — الاتحاد الروحي بالمسيح : فقد قال الوحي عن المؤمنين الحقيقيين إنهم بواسطة إيمانهم الحقيقي بالمسيح وسكنى الروح القدس فيهم تبعاً لذلك ، أصبحوا بمثابة أعضاء جسد المسيح من لحمه ومن عظامه (أفسس ٥ : ٣٠) ، وأصبح المسيح بمثابة الرأس لهم (كولوسي ١ : ١٨) . فضلاً عن ذلك ، فإنه يحيا فيهم (غلاطية ٢ : ٢٠) ، ويكون حياتهم (كولوسي ٣ : ٤) . وكما يكون فيهم ، كذلك يكونون هم أيضاً فيه (يوحنا ١٥ : ٤ ، ١٧ : ٢٣) — واتحاد المؤمنين الحقيقيين بالمسيح واتحاد المسيح بهم يكسبهم صفاته السامية ، ومن ثم يستطيعون بنعمته أن يعيشوا على الأرض كما عاش ، بكل قداسة وطهارة .

٢ — إدراك الحقائق الروحية : إن الانسان الطبيعي ، مهما سمت حكمته الذاتية لا يستطيع فهم أمور الله ، لأن هذه تفوق العقل والإدراك . لكن عندما يؤمن إيماناً حقيقياً ، يتولد لديه إدراك واضح لهذه الأمور بواسطة عمل الروح القدس في نفسه . فقد قال بولس الرسول « لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة ، هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح » (٢كورنثوس ٤ : ٦) . وقال أيضاً « لكننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ، ولا من عظماء هذا الدهر الذين يُبطلون ، بل نتكلم بحكمة الله في سر . الحكمة المكتومة التي سبق الله فعيّنها قبل الدهور لمجدنا ... (لأن) أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله ، ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذي من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله ... ولكن الانسان الطبيعي (بسبب الخطيئة المسيطرة عليه) لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة ... وأما الروحي فيحكم في كل شيء وهو لا يُحكم فيه من أحد ،

لأنه من عرف فكر الرب فيُعلّمه ، وأما نحن فلنا فكر المسيح » (١كورنثوس ٢ : ٦ ـــ ١٦) .

من الأبواب السابقة يتضح لنا (أولاً) أن المسيح احتمل دينونة خطايانا وعارها نيابة عنا ، وأنه على هذا الأساس تهاطلت علينا إحسانات الله بكرم لا حد له . وبذلك سار عدل الله في مجراه إلى النهاية ، كما سارت رحمته في مجراها إلى النهاية أيضاً ، وفي هذا التصرف يتجلى لنا كمال الله المطلق وتوافق جميع صفاته معاً . وقد رأى داود النبي بالوحي هذا التصرف السامي العجيب فصاح متهللاً « الرحمة والحق (أي والعدل) التقيا . البر (أي الاستقامة أو العدل) والسلام تلاثما » (مزمور ٨٥ : ١٠) . نعم وكان لابد أن يلتقيا وكان لابد أن يتلاثما كذلك ، لأن صفات الله جميعها كما نعلم كاملة ومتوافقة . لكن هل كان من الممكن أن يلتقي عدل الله ورحمته معاً وأن يتلاثما أيضاً ، بدون كفارة المسيح ؟ طبعاً كلا . ولما كان الأمر كذلك ، صاح الرسول قائلاً « تملك النعمة (أي الرحمة والمحبة) بالبر (أي بالعدل والحق) للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا » (رومية ٥ : ٢١) ، أو بتعبير آخر إن رحمة الله لها الآن أن تشمل جميع المؤمنين الحقيقيين ، فتمتعهم بكل البركات السابق ذكرها ، دون أن يكون في ذلك اجحاف بحقوق عدالته . بل إن عدالته نفسها تشترك مع رحمته في منحهم هذه البركات ، لأنه تم إيفاء كل مطالبها من جهتهم .

(ثانياً) إن الله تمجد بالكفارة أكثر مما لو كان قد طرح جميع البشر في جهنم إلى الأبد بسبب عجزهم عن إيفاء مطالب عدالته وقداسته . وللإيضاح نقول : لنفرض أن رجلاً ثرياً نهبت ثروته ، وبالقبض على اللصوص وجد أنهم بدّدوا هذه الثروة عن آخرها ، فإن كل ما يمكن عمله في هذه الحالة هو معاقبتهم ، لكن الثروة لا يمكن استردادها . أما الله فقد استطاع بالكفارة أن يستردنا نحن الذين ضللنا ، وإن يمنحنا ليس فقط حياة الاستقامة التي كانت لآدم قبل السقوط في الخطيئة ، بل حياة أفضل منها بما لا يقاس ، لأنها الحياة الأدبية الخاصة به تعالى . ومن ثم (إن جاز التعبير) نقول : إن الله احرز بالكفارة فوزاً عظيماً ونصراً مبيناً .

فِي وَقْتٍ مَقْبُولٍ سَمِعْتُكَ
وَفِي يَوْمِ خَلاَصٍ أَعَنْتُكَ
هُوَذَا الآنَ
وَقْتٌ مَقْبُولٌ
هُوَذَا الآنَ
يَوْمُ خَلاَصٍ

٢كو ٦ : ٢



الباب السابع
كيفية الإفادة من كفارة المسيح

— ١ —

الايمان وأهميته

أولا — ماهية الإيمان

من البديهي أن يتساءل القراء بعد دراسة الباب السابق ، عن ماهية الإيمان الذي بواسطته يمكن أن نخلص من قصاص الخطيئة ونتائجها ، وأن نتمتع أيضاً بالحياة الروحية مع الله إلى الأبد . ولهم الحق في ذلك ، لأن كلمة الإيمان لكثرة تداولها بين الناس فقدت معناها عند معظمهم ، وأصبحت تطلق على مجرد الاعتراف بعقيدة ما . فكل من اعترف بوجود الله (مثلاً) ، أصبح في نظرهم مؤمناً . لكن هذا ليس من الصواب في شيء ، لأن من يؤمن بوجود الله ، يبغض الخطيئة ويأبى السلوك فيها . وبما أن كثيرين من الذين يعترفون بوجود الله ، يرتكبون الكثير من الآثام غير حاسبين له تعالى حساباً ، إذاً فهم ليسوا بمؤمنين . وإن قالوا إنهم مؤمنون ، فإيمانهم هذا لا يكون حقيقياً بل اسمياً فحسب . وإيمان مثل هذا (إن جاز أن يُسمى إيماناً) لا قيمة له في نظر الله ، حتى إن كان ذووه يصومون ويصلون ويتصدقون كثيراً . وإذا كان الأمر كذلك ، يجب علينا جميعاً أن نعرف ما هو الإيمان الحقيقي الذي يهيئنا للتمتع بالبركات السابق ذكرها ، ومن ثم نقول :

١ — **معنى الإيمان من الناحية اللغوية** : الإيمان لغة هو الثقة واليقين ، أو بالحري هو الثقة بحقائق غير منظورة بناء على شهادة الله عنها ، بغض النظر عن حكمنا نحن عليها ، لأن آراءنا معرّضة للتغيير من وقت إلى آخر ، أما شهادة الله فثابتة إلى الأبد . وقد استعمل الكتاب المقدس كلمة الإيمان بهذا المعنى فقال « الإيمان هو الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى » (عبرانيين ١١ : ١) .

هذا هو المعنى العام للإيمان ، وإذا أردنا تطبيقه على سبيل الافادة من خلاص المسيح ، يكون هو العمل الروحي الذي به تتفتح نفوسنا لله وتثق في خلاصه الذي عمله في المسيح ، ثقة تجعلها توقن كل اليقين أنها امتلكت هذا الخلاص مع البركات المترتبة عليه . غير أن للإيمان في بعض اللغات الأجنبية معان أخرى ، كما يتضح مما يلي :

(ا) ففي اللغة السنسكريتية (التي هي أصل الكثير من اللغات الأوربية) يراد به أيضاً « الرابطة » . فيكون الإيمان بالمسيح هو الرابطة الروحية التي تربطنا به .

(ب) وفي اللغة اليونانية يراد به « الأساس الذي يستقر عليه الشيء » ، أو « الجوهر

الذي يجعل لهذا الشيء كيانه ووجوده » ، كما يراد به « العقد الذي يثبت الملكية » . ومن ثم يكون الإيمان بالمسيح هو الأساس الروحي الذي يستقر عليه خلاص المسيح في النفس . وهو الجوهر الذي يجعل لهذا الخلاص كياناً خاصاً فيها ، وهو الوثيقة التي تؤكد لها ملكيتها للخلاص وأحقيتها في التمتع به ، كما يتمتع المالك بملكه الخاص الذي وضع يده عليه شرعاً وفعلاً .

(جـ) وبالاضافة إلى دلالة الإيمان على الثقة ، في كل من اللغة العربية والانجليزية ، فإنه يراد به في الأولى « الأمن » ، وفي الثانية « الأمانة » . ومن ثم يكون المؤمن شخصاً يعيش في سلام واطمئنان مع الله ، كما يكون شخصاً أميناً مخلصاً له ، وهذان المعنيان يردان في الكتاب المقدس ليس تعريفاً للإيمان بل نتيجة له . فقد قال الوحي « إن لم تؤمنوا ، فلا تأمنوا » (إشعياء ٧ : ٩) ، كما قال عن غير المؤمنين إنهم أشخاص لا أمانة فيهم (تثنية ٣٢ : ٢٠) .

٢ ـــ معنى الإيمان من بعض النواحي العلمية والفلسفية : (ا) وإذا استعرنا لغة علم النفس ، يكون إيمان الخلاص هو استجابة « العقل الباطن » للاعلان الإلهي أن الخلاص قد تم بواسطة المسيح ، ثم اطمئنانه لهذا الإعلان وامتلاكه للخلاص المذكور مع البركات المترتبة عليه ـــ وهذه الأعمال الباطنية الثلاثة (أي الاستجابة والاطمئنان والامتلاك) تكون طبعاً بموافقة « العقل الواعي » ، لأن الإيمان بالمسيح ليس هو الثقة بأمور وهمية أو مجهولة ، بل بأمور حقيقية معروفة .

(ب) وإذا استعرنا لغة العلوم الطبيعية ، يكون إيمان الخلاص هو استقبال النفس لخلاص الله الذي عمله في المسيح ، ثم حصولها عليه مع البركات السابق ذكرها ، كما يستقبل السالب قوة الموجب ويحصل عليها . أو يكون هذا الإيمان هو تفاعل النفس مع الخلاص المذكور وتشبعها به ، تشبعاً يجعلها (مع البركات المترتبة عليه) جزءاً لا يتجزأ من كيانها .

(جـ) وإذا استعرنا لغتي الصوفية والوجودية الروحية ، يكون إيمان الخلاص هو اختراق النفس للحجاب واتصالها بالله ، ثم حصولها منه على الخلاص المذكور مع البركات المترتبة عليه ، بدرجة تجعلها تختبر هذه البركات وتتمتع عملياً بها . وما نقصده « بالحجاب » هنا ، هو ما يحجب النفس عن الله . وما يحجب النفس عن الله ، هو الطبيعة البشرية العتيقة التي لا تتوافق معه في شيء من صفاته الأدبية السامية . فاختراق

الحجاب إذاً هو الانصراف عن الجسد بما فيه من شر أو خير (إن كان فيه ثمة خير) ، لكي تكون النفس تحت تأثير الله دون سواه . وقد أشار إلى هذه الحقيقة كثير من الفلاسفة والمتصوفين ، فقال القديس يوحنا المتصوف الأسباني : « إن الإيمان هو اتصال النفس بالله واتحادها به » . وقال كيركجارد فيلسوف الوجودية الروحية « الإيمان هو إماتة النفس العتيقة أو (أنا) المادية المتمردة ، ثم بعث هذه النفس في (أنا) روحية جديدة ، تكون مقترنة بالله اقتراناً تاماً » . وقال برجسون الفيلسوف المشهور « الإيمان هو عمل النفس الفاعلة بذاته ، والمنفعلة مع الله في حالة الإنسجام الكلي معه . وهو وثبة ترق بالنفس إلى مجال فسيح الأرجاء ، كما أنه انجذاب نحو عالم أفضل يجعل النفس لا ترى إلا عظائم الأمور » . وقال غيره « إن أول الإيمان لقاء مع الله ، وآخره لقاء مع الله » .

٣ ــ **معنى الإيمان من الناحية المسيحية** : والإيمان بلغة المسيحية هو (أولاً) عودة الإنسان إلى حالة الطفولة التي تتجلى فيها النفس ببراءتها وصفاتها ، ثم تصديقه وهو في هذه الحالة « ما قام به المسيح من خلاص وما يعطيه من بركات » ، تصديق الأطفال الذي لا يشوبه شك أو ريب . ولذلك قال المسيح « الحق الحق أقول لكم : إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد ، فلن تدخلوا ملكوت السموات » (متى ١٨ : ٣) . (ثانياً) قبول المسيح في النفس ، فقد قال الوحي « وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه » (يوحنا ١ : ١٢) . وقبول المسيح لا يراد به فقط قبول عقيدة الخلاص الذي عمله المسيح على الصليب ، بل وأيضاً قبول شخصه بحالة روحية في أعماق النفس كما ذكرنا . (ثالثاً) الاعتماد على المسيح أو بالحري اراحة القلب والعقل عليه . فقد قال النبي لله « يا مخلص (جميع) المتكلين عليك » (مزمور ١٧ : ٧) . وقال أيضاً « يفرح جميع المتكلين عليك إلى الأبد » (مزمور ٥ : ١١) . وأيضاً « الرب فادي نفوس عبيده ، وكل من اتكل عليه لا يعاقب » (مزمور ٣٤ : ٢٢) .

٤ ــ **مميزات الإيمان الحقيقي** : مما تقدم يتضح لنا أن الإيمان الحقيقي ليس مجرد الاعتراف بالمسيح أو مجرد تصديق رسالته كحقيقة أعلنها الوحي وأيدها الاختبار ، لأنه إن وقف إيمان إنسان عند هذا الحد يكون إيمانه عقلياً فحسب . والإيمان العقلي ، وإن كان ينشىء في النفس اقتناعاً بحقيقة الخلاص ، لكنه لا يهيء لها سبيل الإفادة منه . فمثل الإيمان العقلي والحالة هذه مثل اقتناع الأعمى بجمال الطبيعة ، فإنه وإن كان

يعطيه صورة ذهنية عن هذا الجمال ، لكنه لا يهيء له السبيل للتمتع العملي به . وقد أعلن الوحي عن عدم فائدة هذا النوع من الإيمان ، فقال عن الشياطين إنهم يؤمنون ويقشعرون » (يعقوب ٢ : ١٩) ، ومع ذلك لا خلاص لهم على الاطلاق . كما أن القيام بالصلاة والصوم والصدقة ليس دليلاً على وجود الإيمان الحقيقي ، إذ من الجائز أن يقوم إنسان بالعملين الأولين بدافع من الغريزة الدينية وحدها ، وبالعمل الثالث بدافع من الشفقة الطبيعية دون غيرها ، ويكون في نفس الوقت بعيداً بقلبه عن الله كل البعد .

فالإيمان الحقيقي هو عمل باطني يشغل قوى النفس كلها ، لأن العقل الواعي يصدق المسيح ، والإرادة تقبله ، والعواطف تتأثر به ، والعقل الباطن يستريح إليه ، ويفيد منه ، وبذلك تولد النفس ولادة روحية تحصل بها على حياة جديدة تهيئها لمعرفة الله والتوافق معه والسلوك حسب مشيئته . وقد أشار الاستاذ ك. سامبسون إلى هذه الحقيقة فقال « إن الإيمان لا يتم بواسطة العقل فقط ، بل بواسطة النفس بأسرها . ومن ثم فإنه يشبع كل احتياجاتنا » . كما قال « إن الوجدان السليم يشترك مع العقل في الإيمان كل الاشتراك » . وقال شلر « إن البرهنة على صدق أمر ، تختلف كل الاختلاف عن الإيمان (الحقيقي) به . ولنحيا حياة مستقيمة يجب أن لا نسلم فقط بأن العقيدة الفلانية قد قامت عليها أدلة صادقة ، بل أن نصدق أولاً هذه الحقيقة وبعد ذلك أن نحياها بالإيمان » — ولا غرابة في ذلك ، فهناك أشخاص يبذلون كل جهدهم في البرهنة على وجود الله ، بينما تكون قلوبهم بعيدة عنه كل البعد .

أنَّ ابنَ الإنسانِ
لَمْ يأتِ لِيُخدَمَ بَلْ لِيَخدُمَ
وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِديَةً عَنْ كَثِيرِينَ
متى ٢٠ : ٢٨

ثانياً — أهمية الإيمان

١ — **أهمية الإيمان** : إذا رجعنا إلى حياة المسيح على الأرض ، نرى أن الإيمان كان يشغل جانباً كبيراً من تعليمه . فكان يقول لسامعيه « كل ما تطلبونه حينما تصلون ، فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم » (مرقس ١١ : ٢٤) . و« كل شيء مستطاع للمؤمن » (مرقس ٩ : ٢٣) . و« ليكن لكم إيمان بالله» (مرقس ١١ : ٢٢) . و« لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هنا فينتقل ، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » (متى ١٧ : ٢٠) يراد بالجبل الصعوبات التي تعترضنا في الحياة . ومن ثم كان ، بسبب محبته الشديدة في الإحسان إلى الناس ، يحرضهم على الإيمان به ، حتى ينالوا ما يحتاجون اليه من عطاياه . فمرة استدعوه لشفاء فتاة ، ولما وجد أنها فارقت الحياة ، قال لوالدها « لا تخف . آمن فقط فهي تشفى » ، ولما آمن شفيت (لوقا ٨ : ٥٠) . وعندما أتاه رجل يشكو من مرض في ابنه قائلاً له « إن كنت تستطيع شيئاً فتحنن علينا » ، أجابه المسيح على الفور « إن كنت تستطيع أن تؤمن . كل شيء مستطاع للمؤمن» . فلما وجد الرجل أن العيب فيه ، صرخ في الحال بدموع قائلاً « أؤمن يا سيد ، فأعن ضعف إيماني » . وفي الحال شفي ابنه من مرضه (مرقس ٩ : ٢٣ ، ٢٤) .

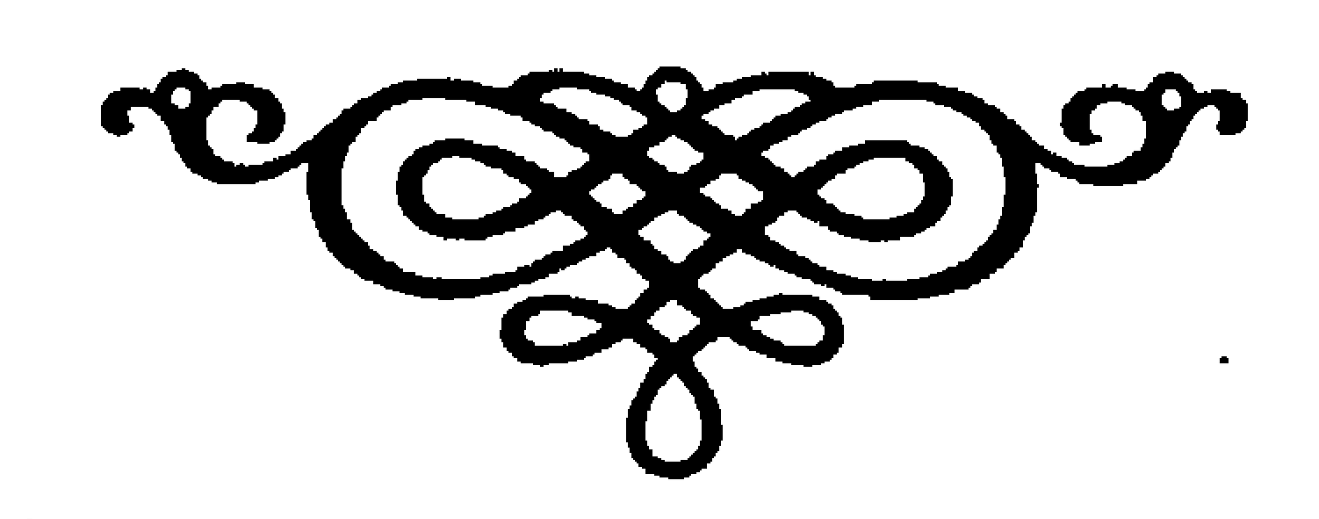
وكان للإيمان كل الأهمية لدى المسيح ليس في عمل المعجزات فحسب ، بل وأيضا في منح الغفران للخطاة النادمين على خطاياهم . فالمرأة الخاطئة التي ندمت على خطاياها قال المسيح لها : « مغفورة لك خطاياك . إيمانك قد خلصك . اذهبي بسلام » (لوقا ٧ : ٥٠) . والمفلوج الذي أتى به حاملوه إلى المسيح ، غفر له خطاياه وشفاه من أجل إيمانهم (مرقس ٢ : ٥) .

٢ — **السبب في أهمية الإيمان** : إن السبب في أهمية الإيمان يرجع إلى عاملين رئيسيين (الأول) إن الإيمان كما مرّ بنا هو فتح أبواب النفس لله وتهيئتها لقبول عطاياه ، أو بتعبير آخر هو الجو الروحي الذي يتناسب مع طبيعة الله ، وكيفية تداخله في مساعدة الناس . لذلك ففي هذا الجو وفيه وحده ، تجرى عطاياه اليهم . (الثاني) إن الإيمان كما مرّ بنا هو التصديق ، ومن ثم فمن يؤمن بأقوال الله ، فإنه يصدق الله ، ومن لا يؤمن بها فإنه (بكل أسف) يكذّب الله . فقد قال الوحي « ومن لا يصدق الله فقد جعله كاذباً » (١يوحنا ٥ : ١٠) ، ومن يكذب الله لا يمكن أن يجد خيراً من الله . ومن ثم لا عجب إذا كان الله لا يهب الخلاص إلا للذين يؤمنون إيماناً حقيقياً .

٣ ـــ الإيمان وعلاقته بالعقل : يظن بعض الناس أن المسيحيين يؤمنون بعقائدهم دون بحث أو تفكير . لكن هذا الظن لا نصيب له من الصواب ، فقد اتضح لنا مما سلف أنه لو كان هناك خلاص من قصاص الخطيئة ، فهو لا يمكن أن يتأتى إلا بواسطة الفداء الذي عمله الله لأجلنا في المسيح ، وأنه لو كان هناك مجال للتوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية ، فهو لا يمكن أن يتأتى إلا بواسطة الحياة الروحية التي يهبها الله لنا في نفوسنا ـــ حقاً إن هذين الأمرين يسموان فوق العقل ، لكنهما لا يتعارضـان معه على الاطلاق ، إذ أنه يستطيع البرهنة على صدقهما منطقياً ، كما يرى نتائجهما عملياً .

وقد اختبر هذه الحقيقة كثير من العلماء والمفكرين فقال شلر « إننا حينما نلجأ إلى الإيمان ، لا نلجأ إلى أمر يسلب العقل عمله ، بل إلى ما يجعل العقل أكثر تفكيراً وأعظم تأثيراً » . كما قال « الإيمان ليس عملاً عقلياً عادياً ، لأنه يتطلب مقداراً كبيراً من الإرادة والاختبار . وما الغرض من الفلسفة النظرية إلا أن تجعل الثورة الفكرية التي تحدث في عقل الإنسان ، إيماناً راسخاً . إذ أن المعرفة وحدها لا تجدي إذا كانت مجردة من الإيمان » . وقال همرشولد « كنت في أول الأمر لا أفهم المسيحية ، ولذلك كنت أقاومها في نفسي من وقت لآخر . لكن عندما أدركتها ، أصبحت أعتز بها أكثر من أي شيء في الوجود ، كما أصبح في وسعي البرهنة على صدقها دون أن أتجاوز مطالب الأمانة الفكرية » .

ومع كل ، وإن سما خلاص المسيح فوق العقل الواعي ، فالعقل الباطن يستطيع أن يدركه كل الإدراك ، ويطمئن له كل الاطمئنان ، بل ويستطيع أن يجابه اعتراض العقل الواعي من جهته إن كان له اعتراض ، ويقهر حجته إن كانت له حجة ، إذ أن الحقائق الروحية التي يختبرها العقل الباطن بناء على أقوال الله ، هي أثبت وأرسخ من حجج العقل الواعي جميعاً . لأن هذا العقل مع ما وصل إليه من نضوج ورقي ، لا يزال يجهل الكثير حتى من أمور الدنيا التي تقع تحت إدراكه وإحساسه .



— ٢ —

السبيل إلى الإيمان ودلائله

أولا — السبيل إلى الإيمان

قد يتم الإيمان الحقيقي في لحظة وقد يستغرق وقتاً طويلاً ، لكن على أي حال يجب أن تتوافر الشروط الآتية في كل من يريد أن يكون مؤمناً حقيقياً :

١ — **الرغبة الخالصة في الحصول على الخلاص** : وهذه الرغبة تتطلب من المرء أن يكون كارهاً للخطيئة وشاعراً بشناعتها وخطورتها ، وموقناً باستحقاقه للحرمان من الله إلى الأبد بسببها ، ولذلك ليس كل من يقول بفمه « ارحمني اللهم أنا الخاطيء » ، يحصل على الخلاص ، لأن العبرة ليست بالكلام بل بالحالة التي تكون عليها النفس . فالمرأة الخاطئة لم تخلص إلا بعد أن أحسّت بثقل خطاياها والتجأت إلى المسيح بكل قلبها (لوقا ٧ : ٣٦ — ٥٠) . وزكا لم يخلص إلا بعد أن أحسّ بحاجته إلى المسيح أكثر من المال (لوقا ١٩ : ١ — ١٠) . واللص لم يدخل الفردوس إلا بعد أن أدرك في نفسه أنه لا يستحق سوى الهلاك ، وأنه لا خلاص له إلا بواسطة المسيح (لوقا ٢٣ : ٤٣) . والذين آمنوا من اليهود في العصر الرسولي لم يتيسر لهم ذلك إلا بعد أن نُخسوا في قلوبهم ، وشعروا شعوراً عميقاً بشناعة جريمتهم التي اقترفوها ضد المسيح ، وآمنوا بعد ذلك من كل قلوبهم بشخصه الكريم (أعمال ٢ : ٣٧ — ٤١) .

٢ — **التوبة عن الخطيئة** : والشعور بشناعة الخطيئة يجب أن يكون مقروناً بالتوبة عنها ، أو على الأقل بالرغبة الصادقة في هذه التوبة ، وإلا فلا فائدة من هذا الشعور على الإطلاق . ولا يراد بالتوبة الندم على ارتكاب الخطيئة فحسب ، بل والتحول عنها والرجوع إلى الله أيضاً . فقد قال الوحي : إن الله يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا وأن يرجعوا إليه عاملين أعمالاً تليق بالتوبة (أعمال ١٧ : ٣٠ ، ٢٦ : ٢٠) . وإذا تعذر على إنسان أمر التوبة ، فليعلم أن الله على استعداد لمساعدته على بلوغها ، إذا كان راغباً في التحول عن الخطيئة من كل قلبه . فمكتوب أنه « يعطي التوبة » (أعمال ٥ : ٣١ ، ١١ : ١٨) ، ولذلك صرخ أحدهم لله قائلاً « توّبني فأتوب » (إرميا ٣١ : ١٨) ، فأعطاه التوبة .

٣ — **الاتجاه إلى المسيح** : إن الندم على ارتكاب الخطيئة والتوبة عنها أمران هامان ، لكنهما لا يخلصان من دينونة الخطيئة أو سلطانها الخفي على النفس ، لأن الذي يخلّص من هذين معاً هو المسيح دون سواه . لذلك على المرء أن لا يقف عند حد الندم على

الخطيئة والتوبة عنها ، بل أن يتجه بكل قلبه إلى المسيح ، الذي أحبه ومات على الصليب كفارة عنه ، فيفيد منه مثلما أفاد بطرس وبولس (إن كان مثلهما متديناً) ، أو مثلما أفادت المرأة الخاطئة والعشار (إن كان مثلهما مستبيحاً) ، لأن خلاص المسيح ليس لفئة خاصة من الناس ، بل لكل الناس دون استثناء . فقد قال الوحي عن المسيح إنه ذاق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد (عبرانيين ٢ : ٩) . وإنه كفارة لخطايانا ، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً (١يوحنا ٢ : ٢) .

٤ ـــ **قبول المسيح في النفس** : أما وقد توافر لدى طالب الخلاص أن الله يحبه بصفة شخصية ، وأن المسيح مات نيابة عنه بالذات مكفراً عن كل خطاياه مثل غيره من الناس ، فعليه أن يتجاوب مع المسيح ويقبله بالروح مخلصاً لنفسه وحياة لها ، فيصبح الخلاص للتو ملكاً له . ومن ثم له أن يفرح ما شاء له الفرح ، وأن يطمئن ما شاء له الاطمئنان . فقد أصبح من هذه اللحظة مبرراً أمام الله ، بل ومن أولاده المحبوبين الذين لهم السلام والفرح الكاملين معه ، والذين لا يمكن أن يأتوا إلى دينونة بل قد انتقلوا من الموت إلى الحياة .

ثانياً ـــ دلائل إيمان الخلاص

طبعاً ليس كل من يقول إنه مؤمن حقيقي هو كذلك ، لأنه كما يخدع الإنسان غيره قد يخدع أيضاً نفسه . لذلك لم يتركنا الوحي في ريب من جهة هذا الموضوع ، بل سجل لنا دلائل الإيمان الحقيقي بكل وضوح وجلاء ، وأهم هذه الدلائل ما يأتي :

١ ـــ **المحبة لله والتعبد له** : هذه هي أولى العلامات التي تدل على الإيمان الحقيقي . فقد قال بولس الرسول عنه إنه « الإيمان العامل بالمحبة » (غلاطية ٥ : ٦) ، وقال يوحنا الرسول : « نحن نحبه لأنه أحبنا أولاً » (١يو ٤ : ١٩) . وقال بولس الرسول : « لأن محبة الله انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا » (رومية ٥ : ٥) . وقال أيضاً « لأن محبة المسيح تحصرنا » (٢كورنثوس ٥ : ١٤) .

وهذه المحبة تقود المؤمن الحقيقي إلى الله من وقت لآخر لكي يسكب قلبه أمامه تعبداً وسجوداً ، ويصوغ له بتأثير الروح القدس في نفسه حمداً وشكراً كثيراً . وإن كان أمياً لا يستطيع التعبير عن آرائه في كثير من المسائل العامة ، لكن عندما يضع قلبه تحت تأثير الروح القدس ، تنبعث منه معان سامية يعجز عن صياغة مثلها كاتب ماهر .

٢ ـــ الصلاة : وبجانب العبادة والسجود ، فالمؤمن رجل صلاة . والعبادة هي تقديم الاكرام والسجود لله لما يتصف به من سجايا مثل المحبة والقداسة والقدرة والعلم بدرجة لا حد لها . أما الصلاة فهي طلب ما نحتاج إليه منه في هذه الحياة . لذلك فالعابد يقدم شيئاً لله ، أما المصلي فيطلب شيئاً منه ، سواء أكان هذا الشيء روحياً أم مادياً ، فالعابد (إن جازت المقارنة) أسمى حالاً من المصلي . ولا يصلي المؤمن لإله مجهول في عالم الخيال أو الفكر ، أو لإله في مكان قصي لا يمكن الاتصال الحقيقي به (كما هي الحال عند كثير من الناس) ، بل يصلي لإله حقيقي يعرفه حق المعرفة ، ويمكنه الاتصال بالروح اتصالاً فعلياً . كما أن الصلاة لديه ليس عادة يقوم بها بطريقة آلية ، أو مجرد فرض يقوم به كما يقوم العبد بواجب نحو سيده ، بل إنها مهمة حيوية لا يستطيع الاستغناء عنها بحال . فهي كما ذكرنا فيما سلف مثل الهواء بالنسبة لرئتيه ، والطعام بالنسبة إلى جوفه . فضلاً عن ذلك فإنه يجد في الصلاة متعة روحية فائقة ، إذ فيها يناجي الله ذاته ، ومن ثم يقضي الأوقات الطويلة فيها . وإذ استلزم الأمر فإنه يضحي عن طيب خاطر ببعض أعماله وأوقات راحته الخاصة ، في سبيل اطالة فرص الصلاة ، وذلك لأجل نفسه ونفوس الآخرين ، وقبل كل شيء لأجل مجد الله واكرامه (١تيموثاوس ٢ : ١ ، أفسس ٦ : ١٨) .

٣ ـــ دراسة كلمة الله : والمؤمن الحقيقي يدرس كلمةالله ليس كمجرد واجب من الواجبات ، أو لكي يعرفها ويلم بها كموضوع من الموضوعات ، بل قبل كل شيء لأنه يستمع فيها لصوت الله ، كما يجد فيها طعاماً شهياً لنفسه . ولذلك يدرسها بشغف وفهم ويسعى للهج فيها كثيراً . ومن ثم فهو صديق مخلص لكتاب الله ، تربطه به علاقة حية وصلة قوية ، لأنه يفهمه ويعرفه ويدأب على الرجوع إليه من وقت إلى آخر ، حتى يتشبع به ويسير على هداه .

٤ ـــ السلوك السماوي : ولتأثره بكلمة الله لا يحصر نظره في الأمور الزائلة التي تُرى ، بل في الأمور الباقية التي لا ترى . ومن ثم يحفظ نفسه في دائرة السماويات ، في حالة القداسة اللائقة بالله ، كما يسعى دائماً أبداً لتنفيذ إرادته مهما كان شأنها . ولذلك لا ينطق بعبارة نابية أو يلجأ إلى الهزل والمزاح ، أو يتصرف في شيء بنزق وطياشة ، بل تكون كل أقواله بنعمة وحكمة ، وكل أعماله بتعقل واتزان (أفسس ٥ : ٤ و١٥ ، تيطس ٢ : ٧) . وإن سقط في خطيئة مرة لسبب من الأسباب ، لا يمكن أن يظل فيها طويلاً (لأنها تتعارض مع الطبيعة الروحية الجديدة التي نالها من الله) ، بل ينهض للتو منها ، مسلماً حياته لله بأكثر تدقيق حتى يحفظه من كل عثرة

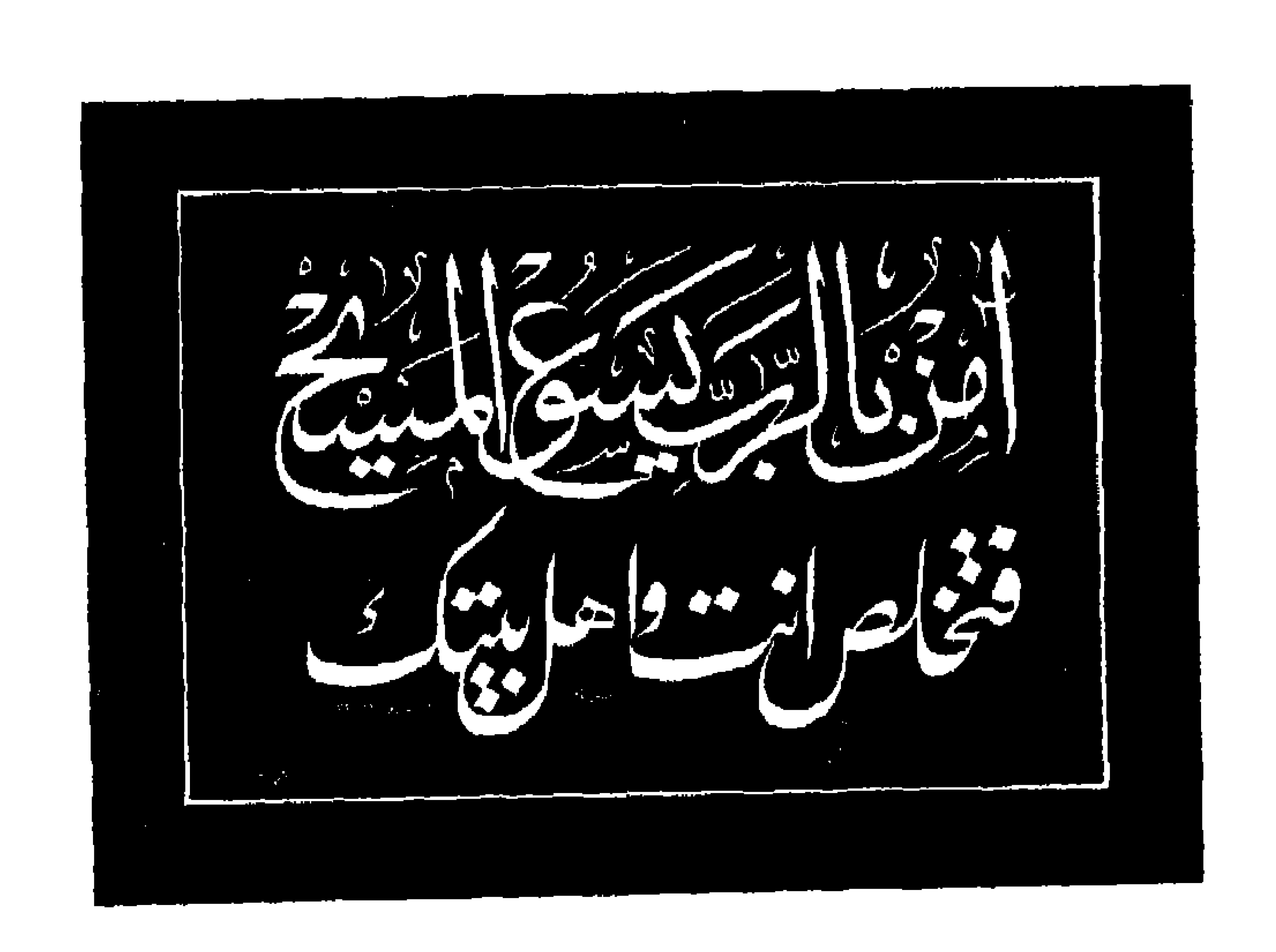
٥ — المحبة لجميع الناس : ولتأثره بالله وتشبعه بكلماته يتصف أيضاً بالكثير من صفات الله ، وفي مقدمتها المحبة . ومن ثم فإنه يحب جميع الناس حتى الذين يسيئون اليه منهم ، مثلما يفعل الله (متى ٥ : ٤٤) ، كما يحب من قلب طاهر بشدة كل المؤمنين الحقيقيين (١بطرس ١ : ٢٢) ، مهما اختلفت طوائفهم أو مراكزهم الاجتماعية ، لأنه يعرف أن له ولهم أباً واحداً هو الله (١يوحنا ٥ : ٢) ، ومخلصاً واحداً هو المسيح (أعمال ٤ : ١٢) ، كما سكن فيه وفيهم روح واحد هو الروح القدس (١كورنثوس ٣ : ١٦) .

كما يبذل كل ما لديه من جهد في اعلان نعمة الله للخطاة ، وذلك بالصلاة لأجلهم أو التحدث معهم ، حتى يفيد منها من يريد الفائدة . كما يمد يده إلى كل معوز ومحتاج ، وهو لا يرجو من وراء ذلك جزاء أو ثواباً ، إذ يكفيه شرفاً وسروراً أن يعمل عملاً لأجل مجد الله الذي أحبه إلى المنتهى الذي لا نهاية له .

٦ — الثقة الكاملة من جهة امتلاك الخلاص : أخيراً نقول : إن المؤمن الحقيقي لا يتسرب إليه شك من جهة كفاية كفارة المسيح ، بل يوقن أنها رفعت عن كاهله قصاص خطاياه وجعلته مقبولاً أمام الله ، ولذلك يستطيع أن يقول مع الرسول « إنه متيقن أنه لا موت ولا حياة ، ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ، ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ، ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى ، تقدر أن تفصلنا عن محبة الله (لنا) التي في المسيح يسوع ربنا » (رومية ٨ : ٣٨ — ٣٩) . وأن يقول أيضاً معه « إني عالم بمن آمنت ، وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتي (أي نفسي المستودعة بين يديه) إلى ذلك اليوم » (٢ تيموثاوس ١ : ١٢) . « لأننا نعلم أنه إن نُقض بيت خيمتنا الأرضي (أي أجسادنا المادية) ، فلنا في السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدي » (٢كورنثوس ٥ : ١) . و« الآن نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون . ولكن نعلم أنه إذا أُظهر (المسيح) ، نكون مثله لأننا سنراه كما هو » (١ يوحنا ٣ : ٢) .

والحق أننا مهما جلنا بأبصارنا في عقائد البشر وفلسفاتهم ، لا يمكن أن نجد فيها ما يبعث الينا يقيناً من جهة محبة الله لنا وقبوله إيانا إلى الأبد ، مثل اليقين الذي يبعثه المسيح . لأنه يبعث هذا اليقين إلينا ليس بناء على وعود عاطفية مجردة أو أقوال أخاذة منمقة ، بل بناء على كفارته الكاملة التي وفّت كل مطالب عدالة الله وقداسته . ومن ثم فكل مؤمن حقيقي يستطيع عن يقين صادق أن يستحضر أمامه المستقبل المجيد

الذي أصبح ملكاً له على أساس كفارة المسيح ، وأن يدخل أيضاً في هذا المستقبل بقلبه ويستريح في أرجائه ، شاكراً الله من أجل محبته التي تفوق كل محبة ، وجوده الذي يفوق كل جود ، وحكمته التي تفوق كل حكمة . فقد قال الرسول « شاكرين الآب الذي أهّلنا لشركة ميراث القديسين في النور . الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته . الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا » (كولوسي ١ : ١٢ ـ ١٤) . كما قال « وأقامنا (الآب) معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع ليُظهر في الدهور الآتية غنى نعمته الفائق باللطف علينا في المسيح يسوع » (أفسس ٢ : ٦ و٧) .





الباب الثامن
كفارة المسيح في نظر الفلاسفة والعلماء

— ١ —
آراء الفلاسفة والعلماء المسيحيين بالحق

لم يدرس كفارة المسيح رجال الدين المسيحي فحسب ، بل درسها أيضاً كثير من الفلاسفة والعلماء المسيحيين بالحق ، فعرفوا أهميتها الواردة في الكتاب المقدس ، كما اختبروا نتائجها المباركة في نفوسهم اختباراً صادقاً ، وفيما يلي بعض آراء هؤلاء الفلاسفة والعلماء :

١ — قال اكليمندس « لنتأمل دم المسيح ولنعرف قيمته التي تفوق كل قيمة ، فإنه ليس مثل دم الشهداء الذين يموتون من أجل الدفاع عن الحق (وإن كان دم هؤلاء غالياً وثميناً في أعيننا) ، بل إنه دم المحبة الإلهية المعروف قبل إنشاء العالم ، للتكفير عن خطايانا جميعاً » .

٢ — وقال ايريناوس « غاية الكفارة هي إيفاء مطالب العدل الإلهي نيابة عنا . والمسيح بموته على الصليب ، وفّى هذه المطالب ، ومن ثم كفّر عن خطايانا إلى الأبد » .

٣ — وقال اقليمس « إن المسيح تحمل آلام الخطيئة عوضاً عنا ، وبذلك خلصنا منها إلى الأبد » .

٤ — وقال اغناطيوس « نحن نؤمن أن المسيح مات عوضاً عنا من جهة الناسوت ، لكنه لم يمت من جهة اللاهوت ، لأن اللاهوت غير قابل للموت » .

٥ — وقال بابياس « إن اللوغوس (الكلمة) الذي خلقنا لم يتركنا وشأننا عندما أخطأنا ، بل أتى إلى عالمنا وخلصنا من خطايانا » [« اللوغوس » كلمة يونانية يراد بها « العقل المدبر للكون » ، وهي مرادفة في المسيحية لأقنوم الابن أو الكلمة ، الذي يعبر عن الله ويعلنه ، والذي خلق العالم ويدبره (يوحنا ١ : ٣ ، كولوسي ١ : ١٦)] .

٦ — وقال أوريجانوس « الله عادل ، والعادل لا يبرر الخطاة إلا إذا وفيت مطالب عدالته . وبما أنه لا يمكن أن يقوم بهذه المهمة سواه ، لأنه هو وحده الذي يعرف مطالب عدالته . لذلك رضي أن يحل في المسيح ليقوم بالمهمة المذكورة ، حتى يبرر كل خاطىء يؤمن به إيماناً حقيقياً » .

٧ — وقال أثناسيوس « الكلمة (أو بالحري المسيح) أتى إلى العالم ليس لكي يهلك الناس ، بل لكي يخلصهم من خطاياهم ، وذلك بتحمله في نفسه الدينونة التي يستحقونها بسبب هذه الخطايا » .

٨ ــ وقال أنسلموس مخاطباً المسيح « ماذا فعلت يا يسوع ، يا أبرع جمالاً من كل بني البشر ، حتى تموت موت الأئمة المجرمين !! أنت لم تفعل خطيئة على الإطلاق حتى تستحق الموت بسببها ، لكنك قبلت الموت بسبب خطاياي وخطايا غيري من الناس » .

٩ ــ وقال القديس أوغسطينوس « الخطيئة هي خطيئتنا ، وقصاصها كان يجب أن يحل بنا ، لكن المسيح حمل هذا القصاص عوضاً عنا ، وبذلك اعتقنا منه إلى الأبد »

١٠ ــ وقال القديس برنار : « المسيح وفّى مطالب العدل الإلهي نيابة عنا ، حتى ننال الصفح والغفران ونكون أهلاً للقبول أمام الله . لذلك فغاية فلسفتي هي أن أعرف يسوع المسيح وإياه مصلوباً ، لأن الصليب هو نقطة التقابل بيننا وبين الله في حب متبادل يدوم إلى الأبد .

١١ ــ وقال بطرس اللمباردي : « المسيح قدم نفسه لله كفارة عن خطايانا ، حتى لا يُدان كل من يؤمن به إيماناً حقيقياً » .

١٢ ــ وقال توما الأكويني : « لا يستطيع إيفاء مطالب عدالة الله إلا الله ، ومن ثم حل في المسيح للقيام بهذه المهمة العظيمة » . كما قال « إن كفارة المسيح أزالت الخطيئة التي كانت تفصل بيننا وبين الله ، لذلك صار لنا امتياز الدنو منه والتمتع به »

١٣ ــ وقال دكتور كلي كران : « السبب الذي جعلني أعتنق المسيحية هو موت المسيح كفارة عن خطايانا . فقد أدركت منذ سنوات أني انسان خاطىء ، وأنه ليس في وسعي أن أتبرر أمام الله بأي عمل من الأعمال الصالحة التي أقوم بها ، ولذلك كان يتملكني الأسى والحزن كثيراً . لكن لما تحققت أن المسيح مات نيابة عني ، حاملاً القصاص الذي استحقه بسبب خطاياي ، استراحت نفسي وامتلأت فرحاً وسلاماً »

١٤ ــ وقال القديس فرنسيس : « ربي يسوع المسيح ! إني ألتمس منك أن تهبني نعمتين قبل أن أموت (الأولى) أن أشعر في نفسي بالآلام التي قاسيتها على الصليب عوضاً عني ، حتى أكره الخطيئة مهما كان شأنها . و(الثانية) أن أشعر في نفسي بالمحبة العجيبة التي اضطرمت في قلبك من نحو شخص نظيري ، حتى أحبك كما أحببتني »

١٥ ــ وقال الرئيس جون كرتز : « المسيح المصلوب يشفي القلب الجريح ويريح الضمير المعذب ، لأنه يرفع عن المؤمن دينونة الخطيئة ويهيئه للدنو من الله والتمتع به »

١٦ ــ وقال فورسيت : « الآلام التي قاساها المسيح على الصليب هي أقسى أنواع الآلام ، لأنها ذات الآلام التي كنا نستحقها في جهنم إلى الأبد بسبب خطايانا . فلنضع هذه الحقيقة أمام نفوسنا ، وليكن لها التأثير العملي في حياتنا »

١٧ ــ وقال تيللور : « الله هو الذي خلقنا ، والذي خلقنا لا يمكن أن يهملنا . لذلك كان من البديهي أن يتنازل ويخلصنا من الخطيئة التي سقطنا فيها ــ وهذا هو ما فعله في المسيح على الصليب »

١٨ ــ وقال جون سكوت : « الكلمة (المسيح) هو الوسيط بين الله وبيننا ، لذلك فهو وحده الذي يستطيع أن يصالحنا مع الله ، وقد قام بهذا العمل عندما وفّى في نفسه على الصليب مطالب عدالة الله ، عوضاً عنا »

١٩ ــ وقال روبرت برونيز « إن حقيقة ظهور الله في المسيح لخلاص البشرية وإنقاذها من بؤسها ، تحل كل المشاكل التي تعترضنا من جهة موقف الله إزاء خطايانا ، وقصورنا عن التوافق معه ، كما تفسر لنا كل رموز التوراة وتحقق كل نبواتها . إذ لولا الحقيقة المذكورة ، لكنا نشكّ في كمال الله ومحبته ، ولكانت رموز ونبوات العهد القديم بلا معنى على الاطلاق »

وإننا لا نأتي بهذه الآراء كحجة نعتمد عليها في أن المسيح مات كفارة عن خطايانا ، لأن حجتنا الوحيدة في هذا الموضوع ، وفي غيره من الموضوعات ، هي كلمة الوحي التي بين أيدينا . وهذه الكلمة قد ثبت لنا صدقها بالكثير من الأدلة التاريخية والعقلية ، والاختبارية أيضاً . إنما نأتي بالآراء المذكورة لكي نعلن أن الإنسان عندما يفحص أعماق نفسه ، يدرك أنه خاطىء وأنه لا يتسنى له من تلقاء ذاته أن يكفر عن خطاياه أو يتوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية ، ومن ثم لابد أن ينتهي إلى أن الله وحده هو الذي يستطيع القيام بالكفارة ، وهو وحده الذي يستطيع أن يهب الحياة الروحية اللازمة لهذا التوافق .

— ٢ —

آراء الفلاسفة والعلماء المسيحيين بالاسم ، والرد عليها

هؤلاء الفلاسفة والعلماء يختلفون عن السابق ذكرهم ، فهم لم يفهموا المسيحية كما هي معلنة في الكتاب المقدس ، بل فهموها تبعاً لما أملته عليهم تصوراتهم الشخصية ، ولذلك تعدّدت آراؤهم وتضاربت كثيراً . وفيما يلي هذه الآراء مصحوبة بالرد عليها :

١ — [إن خلاص المسيح لنا لا يتوقف على موته على الصليب كما يُقال ، بل على تعاليمه السامية التي كشفت بحق عن ماهية الخطيئة ، ومن ثم اصبح لنا أن نتجنّبها في كل صورة من صورها]

الرد : وإن كان المسيح قد كشف لنا في تعاليمه السامية عن ماهية الخطيئة بدرجة لم نكن نتصورها ، غير أن مجرد معرفتنا بذلك لا تعطينا القدرة على الخلاص من الخطيئة أو ترفع عنا النتائج المترتبة على السقوط فيها ، بل بالعكس تزيدنا شعوراً بالحاجة إلى حياة إلهية تسمو بنا فوق قصورنا الذاتي ، حتى نستطيع التوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية . كما تزيدنا شعوراً بالحاجة إلى كفارة عظيمة تفي مطالب عدالة الله نيابة عنا ، حتى تهدأ ضمائرنا وتطمئن من جهة علاقته بنا — ولا غرابة في ذلك فإن معرفة المذنب بأنه يستحق القصاص ، لا تنجيه منه ، أو تؤهله للسلوك من تلقاء ذاته دون ارتكاب ذنب ما .

٢ — [المسيح أظهر على الصليب محبته الشديدة لنا لكي يحب بعضنا بعضاً كما أحبنا ، وبذلك نخلص من الأنانية التي هي السبب في كل الخطايا]

الرد : وإن كان موت المسيح في سبيل محبته لنا مثالاً عظيماً يدعونا لأن يحب بعضنا بعضاً ، لكن ليس من المعقول أن يكون قد مات لأجل هذا الغرض ، إذ أن في حياته العادية التي كان يحياها بيننا ما يكفي لتعليمنا هذا الدرس الثمين . فضلاً عن ذلك فإن الخلاص من الأنانية وأضرارها المتعددة لا يكون بمحاولة الاقتداء بالمسيح (لأن القصور الذاتي الكامن في طبيعتنا يحول بيننا وبين هذا الاقتداء) ، بل أن هذا الخلاص يكون بالحصول على حياة روحية من شأنها أن ترفعنا لدرجة التوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية — وهذه الحياة لا يعطينا الله إياها إلا بعد إزالة العداوة التي جعلناها بيننا وبينه ، ولا سبيل لإزالة هذه العداوة إلا بالتكفير عن خطايانا كما ذكرنا فيما سلف .

٣ — [المسيح رضى بالصلب لكي يرينا محبته لنا ، حتى نحبه بدورنا . وفي سبيل محبتنا له نكره الخطيئة ونمقتها]

الرد : ليس من المعقول أن يكون هذا هو كل غرض المسيح من احتماله آلام الصلب الشنيعة ، لأنه لم يكن ليتحملها لولا أنه رآنا معرضين لها وأراد هو أن ينقذنا منها . فالأب البار لا يضحي (مثلاً) بحياته من أجل أبنائه إلا إذا رآهم معرضين للموت ، وأراد هو أن ينقذهم منه . إما إذا كانوا غير معرضين له ، فإنه لا يضحي بحياته لكي يظهر فقط محبته لهم . كما أن المحبة لله والقدرة على الارتقاء فوق الخطيئة ، لا تتولدان من مجرد المعرفة بأن المسيح يحبنا ، بل بواسطة الولادة الثانية من الله ، والدليل على ذلك أن المؤمنين بالاسم يعرفون أن المسيح يحبهم ، ومع ذلك لا يستطيعون أن يحبوه أو يرتقوا فوق الخطية الكامنة في طبيعتهم .

٤ — [المسيح رضي بالصلب لكي يعلمنا أن السبيل إلى السماء هو التضحية بكل غال ونفيس]

الرد : إن المسيح لا يتحمل آلام الصلب لكي يكون مجرد مثال يبين لنا وجود التضحية ، لأنه علمنا هذا الدرس الثمين في أقواله ، كما علمنا إياه في حياته المثالية التي عاشها بيننا على الأرض . فضلاً عن ذلك فإن التضحية بكل غال ونفيس في الدنيا ، لا تكون بمجرد التقليد ، بل بالحصول على حياة روحية يكون من طبيعتها الارتقاء فوق الذات بكل مطالبها . وهذه الحياة لا يمكن الحصول عليها إلا من الله ، ولا يمكن أن يمنحها الله لنا إلا بعد التكفير التام عن خطايانا كما ذكرنا .

٥ — [المسيح رضي بالصلب لكي يرينا كراهية الله للخطيئة وما يستحقه الخطاة من عذاب ، حتى نتوب عنها »

الرد : إن التوبة عن الخطيئة (كما ذكرنا في الباب الثاني) لا تكفي للحصول على الغفران أو التأهيل لحياة التوافق مع الله ، لأن السبيل الوحيد لذلك هو التكفير عن الخطيئة والحصول على حياة روحية تسمو بنا فوق قصورنا الذاتي . كما أنه ليس من المعقول إطلاقاً أن يقبل المسيح آلام الصلب لكي يكون مجرد مثال لما يستحقه الخطاة من عذاب ، إذ أن في أقواله وأقوال الأنبياء والرسل ما يكفي لإثبات هذه الحقيقة .

٦ — [إن كفارة المسيح التي سترت خطايا البشر تكمن في حياة البر المطلق التي عاشها على الأرض ، والتي انتهت بتقديم نفسه شهيداً من أجل الحق . لأن هذه الحياة هي التي أرضت الله ، فصفح عن البشر جميعاً]

الرد : حقاً إن المسيح عاش حياة البر المطلق ، وحقاً إن هذه الحياة أرضت الله أكثر مما نفتكر أو نتصور . لكن يجب أن لا يغيب عنا أنه لو كان المسيح مات فقط شهيداً من أجل الحق ، لكان الله يسر به وحده ويمجده وحده ، ولكننا جميعاً نظل كما نحن في خطايانا ، عاجزين عن التوافق مع الله وواقعين تحت طائلة قصاصه . لكن إذا كان موت المسيح موتاً كفارياً (كما أعلن الكتاب المقدس) ، فإن الله يصفح عن خطايانا ويهيئنا للتوافق معه .

٧ — [إن المسيح بموته على الصليب لم يقم بإيفاء مطالب عدالة الله نيابة عنا ، لأن هذه المطالب لا حد لها ، بل إنه فقط استمال عطف الله حتى يغفر لنا خطايانا . ومن ثم فإن آلامه ليست عقوبة تعويضية ، إنما هي تعويض عن العقوبة القانونية]

الرد : لو كان المسيح قام بالكفارة بمعزل عن الله لكان هناك مجال لهذا الاعتراض . لكن الأمر لم يكن كذلك ، لأن الله نفسه كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه (٢ كورنثوس ٥ : ١٩) ، والله لكماله وتوافق كل صفاته لا يكون متساهلاً في شيء من مطالب عدالته .

٨ — [المسيح رضي بالصلب كما رضي سقراط بالسم ، لكي يكتب لنفسه الخلود وترسخ مبادئه في نفوس البشر]

الرد : (ا) إن جاز أن يقال عن سقراط إنه رضي بالسم لكي يكتب لنفسه الخلود ، لا يجوز أن يقال ذلك عن المسيح من جهة قبوله للصلب ، لأن المسيح كان بعيداً كل البعد عن مظاهر العظمة الدنيوية التي يسعى إليها كثير من الناس . والدليل على ذلك أننا إذا رجعنا إلى تاريخ حياته ، نرى أنه لم يكن يعمل معجزة ليرضي الناس أو لتكون له الحظوى لديهم (لوقا ٢٣ : ٨ و٩) ، بل كان يقوم بها بدافع الشفقة على المرضى والمتألمين والمحتاجين ، دون أن ينتظر من أحد مديحاً أو جزاء .

فضلاً عما تقدم فإن المسيح لم يكن يسعى إلى الخلود ، لأنه كان يحمل (حتى من الناحية الإنسانية) دلائل الخلود في نفسه بسبب كماله المطلق وتنزهه عن الخطيئة تنزهاً تاماً . اضف الى ذلك انه لم يُرغم على الصلب مثلما أرغم سقراط على شرب السم ، بل تقدم للصلب بمحض اختياره كما يتضح من (يوحنا ١٠ : ١٧ و١٨)

(ب) أما من جهة رسوخ مبادىء المسيح في نفوسنا ، فلا يتحقق على الإطلاق بمجهودنا الذاتي تحت التأثر بصلبه ، فكثيرون يتأثرون بالصليب لكنهم لا يعملون بشيء

من وصايا المسيح ، إذ أن العمل بها لا يتأتى إلا بواسطة الحياة الروحية التي يمنحنا الله إياها عندما نسلم نفوسنا له تسليماً كاملاً . فضلاً عن ذلك فإن رسوخ هذه المبادىء في نفوسنا لا يخلصنا من قصاص خطايانا ، لأنه لا خلاص لنا منه إلا بإيفاء مطالب عدالة الله وقداسته من نحونا ، ولا سبيل إلى إيفائها إلا بالفداء الذي عمله المسيح ، كما ذكرنا .

مما تقدم يتضح لنا أن أصحاب الآراء السابقة لم يفهموا شيئاً عن الكفارة وضرورتها ، وكل ما عرفوه من آلام المسيح على الصليب ، أنها آلام الاستشهاد في سبيل الحق . ولا شك أن هذه الآلام تؤثر في نفوس بعض الناس ، فتصرفهم عن الإثم والشر ، كما تفعل التضحية التي يقوم بها المخلصون من القادة والزعماء . فمثلاً عندما كان غاندي يرى أتباعه قد انحرفوا عن تعاليمه ، كان يحزن في نفسه كثيراً ، ويمتنع عن الطعام أمداً طويلاً ، فكانوا يندمون على انحرافهم ويعودون للسير فى الطريق الذي رسمه لهم . وقد أشار أفلاطون قديماً إلى تأثير التضحية في نفوس الناس فقال في كتابه (السياسة ج ٤ ص ٧٤) ما ملخصه « إن الإنسان الكامل الذي دون أن يفعل شراً ، يقبل على نفسه أقسى أنواع الظلم ، فيحتمل الجلد والضرب حتى الموت ، هو الذي يستطيع أن يعيد حياة البر إلى البشر » وليس البر الذي ارتآه أفلاطون هو التوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية ، بل هو فقط الكف عن الجرائم الشنيعة — وهذا ما يفعله حتى الأشرار عند تأثرهم بوفاة أحد أقربائهم ، أو بنزول بعض الكوارث بهم . أما التوافق مع الله في صفاته المذكورة ، فلا يكون إلا بعمله في نفوس المؤمنين الحقيقيين . وقد احتمل المسيح الصلب لغرض أسمى من هذا بكثير ، وهذا الغرض كما ذكرنا مراراً وتكراراً ، هو التكفير عن خطايانا وامدادنا بحياة روحية تؤهلنا للتوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية إلى أبد الآباد .

— ٣ —

الاعتراضات الدينية والرد عليها

١ — [لماذا تفرد الابن أو الكلمة بعمل الفداء ؟ وألا يدل تفرده بالقيام به على أنه يحب البشر أكثر من الآب والروح القدس ؟]

الرد : (١) إن « ابن الله » أو « كلمة الله » هو الذي يعلن الله ويتمم مقاصده لذلك فهو الذي خلق العالم وكل ما فيه ، فقد قال الوحي عنه « كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » (يوحنا ١ : ٣) ، وأن « فيه خُلق الكل . ما في السموات وما على الأرض » ، وأن « الكل به وله قد خُلق » (كولوسي ١ : ١٦) . ومن خلق العالم ، هو الذي يهتم شخصياً به وبكل ما فيه . ومن ثم فالابن أو الكلمة هو الذي كان يظهر للأنبياء في العهد القديم ، ليعلن لهم مشيئة الله أو اللاهوت من جهة محبته للبشر ورغبته في تقريبهم اليه ، ومنحهم كل ما يحتاجون إليه من بركات ، كما ذكرنا فيما سلف . واذا كان الأمر كذلك ، كان من البديهي أنه هو بعينه الذي يتجسد أيضاً ، ويعلن في نفسه محبة الله وخلاصه لنا من الخطيئة ونتائجها .

(ب) أما من جهة « الآب » و« الروح القدس » ، فإن محبتهما لنا لا تقل عن محبة « الابن» ، لأنهما واحد معه في الجوهر ، وفي كل الصفات والخصائص والأعمال ، وكل ما في الأمر أن كل أقنوم يُظهر من أعمال اللاهوت ما يتوافق مع أقنوميته . لذلك وإن كان « الابن » هو الذي قام أمامنا بالفداء ، غير أن هذا العمل يسند إلى الله بأقانيمه الثلاثة . فقد قال الوحي إن الله (أو بالحري اللاهوت) كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم (٢ كورنثوس ٥ : ١٩ — ٢١) . كما أن الابن وإن كان قد بذل نفسه ، لكنه لم يقم بهذا العمل بالاستقلال عن الأقنومين الاخرين ، لأنه واحد معها في الجوهر . ولذلك يعلن الوحي أن الابن بُذل بواسطة الله (يوحنا ٣ : ١٦) ، وأنه بالروح القدس قدم نفسه أو بذلها (عبرانيين ٩ : ١٤) — ومما يثبت أن كلاً من الآب والروح القدس يحبنا كالابن تماماً ، أن الوحي أعلن لنا أن الآب نفسه يحبنا (يوحنا ١٧ : ٢٣) ، وأن الروح القدس هو روح المحبة (٢ تيموثاوس ١ : ٧) ، وأن الله من جهة أقانيمه الثلاثة هو « محبة » (١يوحنا ٤ : ٨)

٢ — [إذا كان الله لا يصلب ولا يموت ، فكيف يكون هو الذي افتدانا ؟]

الرد : (ا) نظراً لأن الله (أو اللاهوت) كان حالاً في المسيح حلولاً مطلقاً فمكتوب « فإن فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً » (كولوسي ٢ : ٩) ولذلك نرى في أعمال

المسيح ما هو خاص بالناسوت وما هو خاص باللاهوت . فمثلاً عندما كان يبحر مرة مع تلاميذه ، نام في السفينة ـــ فهذا النوم كان طبعاً بالناسوت لأن اللاهوت لا ينام . ولما انتهر الريح والبحر بعد ذلك فصار هدوء عظيم (متى ٨ : ٢٤و ٢٦) كان العامل حينئذ هو اللاهوت ، لأن الله هو الذي يأمر الطبيعة فتخضع له ـــ إذاً فكل عمل أتاه المسيح ، يكون الله هو الذي أتاه ، وكل شيء قوبل المسيح به في العالم ، يكون الله هو الذي قوبل به . ولذلك فالله وإن لم يكن قد صُلب أو مات ، لكن بقبوله تنفيذ الصلب في الناسوت الذي كان حالاً فيه (مع قدرته التامة على تجنيب الناسوت هذا الصلب لو كان قد أراد) ، يكون هو الذي قبل آلام الصلب ، وبالتبعية يكون هو الفادي الذي فدانا .

(ب) ولإيضاح هذه الحقيقة إلى حد ما نقول : إذا ارتدى ملك ثياب عامة الناس وخرج إليهم كواحد منهم ، ليقرّبهم إليه ويعرف مشاكلهم ويقدم لهم كل معونة يحتاجون إليها ، كما كان يفعل هرون الرشيد مثلاً ، وفي أثناء القيام بهذه المهمة الجليلة ، اعتدى عليه بعض الأشرار وأهانوه . فإن هذه الإهانة لا تكون قد وقعت على شخص عادي ، بل على ذات الملك . وعلى هذا القياس ، مع الفارق الذي لابد منه نقول : إن آلام الصليب وإن كانت قد أصابت الناسوت الظاهر لنا ، لكنها تعتبر في الواقع أنها أصابت الله غير الظاهر لنا ، وذلك بطريقة لا يدركها سواه . ومن ثم قال الوحي عن دم المسيح الذي سُفك على الصليب إنه « دم الله » (أعمال ٢٠ : ٢٨) ، كما قال عن الله نفسه ، إنه مخلصنا (تيطس ١ : ٣)

٣ ـــ « هل من الجائز أن يُنسَب الألم إلى الله ؟ »

الرد : (ا) لو كان الله مجرد فكرة أو طاقة أو كائناً لا يتصف بصفة ، كما يقول بعض الفلاسفة ، لما جاز أن ننسب إليه الألم (أو السرور) بأي معنى من المعاني .

لكنه كائن حقيقي يتَّصف بكل صفات الكمال ، وفي الوقت نفسه يتصل بنا كل الاتصال ، ولذلك فإنه ، كما يُسَرُّ على نحو يتفق مع روحانيته المطلقة ، بالأعمال الصالحة التي يقوم بها المؤمنون الحقيقيون ، كذلك يحزن على نحو يتفق مع روحانيته المطلقة ، بسبب الشرور التي تصدر من غيرهم وما يترتب عليها من حلول التعاسة بهم . (تكوين ٦ : ٦ ، مزمور ٧٨ : ٤٠ ، اشعياء ٦٣ : ١٠) . وإذا كان من الممكن أن يحزن الله على نحو ما ، يمكن أيضاً أن يتألم على نحو ما ، لأنه لولا ذلك لكان مجرداً من الشعور والإدراك ، وهذا محال .

وكان من البديهي أن لا تظل آلام الله بسبب خطايانا سراً فيه ، بل أن يعلنها لنا بوضوح وجلاء . والواسطة الوحيدة لإعلانها هو « كلمته » أو « ابنه » ، لأنه هو الذي يعلنه كما ذكرنا . فالله في ابنه اظهر محبته لنا ، وكشف عن الآلام التي كان يحس بها منذ القديم بسبب خطايانا . أو بتعبير آخر جسَّم لنا الفداء الكامن في نفسه ، والذي لم نكن نراه أو نعرف عنه شيئاً سوى اسمه . فيمكننا أن نقول عن يقين إنه لولا المحبة التي لا حدّ لها الكامنة في الله ، لما كان يتألم لآلامنا ، ولما كان أيضاً يكفّر عن خطايانا ـــ هذا مع العلم بأن « تألمُ الله بسبب هذه الخطايا » لا يقلل من مجده ، بل بالعكس يزيده مجداً في أعيننا . ولا يقلل من كماله ، بل بالعكس يعلن هذا الكمال لنا في أسمى معانيه . لأن هذا التألّم يؤكد لنا أن الله ليس غريباً عنا أو غير مبالٍ بنا ، بل أنه قريب منا يعطف علينا ويرثي لنا ويهمّه أمرنا .

أخيراً نقول إن تأثر الله لم يكن متوقفاً على ظهورنا في العالم ، بل إن مبدأ التأثر كان موجوداً في ذاته أزلاً ، لأنه قائم بأقانيم ، والأقانيم من شأنهم أن يتأثر أحدهم بالآخر . ولذلك عندما تألم الله على نحو ما بسبب ما بدا منا من شر ، لم ينفعل كما ننفعل نحن ، بل أظهر فقط عدم رضاه على هذا الشر ، لأن عدم الرضا به هو وجه من وجوه الكمال الذي يتصف به من الأزل إلى الأبد .

٤ ـــ [هل من العدالة أن يحل الله في الانسان يسوع المسيح ويدفعه لتحمُّل آلام الصلب المريرة ، ليكفّر فيه عن البشر ؟]

الرد : إن الله لم يدفع المسيح إلى الصلب رغماً عنه كما كانت تساق الحيوانات للذبح كفارة في العهد القديم ، حتى كان يجوز القول إن هذا التصرف لا يتفق مع عدالة الله . لكن ما حدث هو أن الله دبر منذ الأزل أن يقوم بعمل الفداء . وفي الوقت المناسب لنا ، اتخذ من المسيح ناسوتاً له وذهب فيه إلى الصليب ليحمل خطايا البشر ويكفر عنها بنفسه . وقد أدرك المسيح من الناحية الناسوتية هذه الحقيقة إدراكاً تاماً ، وتوافق مع الله الحال فيه كل التوافق من جهتها ، وأطاعه كل الطاعة في إتمامها ، ومن ثم لا يكون الله قد ظلم المسيح من الناحية الناسوتية على الإطلاق .

فضلاً عن ذلك فقد قدّر الله طاعة المسيح من الناحية الناسوتية كل التقدير ، فكافأه من ناحيتها بأجل مكافأة . فقد قال الوحي « لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم ، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب » (فيلبي ٢ : ٩ ـــ ١١) ، فلا مجال لهذا الاعتراض على الإطلاق .

٥ ـــ [إذا كان المسيح قد توافق مع الله كل التوافق من جهة الفداء ، فلماذا طلب منه في بستان جثسيماني أن يجنبه الصلب في أول الأمر ؟ وأليس قوله للآب وقتئذ « لكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت » دليلاً على أنه قبل آلام الصلب مرغماً ؟ فضلاً عن ذلك ألا يتعارض حزنه وقتئذ مع القول إنه قام بالفداء برضى وسرور ؟]

الرد : (ا) إن المسيح بسبب كماله المطلق طلب من الله أن يجيز عنه كأس الصلب إن أمكن ـــ لأنه من الناحية الناسوتية كان يحسّ بالألم كما نحس به نحن ، ومن ثم كان يأبى عليه طهره الفائق أن تحسب عليه خطايانا ، ومركزه الرفيع أن ينحني ليحمل في نفسه قضاءها وعقوبتها ، ومجده العظيم أن تحل به لعنتها وفضيحتها ، واحساسه الرقيق أن يذوق مرارتها التي تفوق العلقم بما لا يقاس . ولكن لأنه لا يمكن أن يتمجد الله ويخلص الناس دون تجرع المسيح لكأس الصلب ، لذلك فإنه بسبب كماله المطلق أيضاً رضي بها عن طيب خاطر إتماماً لمشيئة الله الصالحة .

هذا ، وقد قدّر الله موقف المسيح حق التقدير . لذلك وإن كان لم يجز عنه هذه الكأس ، غير أنه أرسل له ملاكاً ليعضد جسده الذي كان قد دب فيه الضعف بسبب الإحساس بمرارتها (لوقا ٢٢ : ٤٣) ، ومن ثم نهض بكل قوة واستقبل آلام الصلب المريعة ببطولة تنحني أمامها كل بطولة .

(ب) ومن جهة تسليم المسيح الأمر لإرادة الآب، فليس دليلاً على قبولها مرغماً ، بل دليلاً على أنه جعل إراداته الإنسانية بما لها من مطالب خاصة ، طبق الأصل من إرادة الآب ، على الرغم مما يتطلبه تنفيذها من تحمل قصاص الخطيئة الأبدي نيابة عن البشر جميعاً ، وعمل مثل هذا عمل عظيم لم يكن لغير المسيح أن يقوم به ، ونصر مبين لم يكن لغيره أن يحققه .

(جـ) أما من جهة حزن المسيح فنقول : « إنه ليس هناك أي تعارض بين السرور الروحي وبين الحزن والألم ، لأن هذا السرور ليس هو الطرب والمرح ، بل هو الرضا بالقيام بالواجب من نحو الله والناس بكل محبة وإخلاص . لذلك فإنه لا يكون خالياً من الحزن والألم بل خالياً من التضجر والتذمر . والاختبار يعلمنا هذه الحقيقة ، فنحن نرى الآباء البررة مع تحملهم المتاعب والآلام في سبيل خدمة أبنائهم ، والجنود المخلصين مع تحملهم المشقات المتعددة في سبيل إعلاء شأن بلادهم ، يشعرون جميعاً في قرارة نفوسهم بكل غبطة وسرور على الرغم من كل ما يتحملون من آلام . فليس هناك مجال للاعتراض على أن المسيح كان مسروراً بآلام تقديم نفسه كفارة .

وقد أشار الله إلى هذه الحقيقة في بعض الذبائح ، التي كانت ترمز إلى المسيح في العهد القديم . فذبيحة المحرقة التي كان يتطوع صاحبها بتقديمها لله لمجرد إكرامه وتمجيده دون الارتباط بخطيئة ما ، كانت مراسيمها تدل على الفرح (لاويين ١) . أما ذبيحة الخطيئة أو الإثم ، التي كان الخاطىء يقدمها كفارةعن نفسه فكانت مراسيمها تدل على الحزن (لاويين ٤) ، الأمر الذي كان ينبيء منذ القديم عن اقتران فرح المسيح لتحقيق مقاصد الله وتمجيده ، مع حزنه لتحمل قصاص الخطيئة وشناعتها .

٦ ــ [إذا كان المسيح قد قام من الناحية الناسوتية بالفداء طاعة لأمر الله ، يكون الله وحده هو الذي يستحق المحبة والاكرام] .

الرد : إذا كان المسيح قد قام بالفداء لمجرد الطاعة لأمر الله ، لا يكون قد قام به برضا ، ولا يكون الله قد ضحى بشيء ، فلا يكون أحدهما يستحق المحبة أو الاكرام . وإذا كان الله قد أرغم المسيح على احتمال الآلام لكي يُحبه الناس ، لا يكون مستحقاً للمحبة بل للبغضة ، ويكون المسيح مستحقاً للعطف والشفقة . وإذا كان المسيح قد قام بالفداء بمعزل عن الله ، لكان هو وحده الأولى بالمحبة (لأننا لا نحب شخصاً لما عمله شخص آخر) ، غير أنه يكون في هذه الحالة قد سلب من الله مجده ، إذ يكون قد نال من دونه إكرام الناس ومحبتهم ــ ولكن الحقيقة هي أن الله نفسه كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه (٢ كورنثوس ٥ : ١٩) ، وأن المسيح حتى بوصفه ابن الانسان كان مسروراً كل السرور بهذا العمل ، ولذلك ليس هناك مجال لهذا الاعتراض .

٧ ــ [إذا كان المسيح مات كفارة ، فليس من المعقول أن يكون قد كفّر فقط عن خطايا المؤمنين الحقيقيين ، بل لابد أن يكون قد كفر أيضاً عن خطايا البشر جميعاً . وبناء عليه لا يكون هناك داع للإيمان الشخصي به] .

الرد : (ا) إن لكفارة المسيح طرفين (الأول) متعلق بالله من جهة إيفاء مطالب عدالته وقداسته ، وعلى أساسه يقدم الخلاص لكل الناس دون استثناء ، فقد قال الوحي : « هكذا أحب الله العالم (أجمع) حتى بذل ابنه الوحيد » . (الثاني) متعلق بالناس من جهة استعدادهم لقبول المسيح ، أو بالحري الإيمان الحقيقي به . فقد قال الوحي : « لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يوحنا ٣ : ١٦) .

(ب) أما من جهة الشطر الثاني من الاعتراض فنقول : كلنا يعلم أن الهدايا (مثلاً) وإن كانت تُقدم مجاناً لمن تُهدى إليهم ، غير أن تمتعهم بها يتوقف على قبولهم إياها . وهكذا الحال من جهة الخلاص من الخطيئة .

— ٤ —

الاعتراضات العقلانية والفلسفية والرد عليها

١ — [المسيح لا يجوز أن يكون نائباً عنا ، لأنه ولد من امرأة دون رجل . ولو جاز أن يكون نائباً ، فإنه لا يكون إلا نائباً عن الرجال وحدهم ، لأنه كان رجلاً]

الرد : فضلاً عن أن ولادة المسيح العذراوية ضرورة اقتضتها أزليته وقيامه بحياة ذاتية خاصة به ، وفضلاً عن أن التفرقة بين الرجل والمرأة هي تفرقة نسبية في الوقت الحاضر فحسب ، لأنهما معاً في نظر الله بشر ، إذ أن كلا منهما إنسان (١كورنثوس ١١ : ١١) ، الأمر الذي لا يدع مجالاً لهذا الاعتراض نقول :

(أولاً) إن المسيح لا يُدعى ابن رجل أو ابن امرأة ، بل يدعى « ابن الإنسان » أي الذي تمثلت فيه الإنسانية كنائبها (ثانياً) إن حواء ليست كائناً منفصلاً عن آدم بل كانت في الأصل جزءاً منه ، حتى أن الوحي ينسب الخطيئة إلى آدم وحده ، فيقول : في آدم يموت الجميع (١كورنثوس ١٥ : ٢٢) . (ثالثاً) إن المسيح لم يفرق بين رجل وامرأة من جهة العلاقة به ، فقد قال « لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات ، هو أخي وأختي وأمي » (متى ١٢ : ٥٠) ، ولذلك لا مجال لهذا الاعتراض كما ذكرنا .

٢ — [لو كان الله يريد أن يكفر عن خطايانا في المسيح ، فلماذا لم يقم بهذا العمل بينه وبين المسيح ، دون أن يكون لأحد من البشر يد في صلبه ؟]

الرد : إن الهدف الذي كان الله يرمي إليه ، ليس أن يكفر عن خطايانا فحسب ، بل أن يكشف لنا أيضاً عن مقدار الشر الكامن في نفوسنا من نحوه ، وعدم استحقاقنا لأي محبة أو عطف منه ، حتى نقدّر كفارته حق التقدير . لذلك سمح لنا أولاً أن نعامله بكل شر يمكن أن يخطر ببالنا ، قبل أن يعلن لنا كرد على هذه المعاملة ، مقدار محبته لنا وعطفه علينا ، حتى بضدها تتميز الأمور ، كما يقولون . أما لو كان الله قد كفر عن خطايانا في المسيح بعيداً عن الصليب ، لما اكتشفنا مقدار شر نفوسنا وعدم استحقاقنا لأي احسان منه ، ولما عرفنا أيضاً محبته الفائقة التي لا نستحق منها شيئاً ، أو أدركنا قدراً زهيداً من الآلام التي تحملها بسبب خطايانا . لذلك إذا رجعنا إلى التاريخ ، نرى المخلصين من اليهود وغير اليهود تأثروا بصلب المسيح تأثراً عظيماً ، فأقبلوا إليه وآمنوا به إيماناً حقيقياً ، كما أحبوه وأكرموه بدرجة لم يكن لهم أن يبلغوها ، لو كان

قد قدّم نفسه كفارة بعيداً عنهم . فتحقق بذلك قول المسيح « وأنا إن ارتفعت (على الصليب) أجذب إليّ الجميع » (يوحنا ١٢ : ٣٢) .

٣ ـــ [إذا كان الله يحب جميع الناس ، لماذا سمح أن يأتي المسيح من اليهود دون غيرهم ، لأن في تصرفه هذا تحيزاً لأمة دون أخرى] .

الرد : فضلاً عن أنه لو لم يأت المسيح من أمة اليهود لكان قد أتى من أمة غيرها ، وفي هذه الحالة يمكن أن يقال أيضاً عنه إنه تحيز لأمة دون أخرى ، الأمر الذي لا يدع مجالاً لهذا الاعتراض نقول : إن الله ظهر في أول الأمر لواحد من الوثنيين (لأنه لم يكن هناك سواهم على وجه الأرض وقتئذ) يُدعى إبراهيم ، فآمن هذا به إيماناً صادقاً ، ثم دعاه الله إليه ، فأطاعه طاعة كاملة . وتقديراً لإيمانه وطاعته وعده أن في نسله ستتبارك كل أمم الأرض دون استثناء (تكوين ١٢ : ٣) . وبذلك لم يكن الله متحيزاً لجنس من الأجناس أو شخص من الأشخاص . ولما وُلد لإبراهيم اسماعيل واسحق ، خصّ الله أبناء الأول ببركات أرضية ، وخصّ أبناء الثاني ببركات روحية ، ولذلك كان يرسل لهم الأنبياء من وقت لآخر ليعلنوا لهم مشيئته من جهة الفداء ، حتى يتهيئوا لقبول المسيح عند مجيئه إليهم . ولذلك إذا رجعنا إلى تاريخ اليهود نرى أن الأتقياء منهم كانوا يتوقعون مجيء المسيح إلى العالم (لوقا ٢ : ٢٥ ، ٢٦) وبمجرد أن رأوه رحبوا به (يوحنا ١ : ٤٧ ـــ ٤٩) ، بينما لو كان المسيح قد أتى من أمة أخرى لم تكن لديها نبوات عن المسيح ، لما وجد فيها من ينتظره أو من يفهم رسالته .

وبالاضافة إلى ذلك ، فإن المسيح وإن كان قد أتى من اليهود ، لكنه لم يكن متحيزاً لهم ، فقد كان يحب جميع الناس ويرحب بهم . فضلاً عن ذلك كان يعلن أن الوثنيين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون في حضن ابراهيم ، أما اليهود غير المؤمنين فسيُطرحون خارجاً (لوقا ١٣ : ٢٨) ، كما أوصى تلاميذه الذين حملوا رسالته أن ينادوا بها ليس في اليهودية فحسب ، بل وفي كل أنحاء العالم أيضاً (مرقس ١٦ : ١٥) ، ففعلوا كما أوصاهم تماماً .

٤ ـــ [لو فرضنا أن اليهود لم يصلبوا المسيح ، فكيف كان يُكفر عن خطايانا ؟] .

الرد : فضلاً عن انه لم يكن من الممكن أن يحدث لشخص قدوس طاهر يعيش وسط جماعة من الأشرار ، موبخاً إياهم على شرورهم وآثامهم ، غير ما حدث للمسيح . فالأشرار في كل عصر يبغضون الحق ويقاومونه ، لذلك لو كان المسيح قد

عاش في أي عصر من العصور ، أو في أي بلد من البلاد ، لظهر شر معاصريه فيها أيضاً ، بالصورة التي ظهر بها شر اليهود من قبل ، فان الآلام التي تحملها المسيح من اليهود عندما صلبوه ، كانت الآلام الكفارية بينه وبين عدالة الله مباشرة ، فكان من الممكن أن يتحملها في أي وقت من الأوقات ، وبأي وسيلة من الوسائل الخاصة به ، الأمر الذي لا يدع مجالاً لهذا الاعتراض . نقول : إن الله قصد منذ الأزل ان يكون مجيء المسيح إلى العالم نوراً يكشف للناس عن فداحة خطاياهم في ابتعادهم عنه ، ورفضهم لحقه ، وفي الوقت نفسه يكشف لهم بتكفيره عنهم مقدار محبته لهم .

٥ — [إذا كان الله قد قصد بصلب المسيح أن يعلن لنا تكفيره عن خطايانا ، يكون اليهود الذين صلبوا المسيح قد تمموا مشيئة الله وأسهموا في خلاص العالم . وبناء على ذلك لا يكونون قد فعلوا جريمة ما !!]

الرد : إن الآلام التي تحملها المسيح من اليهود على الصليب كانت محصورة في الساعات التي سبقت الظلمة ، وهذه الآلام لم تكن الآلام الكفارية بل آلام الاستشهاد فحسب . لأن الآلام الأولى كانت من يد العدالة الإلهية وحدها كما ذكرنا — فضلاً عن ذلك فإن اليهود لم يصلبوا المسيح لكي يتمموا مشيئة الله ، بل لأنهم كانوا يبغضون المسيح بسبب كماله الأدبي الذي كان يكشف شرورهم وآثامهم ، لذلك فإنهم بصلبهم إياه أرادوا أن يصلبوا الحق والقداسة والكمال ، وهذه جريمة دونها كل جريمة في الوجود .

لكن الله في حكمته اللانهائية استخدم جريمتهم ضده لإعلان محبته لهم وللعالم أجمع ، إذ بعدما صوّبوا نحوه كل ما في جعبتهم من عدوان ، واستحقوا وقتئذ أن تحل عليهم دينونة الله بكل هولها ، تقدم المسيح وقبل هذه الدينونة في نفسه عوضاً عنهم وعن غيرهم من البشر (لأن الكل عصوا الله وتمردوا عليه دون استثناء) ، ومن ثم احتمل في نفسه آلام الكفارة (بعد) آلام الاستشهاد ، فتحقق بذلك قول الوحي « حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً » (رومية ٥ : ٢٠) .

٦ — [لو كان المسيح قد مات كفارة عن خطايانا ، لما كان قد قام من بين الأموات ، لأن أجرة الخطيئة هي موت أبدي . وأيضاً لما كان الخلاص من الخطيئة هو بالنعمة كما يعلن الكتاب المقدس ، بل كان بالعدل ، لأن عدالة الله تكون قد وفيت مطالبها]

الرد : إن قيامة المسيح من الأموات ليست دليلاً على أن موته لم يكن موتاً كفارياً ، بل دليلاً على أن لاهوته غير المحدود أكسب آلامه الكفارية كإنسان قيمة غير محدودة ،

ولذلك استطاعت أن تفي مطالب عدالة الله غير المحدودة ، ومن ثم لم يكن هناك مجال لبقائه في القبر . أما لو كان المسيح قد ظل فيه ، لكان مثله مثل الذبائح الحيوانية التي لم تحز رضا الله ، لعدم تكفيرها عن الخطيئة تكفيراً حقيقياً .

كما أن تكفير المسيح عن خطايانا إلى الأبد ، وإن كان يجعل حصوله على الخلاص لأجلنا عدلاً ، لأنه صار حقاً مكتسباً له ، لكن عندما نحصل نحن عليه ، يكون ذلك على أساس النعمة ، لأننا لم نعمل شيئاً من جانبنا نستحق بسببه هذا الخلاص . ولذلك حق للوحي أن يقول لنا « لأنكم بالنعمة مخلَّصون بالإيمان ، وذلك ليس منكم هو عطية الله » (أفسس ٢ : ٨) .

٧ — [كيف استطاع المسيح أن يفي في ثلاث ساعات الظلمة وحدها ، مطالب عدالة الله التي لا حد لها مع أن ناسوته محدود والمحدود لا يتحمل إلا آلاماً محدودة ، والآلام المحدودة لا تفي مطالب لا حد لها] .

الرد : (ا) من المعلوم لدينا أن الشخص الكفء يستطيع القيام بالأعمال التي تسند إليه في مدة وجيزة ، بينما إذا أسندت هذه الأعمال إلى غيره ، قد يعجز عن القيام بأي شيء منها . وعلى هذا القياس نقول : بما أن المسيح بسبب كماله المطلق له كفاية غير محدودة ، لذلك لا غرابة إذا استطاع أن يفي مطالب عدالة الله التي لا حد لها ، في الساعات المذكورة التي قضاها . فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسيح لم يكن قائماً بالكفارة بمعزل عن اللاهوت ، بل أن اللاهوت الحال فيه كان هو القائم بها ، أدركنا أن مطالب عدالته قد وفيت تماماً على الصليب ، لأن الله أو اللاهوت لا يمكن أن يكون متساهلاً أو متهاوناً في شيء من مطالب عدله ، كما ذكرنا فيما سلف .

(ب) كما أننا إذا وضعنا أمامنا أن الله كان مسروراً بتقديم المسيح كفارة عنا ، وأن المسيح كان مسروراً أيضاً للقيام بهذه المهمة [فقد قال الوحي عن الله إنه سُرَّ أن يسحق المسيح بالحزن (إشعياء ٥٣ : ١٠) ، وقال عن المسيح إنه كان مسروراً بإتمام مشيئة الله (مزمور ٤٠ : ٨) ، وإنه من أجل السرور الموضوع أمامه ، احتمل الصليب مستهيناً بالخزي (عبرانيين ١٢ : ٢)] ، اتضح لنا بدليل ليس بعده دليل أن المسيح لابد أنه وفى مطالب عدالة الله (أو بالحري وفاها الله فيه) إلى التمام ، لأن الذي يقوم بعمله بسرور ، لا يترك شيئاً منه على الإطلاق .

وقيام الله بفدائنا بسرور في المسيح ، أمر يتفق مع كماله المطلق ، لأنه من دواعي هذا الكمال أنه لا يعمل عملاً على الرغم منه ، أو كمجرد واجب من الواجبات . كما يتفق أيضاً مع علاقته الكريمة بنا ، لأنه يحبنا محبة لا حدّ لها .

٨ — [لو كان اللاهوت متحداً بالناسوت في المسيح ، لما اقتضى الأمر أن يظل المسيح في تكفيره عن الخطيئة على الصليب ثلاث ساعات ، إذ كان يكفي أن يبقى لحظة واحدة ، لأن اللاهوت له كفاية لا حدّ لها] .

الرد : إن أساس الزمن في نظرنا ليس هو أساس الزمن في نظر الله ، لأن يوماً واحداً عند الله كألف سنة (في نظرنا) . وألف سنة (في نظرنا) كيوم واحد (لديه) (٢بطرس ٣ : ٨) . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن المدة التي نعتبرها بضع ساعات ، قد تكون في نظر الله لحظة ، وقد تكون أيضاً دهراً ، وقد تكون كذلك أبدية لا حد لها . وهذا ما يواجهنا أيضا عند صلب المسيح ، وإن كان في صورة أخرى ، فهو له المجد تحمّل آلام الكفارة كإنسان محدود ، ومع ذلك كان في ذاته هو الله غير المحدود ، فكانت لكفارته فعالية لا نهاية لها . أما السر في أن مدة آلام الاستشهاد كانت ثلاث ساعات ، ومدة آلام الكفارة كانت ثلاث ساعات أيضاً ، فيرجع إلى أن الرقم (٣) في الكتاب المقدس يدل على الكمال . ويكفينا أن نعرف أن المسيح لم ينزل عن الصليب إلا بعد أن قال هذه الكلمة الخالدة « قد أُكمل » ، إذ أنها أوضح دليل على أنه أكمل الفداء لنا .

٩ — [إذا كان المسيح بقوله : « قد أُكمل » أعلن إتمامه لعمل الفداء ، فلماذا لم ينزل عن الصليب حياً بعد ما قال هذه العبارة مباشرة] .

الرد : نظراً لابتعاد الناس عن الله وارتكابهم ما شاءوا من شر ، وُضع لهم أن يموتوا مرة ، ثم بعد ذلك الدينونة (عبرانيين ٩ : ٢٧) فكان ينبغي للمسيح في سبيل تكفيره الكامل عن الناس أن يتحمل الحكمين . فاحتمل آلام دينونة العدل الإلهي في ساعات الظلمة الثلاث . واحتمل بعد ذلك تنفيذ حكم الموت في جسده الكريم . مما تقدم نرى أن قوله : « قد أُكمل » ، ليس منفصلاً عن موته بل مقترناً به كل الاقتران ، إذ أنه مات بمجرد أن قال هذه العبارة ، فيكون المراد بها ، أنه أكمل الكفارة بموته على الصليب .

١٠ — [إذا كان الخلاص هو بالمسيح ، فلماذا لم يأت مباشرة عندما سقط آدم في الخطيئة ، أو بعد سقوطه فيها بمدة يسيرة ، ليقدم نفسه كفارة عنه وعن أبنائه ، عوضاً عن أن يلزمهم آلاف السنين بتقديم الذبائح الحيوانية ، التي لم تكن كافية في ذاتها للتكفير الحقيقي عن خطاياهم ؟] .

الرد : (ا) إن البشر كانوا لا يدركون قديماً شر الخطيئة وخطورتها إدراكاً كاملاً ، ولذلك لو كان المسيح قدم نفسه كفارة عندما أخطأ آدم مباشرة ، أو بعد ذلك بمدة يسيرة (مثلاً) ، لما كان هناك شخص يقدرها حق قدرها . أو يتأثر بها ويفيد منها . ومن ثم شاء الله ، وهو العليم بطبائع البشر وطرق تهذيبهم وتعليمهم ، أن يتركهم أولاً لأنفسهم حتى يعرفوا « أن الكل زاغوا وفسدوا معاً ، وأنه ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد » (رومية ٣ : ١٠ — ١٢)، وأن الذبائح الحيوانية ، مهما كثرت ، لا تكفي للتكفير عن خطيئة واحدة من خطاياهم . وأن يرق بعد ذلك بأذهانهم شيئاً فشيئاً لتدرك خطورة الخطيئة ليس بالنسبة إلى أنفسهم فقط ، بل وأيضاً بالنسبة إليه ، حتى يتضح لهم أنهم لا يستطيعون بأي وسيلة من الوسائل أن يؤهلوا ذواتهم للوجود في حضرته .

(ب) ولما اتضحت لهم هذه الحقيقة ، أخذ يهيئهم لقبول خلاصه في المسيح . وذلك بالنبوات التي كان يرسلها لهم على أفواه أنبيائه من وقت لآخر عن ألقاب المسيح واسم أسرته ، وعن المكان والزمان اللذين سيولد فيهما ، وعن صفاته وأعماله المتنوعة ، وعن قيامه بنفسه بالتكفير عن الخطيئة (اقرأ مثلاً : إشعياء ٧ و٩ و٥٣ ، دانيال ٩ ، ميخا ٥ ، ملاخي ٣) . فإذا رجعنا للكتاب المقدس نرى أن قبيل ظهور المسيح ، كان كثيرون من الأتقياء في انتظاره (لوقا ٢ : ٢٥ و٢٦ ، يوحنا ١ : ٤١ و٤٥ و٤٩ ، ٤ : ٢٥ و٢٩ ، ٧ : ٢٦ و٢٧) كما ذكرنا ، وإذا كان الأمر كذلك فإن مجيء المسيح لإعلان خلاص الله بعد انتشار الناس في العالم ، وقيامهم بإنشاء السجلات التي يدونون فيها ما يقع أمامهم من أحداث ، وبعد إدراك المخلصين منهم شر الخطيئة وقصورهم الذاتي عن التوافق مع الله بأعمالهم ، وظهور الرغبة الصادقة فيهم للخلاص من الخطيئة ونتائجها (لوقا ٢ : ٢٥ ، ٣٦) ، تصرف يتفق مع الحق.

١١ — [إذا كان الله قد تألم بسبب الخطيئة عندما سقط فيها آدم وأولاده منذ القديم (إشعياء ٤٣ : ٢٤) ، يكون قد كفر عنها بينه وبين نفسه منذ القديم أيضاً ، ويكون كل انسان يُقبل إليه تائباً عن خطاياه ، له أن يحظى بالصفح والغفران . فلا يكون الصلب سوى صورة للآلام التي كان الله يشعر بها منذ القديم بسبب الخطيئة ، وبالتبعية لا يكون أمراً ضرورياً للتكفير عنها] .

الرد : حقاً إن الله كان يتألم بسبب الخطايا منذ القديم (آلام العطف على البشر ، بسبب البؤس الذي تردّوا فيه ، وبسبب كسرهم لشريعته التي أعطاها لهم لأجل خيرهم ، وبسبب قصورهم في إدراك فضله العظيم عليهم) ، وذلك بحالة تتفق مع

روحانيته المطلقة . لكن ألمه هذا لم يكن ألماً كفارياً ، لأنه كان يدعوه لصبّ القصاص على الفجار من وقت لآخر (تكوين ١٧ و١٩) . أما في الصلب فقد احتمل الله في المسيح كل آلام دينونة خطايانا ، دون أن يصبّ شيئاً منها علينا . ولذلك تكون آلامه على الصليب هي وحدها الآلام الكفارية . ولا غرابة في ذلك ، ففي الصليب وفي الصليب وحده ، أعلن الله أن محبته تفوق كل خطايانا ، وأن السيول مهما طمت لا تستطيع أن تطفىء هذه المحبة أو تقلل من شدتها (نشيد ٨ : ٧) . ولذلك فعند الصليب نجد نحن الخطاة غفراناً كاملاً ، نستريح له كل الراحة ونطمئن له كل الاطمئنان .

١٢ ــ [ان الكفارة لا تُقدَّم عن الخطايا التي لم تُرتكب بعد ، بل عن الخطايا التي ارتُكبت فيما سلف . لذلك فإن كفارة المسيح هي عن الخطايا التي كانت قد ارتُكبت لغاية صلبه فقط] .

الرد : لو كان مخلوق ما هو الذى قام بتقديم كفارة عن خطايانا ، لكان قد قدمها عن خطايانا الماضية فحسب ، لأنه لا علم له بالخطايا التي تُرتكب فى المستقبل . أما والله نفسه هو الذى قدّم الكفارة ، فإنه كان يعلم منذ الأزل كل البشر الذين سيأتون إلى العالم ، كما كان يعلم أيضاً كل الخطايا التى سيأتونها . وبما أنه لا يعسر عليه التكفير عنها جميعاً دفعة واحدة ، لذلك لم يكن هناك داع أن يكفر في نهاية كل قرن (مثلاً) ، عن الخطايا التى ارتكبت فيه . وإذا كان الأمر كذلك ، تكون كفارته هي عن كل البشر في كل البلاد والعصور كما أعلن الوحي . فقد قال عن المسيح « لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد » (عبرانيين ٢ : ٩)

١٣ ــ [إن الاعتقاد بالخلاص وتكفير الله عن الخطايا ، مقتبس من أساطير الوثنيين . فقد كانوا يعتقدون أنه بسفك الدم يخلصون من خطاياهم . كما كانوا يعتقدون أن آلهتهم مثل مترا وكريشنا وبوذا وتامور وأوزيريس وبروميتيه تألموا ، لكي يخلّصوا أتباعهم من خطاياهم] .

الرد : فضلاً عن أن الاعتقاد بضرورة سفك دم الذبائح للحصول على المغفرة هو من صميم العقائد التي ينادي بها الكتاب المقدس منذ وجود آدم على الأرض ، وأن الوثنيين هم الذين نقلوه عن أجدادهم الذين كانوا فيما سلف يؤمنون بالله دون سواه ، كما ذكرنا في الباب الثالث . وفضلاً عن أن تلاميذ المسيح كانوا يختلفون من جهة النشأة والطباع والثقافة والسن والمركز الاجتماعي ، كما أنهم لم يكونوا من رجال الفلسفة أو

السياسة أو التاريخ الذين لهم إلمام بأساطير الوثنيين ، أو كانوا من التجار الذين يجوبون البلاد ويعرفون شيئاً عن عادات أهلها ودياناتهم ، الأمر الذي لا يدع مجالاً لهذا الاعتراض ، فإن ما جاء بالأساطير المذكورة بعيد كل البعد عن العقيدة المسيحية في الخلاص من الخطيئة ، كما يتضح مما يلي :

(ا) إن مثرا (كما تقول أسطورته) خرج من صخرة وهو يحمل مدية ومشعلاً ، فحارب الشمس وقهرها وجعلها حليفة له . ثم حارب أول مخلوق في الكون ، وهو الثور الرهيب الذي كان يزعج الناس ، فأرداه قتيلاً ، وبذلك صار دم هذا الثور عنواناً لخلاص الناس ، إذ بقتل مثرا إياه أنقذهم من بطشه . لكن أعوان أهريمان إله الشر (وهي العقارب والحيات والنمل) طغت على هذا الدم وأضاعت معالمه ، ولذلك ترك مثرا الأرض وطار إلى الشمس حليفته — فأية صلة بين هذه الرواية وبين موت المسيح كفارة عن البشر تحقيقاً لمطالب قداسة الله وعدالته !!

(ب) وكريشنا كان يرتكب آثاماً لم يرتكب غيره مثلها ، حتى أطلق عليه الوثنيون اسم « إله الشر » . كما أطلقوا عليه اسم « المخلص » لأن الخلاص في نظرهم لم يكن التحرر من عقوبة الخطيئة وسلطانها على النفس (حتى تستطيع أن تنعم بالتوافق مع الله في قداسته كما هي الحال في المسيحية) ، بل كان هو الانغماس الكلي في الدنس ، لأن هذا الانغماس (كما زعموا) يطفيء نار الشهوة المتقدة . فاستخدم المعترضون هذا المعنى النجس للخلاص من الخطيئة ، ودون أن يشيروا إلى التناقض الذي لا حدّ له بين المعنى المذكور وبين معنى الخلاص من الخطيئة في المسيحية ، قالوا إن أتباع كريشنا كانوا يعتقدون أنه يخلص من الخطيئة كما يقول المسيحيون عن المسيح ، لكي يدخلوا في روع البسطاء منهم أن معتقداتهم منقولة من الوثنية .

أما الطريقة التي مات بها كريشنا فهي أنه بينما كان يسير مرة في غابة ، أخطأ أحد الصيادين فيها مرماه ، فنفذت حصاته (كما تقول الرواية) أو سهمه (كما تقول رواية أخرى) إلى مقتل كريشنا ، فسقط لساعته ومات . لكن المعترضين أضافوا إلى ذلك من عندياتهم أنه « عندما طعن جنب كريشنا بالحربة ، قال وهو مصلوب للصياد الذي رماه بالنبلة : « اذهب أيها الصياد محفوفاً برحمتي إلى السماء مسكن الآلهة » — وهذه الإضافة فضلاً عن انها لا تنسجم مطلقاً مع حادثة موت كريشنا ، فإنها تدل على أن المعترضين اقتبسوا من الانجيل قوله إن أحد الجنود طعن المسيح بحربة عندما كان على الصليب ، وقال المسيح للص الذي تاب « اليوم تكون معي في الفردوس » ، ثم حشروا هذين القولين في روايتهم حشراً لا يقره عقل ، وذلك ليخرجوها بالصورة التي أرادوها .

لكن خانهم التوفيق كما يخون جميع المزوّرين ، لأن الصلب لم يكن معروفاً عند الهنود بل عند الفينيقيين والمصريين والرومان واليهود فحسب ، كما يقول المؤرخون .

(جـ) وبوذا كان يرفض مبدأ الكفارة لأنه كان يعتقد أنه لا يستطيع كائن ما أن يخلص أحداً من خطاياه ، فكان ينادي بأنه يجب على كل انسان ان يرتقي بنفسه فوق أهوائه وشهواته حتى يبلغ طور النرفانا الذي يتحرر فيه (كما يقال) من الشهوات تحرراً تاماً . ولذلك كانت كلماته الأخيرة لأتباعه هي « كونوا لأنفسكم نوراً وملجأ حصيناً ، ولا تلوذوا بغير أنفسكم !! » . ولذلك كان البوذيون (كما يقول المؤرخون) يقوّمون أنفسهم بأنفسهم دون أن ينتظروا معونة من أحد ، ظانين أنهم يستطيعون الارتقاء فوق قصورهم بقوتهم الذاتية ـــ وقد أشارت جريدة الأهرام الصادرة في ٧ مايو سنة ١٩٧١ إلى هذه الحقيقة فقالت : « إن بوذا كان معلماً لا مخلصاً ، وإنه لم يعد انساناً بمعونة خلا المعونة التي يتلقاها هو من نفسه . وإن من أقواله المأثورة لأتباعه « واصلوا جهادكم حتى تبلغوا سبيل الخلاص » .

أما الطريقة التي مات بها بوذا فهي أنه عندما كان في بلدة بافا ، أراد حداد يُدعى تشوندا أن يكرمه ، فقدم له لحماً مشوياً . فلما أكل منه بوذا أحس بألم شديد في أمعائه لم يمهله في الحياة إلا بضع ساعات ـــ ولكن المعترضين ادّعوا أنه قال « دعوا الآثام التي ارتكبت في هذا العالم تقع عليّ ، لكي يخلص العالم من قصاصها » ، حتى يوهموا البسطاء من المسيحيين أن اعتقادهم بخلاص المسيح منقول من الأساطير الهندية !!

(د) وتاموز كان يعتبر عند الوثنيين إله الزراعة والربيع ، ولذلك كانوا يعتقدون أنه يحيا بظهور النباتات ويموت بذبولها . وعند موته (أو بالحري عند ذبول النباتات) كانت معظم النساء يبكين عليه كثيراً . وعند ظهوره (أو بالحري ظهور النباتات) كن يفرحن فرحاً عظيماً ويستسلمن للأهواء الجنسية دون قيد أو شرط . وكان هذا العمل يعتبر لديهن خلاصاً ، ليس خلاصاً من نجاسة الخطيئة كما هي الحال في المسيحية ، بل خلاصاً من قانون الطهارة والعفاف كما ذكرنا فيما سلف . لذلك فالقول « إن بعض الوثنيين كانوا يعتقدون أن تاموز تألم من أجل الناس ، وأنه كان يدعى المخلص والفادي والمصلوب » فضلاً عن أنه مجرد إدعاء ، فهو جريمة أدبية شنيعة ، لأنه يهدف إلى تشويه الحقائق الثابتة وتشكيك البسطاء في عقائدهم .

(هـ) وأوزيريس ، كما تقول أسطورة ، كان يحب الناس ويخلصهم من متاعبهم ، ولكن أخاه « ست » قتله وقطع جسده إلى أجزاء كثيرة ، فجمعت زوجته هذه الأجزاء ،

وأعادته إلى الحياة . وتقول أسطورة أخرى إنه لما مات أوزيريس بكت عليه زوجته فنزلت دموعها على جسده ، ومن ثم قام من الموت . وتقول أسطورة غيرها إن أوزيريس كان يغرق في وقت الفيضان وكانت ايزيس تنزل إلى النيل لكي تنتشله ، فكان يموت ويحيا كل عام . ولذلك فقول المعترضين إن بعض قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن أوزيريس يخلص من الخطيئة ، هو قول هراء .

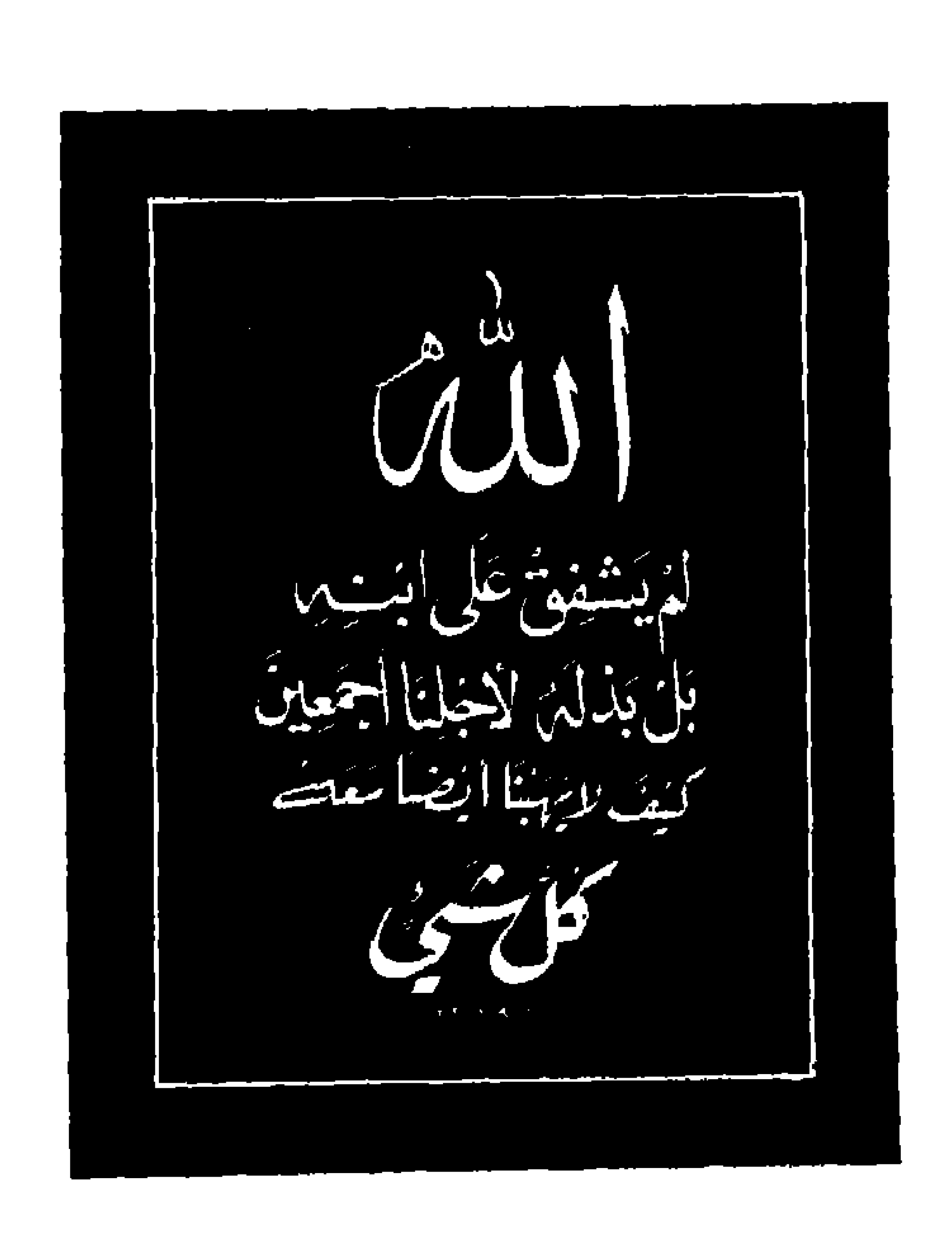
(و) وبروميتيه ، كما تقول أسطورته ، كان يقاوم الأرستقراطية في بلاد اليونان ، وكان يحب الناس ويساعدهم في شئونهم . فحقد عليه جوبتر « رب الآلهة » هناك ، وصلبه على جبال القوقاز ، كما أمر فلكان بتعذيبه . فأخذ هذا يغرس حديداً محمى بالنار في جسمه ، كما أثار عليه النسور لكي تمزقه وتأكل منه ما تستطيع أكله ، فظل بروميتيه على هذه الحالة حتى أنقذه هرقل .

فرواية بروميته (كما نرى) تختلف عن حادثة صلب المسيح كل الاختلاف ، الأمر الذي يقضي على كل ظن بأن هذه الحادثة مقتبسة أيضاً من الرواية المذكورة . فالمسيح قدم نفسه باختياره للموت ، أما بروميتيه فسيق للموت رغماً عنه . والمسيح قبل الموت كفارة عن خطايا البشر ، أما بروميتيه فلم يمت عن خطيئة انسان ما . أما قول المعترضين إن بروميتيه « جرح بسبب ذنوب الناس ، وإنه سحق بسب عصيانهم » ، فليس له وجود في رواية بروميتيه ، بل هو مسروق من نبوة إشعياء النبي (ص ٥٣) ، التي قيلت عن المسيح قبل ظهور رواية بروميتيه بمئات السنين . وكان من الواجب على المعترضين إذا أرادوا أن يستعيروا أسلوب الكتاب المقدس في هذا الصدد ، أن يقولوا : إن بروميتيه جرح بسبب دفاعه عن الديمقراطية ، وإنه سحق بسبب اخلاصه لها . ولكنهم شاءوا أن يغيروا الحقائق الثابتة ، فأخذوا الآيات التي قيلت عن المسيح وأسندوها إلى بروميتيه ، لكي يوهموا البسطاء من المسيحيين أن أجدادهم سرقوا العقائد المسيحية من أساطير اليونان ، والحال أنهم هم السارقون !!

وقد عرف المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد معنا أن المعترضين تحاملوا على العقائد المسيحية دون مبرر ، فقال : « إن أصحاب هذه الملاحظات اتخذوا تشابه المراسيم والأخبار دليلاً على تلفيق تاريخ السيد المسيح : ويبدو لي أن نشوء علم المقابلة بين الأديان هو الذي دفع أصحابه في القرن الثامن عشر إلى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها » . ثم قال « ليس من الصواب أن يقال إن الأناجيل جميعاً عمدة لا يعوّل عليها في تاريخ السيد المسيح ، وإنما الصواب أنها العمدة الوحيدة في كتابة ذلك

التاريخ . وسواء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصدر واحد ، فمن الواجب أن يدخل في الحسبان أنها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس إلى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي عام أحق منها بالاعتماد » . (عبقرية المسيح ص ١٢٦ و« الله » ص ١٤٩ — ١٥٤) .

وقد سبق الأستاذ العقاد إلى هذه الحقيقة سير جيمز فريزر ودكتور ادوارد ماير المؤرخ السويسرى . فقد قال الأول في كتاب (The Golden Bough, V. 6, P. 412) « إن الشكوك التي تثار ضد حقيقة تاريخ المسيح لا يقام لها وزن ، وإنها سخافة لا تقل في بطلانها عن محاولة جعل نابليون (مثلاً) أسطورة لا شخصاً حقيقاً » . وقال الثاني في كتاب (The Origin of Christianity, P. 120) : « ليس هناك شيء ما يحملنا على رفض تاريخ المسيح المدوّن في الانجيل » — والعالمان المذكوران ، كما يتضح من حياة كل منهما ، لم يكونا من الأشخاص المتدينين الذين يهمهم تأييد الموضوعات المسيحية الواردة في الانجيل ، بل كانا من علماء التاريخ الذين لا ينظرون إلى هذه الموضوعات إلا من الناحية التاريخية وحدها . ولذلك فشهادتهما ، مثل شهادة الأستاذ العقاد ، لا يجوز الطعن فيها بحال .





الباب التاسع

برارة موقف الله إزاء البشر وخطاياهم

إن عدم قضاء الله على الشيطان من أول الأمر ، والسماح له بتجربة آدم وحواء ، وعدم تداخله في منعهما من العصيان ، ووجود أشخاص لهم حياة أبدية ، وآخرين لهم العذاب الأبدي — كل هذه مشكلات بحثها كثير من الفلاسفة والمفكرين دون أن يهتدوا إلى حل لها . لكن في ضوء الأبواب السابقة لا يكون هناك مجال لهذه المشكلات ، كما يتضح من الفصول التالية .

— ١ —
برارة موقف الله إزاء سقوط آدم

١ — [لماذا خلق الله آدم ، مع علمه أنه سيعصاه ، ويجلب على نفسه الشقاء الأبدي ؟]

الرد : إن الله خلقه لأنه محبة (١يوحنا ٤ : ٨) ، ومن شأن المحبة الخالصة ألا تحصر صاحبها في إسعاد ذاته ، بل تدعه يتجه إلى إسعاد الآخرين . ولذلك خلق الله آدم لكي يسعده ويمتعه بكل خير لديه . أما قول بعض الفلاسفة ورجال الدين إن الله خلق آدم لكي يعلن بواسطته عن وجوده ، أو لكي يتقبل من آدم العبادة والإكرام اللائقين به ، فليس له نصيب من الصواب ، لأن الله كامل كل الكمال ومستغن بذاته كل الاستغناء .

أما من جهة معرفة الله السابقة بأن آدم سيعصاه ويجلب على نفسه الشقاء ، فكانت تمنعه من خلقه ، لو كانت هناك عقبة ما يمكن أن تمنعه من تحقيق أغراضه السامية من نحوه ، ومن ثم فإنه خلق آدم مع علمه أنه سيعصاه ، لأنه يستطيع أن ينقذه من نتائج العصيان ، ويحقق كل أغراضه الأزلية السامية من نحوه . وقد تحققت فعلاً هذه الأغراض كما اتضح لنا فيما سلف .

٢ — [إذا كان الله قد خلق آدم بدافع المحبة ، فلماذا لم يخلقه معصوماً من الخطأ ؟]

الرد : إن العصمة لا تتوافر إلا في يد من لا بداءة له أو نهاية ، أو بالحري في الله دون سواه ، ولذلك فإن الإنسان أو غيره من المخلوقات لا يكون معصوماً من الخطأ — ومع كل فالله وإن لم يخلق آدم معصوماً ، لكن خلقه على صورته ، بمعنى أنه خلقه بروح عاقلة لها كل الامكانيات ، للتوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية ، ومن ثم كان من الميسور لآدم ألا يخطىء لو كان قد عقد النية على ذلك .

٣ ـــ [إذا كان الله يحب آدم ، فلماذا لم يمنعه من العصيان رغماً عنه ، حتى يجنبه هو ونسله الشر والبلاء ؟]

الرد : لو كان الله قد منع آدم من العصيان رغماً عنه ، لكان قد سلبه حرية الإرادة التي خلقه بها ، والله لا يلغي أو ينسخ عملاً من أعماله ، لأنه عملها كلها بكل حكمة وفطنة (مزمور ١٠٤ : ٢٤) . فضلاً عن ذلك لو كان الله قد منع آدم من العصيان رغماً عنه ، لأصبحت طاعة آدم في هذه الحالة طاعة آلية لا إرادية . والطاعة الآلية فضلاً عن أنه لا قدر لها ولا وزن ، فإنها لم تكن تُشعر آدم بمتعة في العلاقة مع الله ، ومن ثم كان يحل به الضيق والاكتئاب ، وتتأجج فيه الرغبة للمخالفة والعصيان ، شأنه في ذلك شأن السكير ، فإننا إذا منعناه من الخمر رغماً عنه ، تزداد رغبته فيها كثيراً .

٤ ـــ [إن عدم منع الله لآدم من العصيان ، يدل على أنه هو الذي هيّأ له سبيل السقوط في الخطيئة ، فلا يكون آدم مسئولاً عنها] .

الرد : إن الله أسمى من أن يهيىء لآدم (أو لغير آدم) سبيل السقوط في الخطيئة ، لكن آدم هو الذي بإرادته الذاتية عصى الله ، ومن ثم فإنه يستحق كل القصاص الذي يترتب على عصيانه . هذا وقد أغلق الوحي الباب أمام هذا الاعتراض فقال : إن الله لا يجرّب أحداً بالشرور ، لكن كل واحد يجرَّب إذا انجذب وانخدع من شهوته . ثم أن الشهوة إذا حبلت تلد خطيئة ، والخطيئة إذا كملت تنتج موتاً (يعقوب ١ : ١٣ ـــ ١٥) .

٥ ـــ [لو كان الله قد أراد لآدم حياة السعادة في الجنة ، لكان قد هيأ له الوسائل التي كانت تساعده على عدم العصيان] .

الرد : لو كان الله قد خلق آدم بطبيعة خاطئة أو وضعه في صحراء قاحلة ونهاه عن الأكل من شجرة كانت فيها ، أو بعد ما وضعه في الجنة حرّم عليه الأكل من أشجارها كلها إلا شجرة واحدة ، أو سمح له بالأكل من كل الأشجار إلا أحسنها وأفضلها ، أو أن الشجرة التي نهى آدم عنها كانت في مكان يلتبس عليه معرفته ، لكان هناك مجال لهذا الاعتراض . لكن الله خلق آدم مستقيماً ، ولم يضعه في صحراء بل في جنة ، ولم يأمره بالامتناع عن الأكل من الأشجار إلا شجرة واحدة ، كما أن هذه الشجرة كانت

معروفة لدى آدم حق المعرفة . فضلاً عن ذلك فإنها لم تكن أحسن أو أفضل من غيرها من الأشجار ، بل كانت مثلها تماماً ، وكل ما في الأمر أن رغبة آدم في الأكل منها خلعت عليها جمالاً خاصاً في عينيه ، ومن ثم فالله ، على النقيض مما يظن المعترضون ، كان قد أحاط آدم بكل الأسباب الكفيلة بحفظه من العصيان ، ولذلك لا عذر له على الاطلاق .

٦ — [أليس عدم قضاء الله على الشيطان من جهة ، وامتحانه لآدم من جهة أخرى ، دليلين على أنه لم يشأ لآدم حياة الهناء ؟]

الرد : (ا) إن الشيطان مخلوق ضعيف حقير لا شأن له بالنسبة إلى الله ، ولذلك فبقاؤه لا يمكن أن يقف في سبيل تنفيذ الله لمقاصده ، لأن الله جلت قدرته يستطيع أن يقضي على كل أعمال الشيطان وحيله ، بل ويستغلها أيضاً لإظهار محبته ورحمته للبشر الذين خلقهم على صورته كشبهه ، وبذلك يخرج لهم من الآكل أكلا ومن الجافي حلاوة (قضاة ١٤ : ١٤) .

فضلاً عن ذلك فإن الشيطان لم يرغم آدم على العصيان ، فهو لم يأت به إلى الشجرة المنهي عنها ، أو قطف من ثمرها ووضع في فمه ، بل حواء هي التي ذهبت إلى الشجرة بإرادتها ، وهي التي قطفت من ثمرتها وأكلت بنفسها ، وهي التي أعطت زوجها بعد ذلك ليأكل فاستجاب لها . ومن ثم فبقاء الشيطان لا يخلي آدم أو امرأته من مسئولية العصيان ، لأنه كان من الميسور لهما أن يتحولا عن صوت الشيطان لو كانا قد أرادا أن يعيشا حياة الطاعة لله . فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان من الجائز جداً أن يعصيا الله لو لم يكن الشيطان موجوداً ، وذلك بسبب حرية الإرادة التي كانا يتمتعان بها ، لأن هذه الحرية ، كما تقود إلى الطاعة تقود أيضاً إلى العصيان ، إذاً ليس هناك مجال لهذا الاعتراض .

(ب) أما من جهة الامتحان ، فقد كان من الواجب أن يظهر آدم وامرأته أهليتهما للمركز السامي الذي وضعهما الله فيه . فإذا تبين أنهما يطيعان الله ، يمكن أن يتمتعا بهذا المركز إلى الأبد . وإذا سقطا فللسقوط علاج ، كفيل بإعادتهما لا إلى حالتهما الأولى فحسب ، بل وإلى حالة أفضل منها كثيراً بفضل نعمة الله التي لا حد لها ، لذلك ليس هناك مجال للاعتراض على هذا الامتحان .

٧ — [إذا كان الله يعلم منذ الأزل أن آدم سيعصاه ، فلماذا لم يتركه وشأنه دون امتحان ، لأنه إذ ذاك لم يكن يحرم من الجنة ؟]

الرد : حقاً إن الله كان يعرف منذ الأزل أن كلا من آدم وحواء سيعصيان وصيته ، لكن لم يكن لهما أن يعرفا هذه الحقيقة دون امتحان ، ومن ثم كان يجب أن يُمتحنا ليعرفا حقيقة أمرهما ، ويعرفا أيضاً كيف يتصرفان إزاء الله . وللإيضاح نقول : إذا ألغيت الامتحانات المدرسية (مثلاً) ، لما عرف معظم الطلبة حقيقة أمرهم ، بل ربما ظن الضعفاء منهم أنهم أفضل من غيرهم ، ومن ثم يتملكهم الغرور بأنفسهم . وإذا التحقوا بعمل بعد ذلك ، أساءوا التصرف فيه كثيراً . فالامتحان ضرورة أدبية لابد منها ، ولا يتنصل منه إلا الذين لا يريدون أن يعرفوا حقيقة ذواتهم . نعم سيرسب الضعيف في الامتحان ، لكن من الأفضل والأشرف أن يرسب ويعالج ، من أن يتوهم أنه قوي فيخدع نفسه ويخدع الآخرين أيضاً معه . لذلك كان الأتقياء يطلبون من الله أن يمتحنهم ويوجههم التوجيه السليم ، فداود النبي (مثلاً) كان يقول لله : « اختبرني واعرف قلبي . امتحني واعرف أفكاري ، وانظر إن كان فيّ طريق باطل واهدني طريقاً أبدياً » (مزمور ١٣٩ : ٢٣ و٢٤) .

٨ ـــ [لو كان الله قد أراد لآدم حياة البقاء في الجنة ، فهل يكون آدم بعصيانه ونشره للشر قد خالف إرادة الله ، وإرادة الله كما نعلم تسيطر على الكون وتتحكم فيه ؟]

الرد : حقاً إن إرادة الله تسيطر على الكون وتتحكم فيه ، فهي التي تسيّر الكواكب بانتظام في أفلاكها ، وهي التي تحفظ للطبيعة خصائصها وكيانها . لكن يجب أن لا يفوتنا أن هناك فرقاً بين الإرادة والسماح . فالإرادة عمل إيجابي به نتحكم في الأمور لتسير في الطريق الذي نعينه لها . أما السماح فهو عمل سلبي به نترك الحرية للأمور لتسير في طريقها ، لسبب أو غرض خاص . فالله سمح لآدم بالعصيان ، ليس لعجزه عن ارغامه على حياة الطاعة ، بل لأنه خلقه حر الإرادة ، وحرية الإرادة من شأنها أن تتجه إلى الخير كما تتجه إلى الشر . ومع كل فإن وجود الشر في العالم لا يعطل مقاصد الله ، لأن الله يستطيع استخدامه لتهذيب الإنسان ، وأيضاً لإظهار محبته له وعطفه عليه . لأنه لولا الشر لما عرفنا أهمية الخير ، ولولا سقوطنا في الخطيئة ، لما عرفنا عطف الله علينا واهتمامه بأمرنا .

٩ ـــ [لماذا خلق الله آدم حر الإرادة ، وهو يعلم أنه سيسيء استخدام هذه الحرية ؟]

الرد : (أ) لما كان الله محبة (١يوحنا ٤ : ٨) ، • المحبة هي العامل الأساسي في الخلق ، لذلك كان من البديهي أن يخلق الله البشر بإرادة حرة ، حتى تكون لهم القدرة الذاتية على أن يبادلوه حباً بحب ، لأن المحبة المتبادلة لا تقوم إلا على حرية الإرادة . فضلاً عن ذلك فإن هذه الحرية هي التي تكوّن في الواقع أخلاق البشر وشخصياتهم ، وتهيّيء لهم أيضاً سبيل التقدم والرقي في الحياة ، إذ لولاها لظل الإنسان إلى الآن بدائياً كما كان منذ آلاف السنين . فإذا أضفنا إلى ما تقدم إن الله لا يريد بشراً كالدميات التي تتحرك آلياً بالجذب أو الدفع حسب رغبة صاحبها ، لأنه لا يجد سروره إلا في خلائق تتجاوب معه بمحض اختيارها ، الأمر الذي لا يتحقق إلا إذا توافرت لديها القدرة على العصيان في أي وقت أرادت ، اتضح لنا أن هذا الاعتراض لا مجال له على الإطلاق .

(ب) كما أننا إذا نظرنا إلى الحرية من الناحية الإنسانية العامة ، نرى أنها أسمى ما يعتز به الكائن العاقل ، ومن ثم فإن البشر المحرومين منها يجاهدون بكل قواهم للحصول عليها . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن التناقض أن نعتز بالحرية ، وفي الوقت نفسه نعترض على الله لأنه خلقنا أحراراً . فإذا كان آدم قد استخدم حرية الإرادة التي طبعه الله عليها في الانحراف عنه ، فالعيب فيه وليس في الحرية — ومع كل فإن الله بسبب محبته التي لا حد لها ، لم يعامل الانسان حسب عصيانه ، بل أظهر له كل عطف ورحمة ، كما هيأ له كل الوسائل التي تمكنه من استخدام حرية إرادته في الامتناع عن كل شر ، والقيام بكل خير ، عندما يؤمن إيماناً حقيقياً كما ذكرنا في الباب السابع ، ولذلك ليس هنا مجال لهذا الاعتراض كما ذكرنا .

١٠ — [إذا كان الأمر كذلك ، فهل سمح الله لآدم بالسقوط في الخطيئة لكي يظهر محبته الأزلية له ويكفر بنفسه عنه ؟]

الرد : حاشا لله أن يكون قد سمح لآدم بالسقوط في الخطيئة لهذين الغرضين ، لأنه لا يسمح بالشر لكي يأتي الخير ، إذ أنه لا يصطاد في الماء العكر كما يفعل بعض الناس . بل ما حدث هو أنه هيأ لآدم الأسباب الكفيلة ببقائه في الجنة إلى الأبد ، لكن لما سقط بإرادته لم يشأ الله أن يتركه في خطيئته ، بل احتملها وكفر عنها بنفسه . فضلاً عن ذلك ان هذين العملين ، أي الاحتمال والتكفير ، لم يكونا حدثين جديدين بالنسبة إلى الله ، بل كانا لديه أزلاً ، لأنه يعرف كل الأشياء قبل ظهورها — الأمر الذي يتوافق مع كماله ، وعدم طروء أي جديد عليه .

— ٢ —

براءة موقف الله إزاء البشر عامة

١ — [لكن هل يرضى الله أن يشقى ملايين البشر ، بسبب خطيئة آدم أبيهم ونائبهم ؟]

الرد : (ا) طبعاً لا يرضى ، ولذلك عيّن لهم منذ الأزل (أو بالحري قبل خلق آدم بأزمنة لا حصر لها) نائباً آخر هو المسيح ، ومن ثم دُعي المسيح بالوحي من الناحية الناسوتية « آدم الأخير » (١كورنثوس ١٥ : ٤٥) يُطلق على المسيح « آدم الأخير » من جهة زمن ظهوره في العالم بالنسبة إلى آدم الأول أو النائب الاول . ولكن المسيح من ناحية وجوده الذاتي ، كان قبل آدم بأزمنة لا حصر لها ، لأنه له المجد هو « ابن الله » و « كلمته » . وتبعاً لذلك إذا كانت البشرية قد حلّ بها الشقاء بواسطة آدم الأول ، يحل به الخير وكل الخير بواسطة آدم الأخير . فقد قال الوحي : « لأنه إن كان بخطيئة واحد (أي آدم الأول) مات الكثيرون ، فبالأولى كثيراً نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح ، قد ازدادت للكثيرين .. لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد،فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر،سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح . فإذاً كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة ، هكذا ببر واحد (أي عمل البر الواحد الذي به وفّى المسيح مطالب عدالة الله وقداسته) صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة . لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جُعل الكثيرون خطاة ، هكذا أيضاً بإطاعة الواحد (أي المسيح يسوع) سيُجعل الكثيرون أبراراً » (رومية ٥ : ١٥ — ١٩) .

(ب) لذلك فكل من يشعر بشناعة الخطيئة التي تسربت إليه من آدم الأول ، عليه أن يتنصل من علاقته به كرأسه العتيق ويلتصق بالروح بالإيمان الحقيقي بالمسيح الذي هو آدم الأخير ، كرأسه الجديد . فيصبح منفصلاً عن الجنس البشري وخطيئته ومصيره من ناحية ، ومتحداً مع المسيح البار ومشتركاً معه في استحقاقات كفارته من ناحية أخرى . فقد قال الوحي : « إذاً إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة ، الأشياء العتيقة قد مضت . هوذا الكل قد صار جديداً » (٢كورنثوس ٥ : ١٧) .

أما إذا رفض إنسان الالتصاق بالمسيح ، فانه يكون قد فضل البقاء في الحالة الجسدية التي آلت إليه بسبب نيابة آدم الأول ، وبالتالي يكون قد أحب البقاء في الخطيئة بمحض اختياره . وحينئذ لا تكون نيابة آدم الأول عنه نيابة شرعية بل نيابة اختيارية ، وتكون

الدينونة التي يستحقها ليست بسبب نيابة آدم عنه في الامتحان والسقوط واستحقاق الموت ، بل بسبب رفضه لنيابة المسيح عنه في إيفاء مطالب العدالة الإلهية .

مما تقدم يتضح لنا أنه كما تسربت الطبيعة الخاطئة إلينا من آدم واشتركنا في نتائجها دون أن نرتكب ذنباً ، هكذا اقتضت حكمة الله السامية أن ننال حياة المسيح في نفوسنا ، ونشترك في نتائج كفارته دون أن نقوم بدفع ثمنها لله ، إذ كل ما علينا أن نعمله هو أن نقبل المسيح في قلوبنا نائباً عنا ورأساً لنا ، أو بالحري أن نؤمن به إيماناً حقيقياً .

٢ — [لماذا لم يجعل الله المسيح رأساً للخليقة من أول الأمر بدلاً من آدم ، لأنه في هذه الحالة لم يكن هناك مجال لوجود الخطيئة التي أساءت إلى الله وكلفته القيام بالفداء ؟!]

الرد : إن الله أقام آدم الأول رأساً للخليقة لأنه كائن أرضي ويستطيع أن يأتي بالبشر بواسطة التناسل الطبيعي . أما المسيح فلأنه كائن سماوي وليست له علاقة مع أحد إلا بالروح ، كان من البديهي أن لا يظهر كرأس للخليقة الروحية الجديدة ، إلا بعد أن يأتي آدم الأول . وليس هذا فحسب ، بل وأيضاً بعد أن تظهر في المخلصين من أولاده ، الرغبة الحقيقية في الاتصال بالله والتوافق معه .

هذا مع العلم بأن نيابة آدم الأول وما أنتجته من شر ليست هي التي دعت الله إلى إقامة المسيح نائباً ثانياً ، بل بالعكس فإن نيابة المسيح هي الأساس في مقاصد الله الأزلية ، والدليل على ذلك أنه أعلن أن آدم الأول كان مجرد مثال للمسيح من جهة النيابة عن البشر كما يتضح من (رومية ٥ : ١٢) ، والمثال لا تقوم له قائمة إلا إذا كانت هناك حقيقة سابقة له يمثلها أو يرمز إليها .

٣ — [إذا كان الخلاص هو بالمسيح وحده ، فكيف خلص الأنبياء وغيرهم من الأتقياء الذين عاشوا قبل مجيئه إلى الأرض ؟]

الرد : (ا) مرّ بنا أن الله أوصى الناس في العهد القديم بتقديم الذبائح كفارة عن نفوسهم . ولذلك كان كل من يتوب عن خطاياه ويقترب إلى الله بهذه الذبائح ، يتمتع بالغفران والقبول أمامه ، ليس لأن هذه الذبائح كانت في ذاتها كافية للتكفير ، بل لأنها كانت رمزاً إلى كفارة المسيح التي كانت معروفة لدى الله أزلا . فقد قال الرسول للمؤمنين « عالمين أنكم أفتديتم ... بدم كريم ، كما من حمل بلا عيب ولا

دنس ، دم المسيح معروفاً سابقاً **قبل تأسيس العالم** ، ولكن قد أظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم » (١بطرس ١ : ١٨ ــ ٢٠) وقال غيره عن المسيح « الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة (أي خطايا الذين آمنوا في العصور السالفة للمسيح ، وأظهروا هذا الإيمان بالتوبة إلى الله وتقديم الذبائح الرمزية) بإمهال الله ، (و) لإظهار بره (أيضاً) في الزمان الحاضر ، ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع » (رومية ٣ : ٢٥ و٢٦) .

فالغفران بدم المسيح يمتد من الصليب إلى الخلف ، فيجتاز كل العصور السابقة للميلاد حتى يصل إلى آدم قبل خروجه من الجنة ــ ولذلك لم يوقع الله عليه في الحال حكم الموت الجسدي الذي ينبىء بوقوع العذاب الأبدي عليه بسبب الخطيئة ، بل عفا عنه وأبقاه حياً على أساس الذبيحة الرمزية التي ارتضاها وقتئذ نيابة عنه . كما أن هذا الغفران يمتد إلى الأمام فيجتاز كل العصور التالية للميلاد لكي يخلص آخر إنسان يأتي إلى الأرض ، طالما يؤمن بالمسيح إيماناً حقيقياً . ومن ثم فالمؤمنون الحقيقيون الذين عاشوا قبل الصليب خلصوا أمام الله بالنظر إلى المسيح الذي كان بالنسبة لهم عتيداً أن يأتي ويعلن كفارة الله ، والمؤمنون الحقيقيون الذين عاشوا ويعيشون بعد المسيح يخلصون بالإيمان بأنه أتى وأعلن هذه الكفارة ــ الأمر الذي يتفق مع كمال الله ومحبته للبشر ، في كل العصور بلا استثناء .

٤ ــ [إن الله يحب الناس جميعاً ، ولذلك ليس من المعقول اطلاقاً أن يخلّص فقط المنتمين إلى المسيح ، لا سيما وأن كثيرين منهم خطاة مثل باقي الناس] .

الرد : إن الذين يتمتعون بالخلاص ليسوا الذين ينتمون إلى المسيح (أو بالحري ينتمون ظاهرياً إليه) ، لأن كثيرين من هؤلاء خطاة مثل باقي الناس ، لكن الذين يتمتعون بالخلاص هم الذين قبلوا المسيح مخلصاً لهم ، ووُلدوا من الله مرة ثانية استطاعوا بها التوافق معه في صفاته الأدبية السامية ، وهؤلاء أقلية في كل العصور . ولا غرابة في ذلك فقد ذكر الوحي أنه من بين الآلاف الذين كانوا في أيام الطوفان لم يخلص إلا ثمانية أشخاص (١بطرس ٣ : ٢٠) . ومن بين سكان سدوم وعمورة العديدين لم يخلص إلا لوط وحده (٢بطرس ٢ : ٧) .

٥ ــ [إن عطف الله ورحمته لا حد لهما ، ولذلك لا يمكن أن يهلك إلى الأبد جميع الذين لا يؤمنون بالمسيح إيماناً حقيقياً] .

الرد : حقاً إن عطف الله ورحمته لا حد لهما ، لكن يجب ألا يفوتنا أن قداسته وعدالته لا حد لهما أيضاً . وبما أن المؤمنين بالاسم وغير المؤمنين لا يبالون بالخلاص الذي يقدمه لهم مجاناً في المسيح ، لذلك فمن العدالة أن يحرموا منه ، ومن العدالة كذلك ألا يطالبوا بأحقيتهم فيه .

فضلاً عن ذلك فالله في الواقع ليس هو الذي يهلكهم ، بل هم الذين يهلكون أنفسهم بأنفسهم ، بسبب عدم رغبتهم في الإتيان إليه والتمتع بخلاصه . وقد أشار المسيح إلى هذه الحقيقة فقال « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يَهلك (بفتح الياء لا بضمها) كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » (يوحنا ٣ : ١٦) ، كما أشار الله إليها من قبل على لسان الحكيم فقال « من يخطىء عني يضر نفسه (ولست أنا الذي أضره) » (أمثال ٨ : ٣٦) ، كما ذكرنا في الباب الأول .

٦ — [إذا كان الخلاص هو بكفارة المسيح وحدها ، فما مصير الذين لم يسمعوا عنها ، أو سمعوا عنها دون أن يدركوها ؟]

الرد : لسنا في مركز القضاة الذين يقررون مصائر الناس حتى نجيب عن هذا السؤال ، لكن نعلم علم اليقين أن الله يحب كل الناس بدرجة واحدة . فمكتوب « هكذا أحب الله العالم (أي العالم أجمع) » (يوحنا ٣ : ١٦) ، وأنه بعلمه اللانهائي يقدّر ظروف كل منهم تقديراً صادقاً ، كما يعرف قلب كل منهم معرفة دقيقة ، ومن ثم لا يمكن أن يظلم أحداً أو يقسو على آخر . فالراغبون منهم بإخلاص في التمتع برحمة الله والسلوك في سبيله ، لا يتركهم الله وشأنهم ، بل يرسل لهم من يرشدهم ، ويهديهم ، كما فعل مع كرنيليوس ووزير ملكة كنداكة وغيرهم (أعمال ١٠ ، ٨ : ٢٦ — ٣٥) .

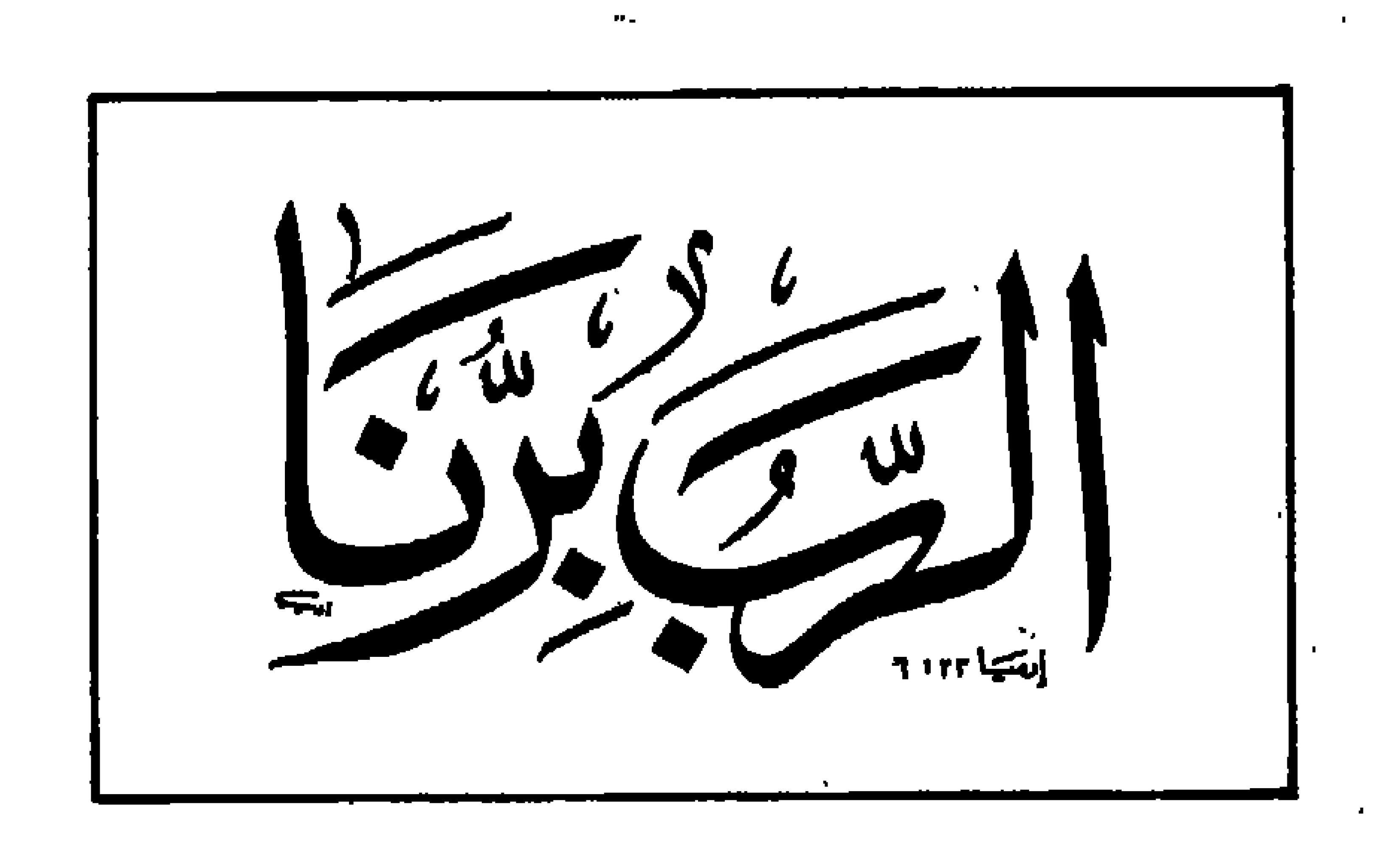
٧ — [وما ذنب الأطفال الذين لا يعرفون شمالهم من يمينهم ؟]

الرد : (١) إن المسئولية (كما نعلم) لا تقع إلا على الذين يميزون بين الخير والشر ، وبما أن الأطفال عامة لا يميزون بين هذا وذاك ، لذلك لا تقع عليهم مسئولية شخصية أمام الله ، وبالتبعية لا يعتبرون مذنبين أمامه ، حتى إن كانوا قد عملوا بالطبيعة ما ندعوه « خطيئة » . أما من جهة اعتبارهم خطاة شرعاً أمام الله (مثل غيرهم من الناس) بسبب تناسلهم من آدم الأول ، فنقول : نظراً لعدم إدراك الأطفال ماهية الخير أو الشر ، فالله لا يسمح بأن يضاروا بخطيئة آدم الأول ، وأن لا يفيدوا من خلاص آدم الأخير الذي هو المسيح . فقد قال الوحي : « ولكن ليس كالخطية هكذا أيضاً الهبة

(أي أن هبات الله لنا على أساس كفارة المسيح ، لا يمكن أن تقل عن نتائج خطيئة آدم علينا) ، لأنه إن كان بخطية واحد (الذي هو آدم الأول) مات الكثيرون فبالأولى كثيراً نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالانسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين » (رومية ٥ : ١٥ ـــ ٢٠) . فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسيح قال عن الأطفال إن « لمثل هؤلاء ملكوت السموات « (مرقس ١٠ : ١٣ ـــ ١٥) ، وإنه لا يريد « أن يهلك واحد منهم على الاطلاق » (متى ١٨ : ١٠ ـــ ١٤) ، لا يبقى لدينا شك في أن الأطفال عامة لا يهلكون بفضل كفارة المسيح .

ومما يثبت هذه الحقيقة أننا إذا رجعنا إلى إجراءات الدينونة الواردة في (رؤيا ٢٠ : ١١ ـــ ١٢) ، نرى أن الأشرار يُدانون على قياس مسئوليتهم حسب ما هو مكتوب في الأسفار عن أعمالهم . ولذلك فإن الذين لا إدراك لهم لا يقفون أمام عرش الدينونة ، بل كما ورثوا الخطيئة من آدم دون إرادتهم ، يتمتعون بالخلاص والحياة الأبدية مجاناً بفضل كفارة المسيح دون أي إجراء من جانبهم .

ولكن يجب أن لا يفوتنا أنه مع عدم هلاكهم ، فإن إدراكهم في الأبدية سوف لا يكون مثل إدراك المؤمنين الذين سمت حياتهم الروحية ، بالإفادة من محبة الله الغنية التي تجلت في كفارة المسيح ، والبركات السامية التي ترتبت عليها . كما أنه سوف لا تكون لهم أكاليل أمام كرسي المسيح نظير المؤمنين الذين خدموا الرب بإخلاص في العالم الحاضر ، لأن الأكاليل ستعطى عن الخدمة والجهاد بعد الإيمان (٢تيموثاوس ٤ : ٧ و٨ ، ١بطرس ٥ : ٤ ، يعقوب ١ : ١٢ ورؤ ٢ : ١٠) ، ومن ثم تكون مكانة الأطفال في الأبدية مثل مكانة المؤمنين البسطاء في الإيمان .



— ٣ —

براءة موقف الله إزاء المؤمنين الحقيقيين

١ — [إذا كان المؤمنون الحقيقيون لا يُعاقَبون عن خطاياهم إلى الأبد ، لذلك لهم أن يخطئوا ويهملوا في الأعمال الصالحة كما يريدون ، وهذا ما يساعد على انتشار الشر في العالم ، وفي الوقت نفسه يتعارض مع قداسة الله كل التعارض] .

الرد : إن المؤمنين الحقيقيين كما ذكرنا في الباب السابع ، ولدوا مرة ثانية من الله ، وحصلوا منه على طبيعة روحية تكره الخطيئة وتمقتها ، لذلك فإن فكرة جواز سلوكهم في حياة الشر ، هي فكرة بعيدة الاحتمال . فقد قال الرسول عن نفسه وعن هؤلاء المؤمنين « نحن الذين متنا عن الخطيئة ، كيف نعيش بعد فيها !! » (رومية ٦ : ٢) ، لأن النعمة التي خلصتهم تعلمهم أن ينكروا الفجور والشهوات العالمية وأن يعيشوا بالتعقل و البر والتقوى في العالم الحاضر (تيطس ٢ : ١١ و١٢) .

فضلاً عن ذلك ، فإن الطبيعة الروحية التي حصل عليها هؤلاء المؤمنون من الله ، من شأنها أن تقودهم للقيام بالأعمال الصالحة بكثرة ووفرة . وإذا قصّروا مرة في شيء من هذه الأعمال ، لا يشعرون براحة أو سلام في نفوسهم . ولذلك يحاولون القيام بالأعمال المذكورة بكل ما لديهم من قوة لكي يريحوا ضمائرهم ، وقبل كل شيء لكي يمجدوا الله الذي أحبهم وأكرمهم . وقد أشار الرسول إلى أن المؤمنين الحقيقيين طُبعوا على القيام بالأعمال الصالحة ، فقال عن نفسه وعنهم معاً « مخلوقين (مرة ثانية) في المسيح يسوع لأعمال صالحة ، قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها » (أفسس ٢ : ١٠) .

٢ — [ما موقف الله إزاء مؤمن حقيقي يسقط في الخطيئة ، ولا ينهض للتو منها ؟]

الرد : (أ) إن الله يستخدم كل الوسائل لهداية هذا المؤمن وإعادته إليه ، وذلك عن طريق الوعظ والإرشاد أو عن طريق تجارب الحياة المتنوعة ، لأن هذا المؤمن هو من أولاده الذين ولدهم مرة ثانية لرجاء حي (١بطرس ١ : ٣) ، وتعهد المسيح برعايتهم والعناية بهم إلى نهاية الحياة (يوحنا ١٠ : ١٤ و١٥) — وداود النبي الذي اختبر هداية الله له بعد الانحراف ، قال مرة عنه « يردّ نفسي . يهديني إلى سبل البر ، من أجل اسمه » (مزمور ٢٣ : ٣) .

(ب) أما إذا استمر مؤمن حقيقي في عمل الخطيئة ، فإن الله يؤدبه حتى يثوب إلى رشده ويقلع عن خطيئته . وهذا التأديب قد يكون مرضاً أو ضيقاً أو خسارة أو ... أو ... فقد قال الرسول « لأننا لو كنا حكمنا على أنفسنا (وسرنا في خوف الله) لما حُكم علينا . ولكن إذ قد حُكم علينا نُؤدَّب من الرب لكي لا نُدان مع العالم » (١كورنثوس ١١ : ٣١ و٣٢) . وقال أيضاً « لأن الذي يحبه الرب يؤدبه ، ويجلد كل ابن يقبله .. فأي ابن لا يؤدبه أبوه !! » (عبرانيين ١٢ : ٦ و٧) . ومن ثم قال الرسول للمؤمنين « وإن كنتم تدعون أباً الذي يحكم بغير محاباة حسب عمل كل واحد ، فسيروا زمان غربتكم بخوف » (١بطرس ١ : ١٧) ، وطبعاً ليس خوف الارتعاب من الله بل خوف الوقار أمامه .

٣ ــ [كيف لا يدان في الأبدية كل المؤمنين الحقيقيين الذين يسقطون في الخطيئة مثل غير المؤمنين والمؤمنين بالاسم ؟ ولو فرضنا جدلاً أنهم سوف ينتقلون إلى السماء ، فكيف يمكن أن يتوافقوا مع الله في قداسته هناك !!.]

الرد : إن المسيح بتقديم نفسه كفارة على الصليب ، حمل قصاص خطايا من يؤمنون به إيماناً حقيقياً . وبما أن عدالة الله لا تطالب بحقها مرتين ، لذلك لا يدان المؤمنون الحقيقيون فيما بعد عن خطاياهم اكتفاء بالتأديب الأرضي الذي يحل بهم ، كما ذكرنا فيما سلف . أما من جهة الشطر الثاني من الاعتراض فنقول : بما أن هؤلاء المؤمنين حصلوا بالولادة الثانية من الله على طبيعة روحية يخلعون فعلاً الطبيعة العتيقة التي تجنح بهم الآن إلى الخطيئة ، لذلك لا يبقى هناك ما يمنعهم من التوافق مع الله في قداسته في العالم الآخر .

٤ ــ [إذا كان المؤمنون الذين يسقطون في الخطيئة سيتمتعون بالله في العالم الآخر ، يكون الله قد وضعهم جنباً إلى جنب مع المؤمنين الذين يحفظون أنفسهم بعيداً عن الخطيئة ، ويقومون بخدمته وحفظ وصاياه في العالم الحاضر ، وهذا لا يتفق مع العقل ؟]

الرد : لا مجال لهذا الاعتراض فإن الله سيكافىء المؤمنين الحقيقيين ، الذين حفظوا أنفسهم بعيداً عن الخطيئة ، وقاموا بخدمته وحفظ وصاياه بمكافأة خاصة ، فقد قال الوحي « إن بقي عمل أحد قد بناه عليه (أي على الإيمان بالمسيح) ، فسيأخذ أجرة » (١كورنثوس ٣ : ١٤) [وهذه الأجرة أو المكافأة ليست طبعاً هي الحياة الأبدية ، بل أنها مجد خاص بجانب هذه الحياة ــ لأن الحياة الأبدية هبة من الله على

أساس كفارة المسيح (رومية ٦ : ٢٣) ، وليست أجرة عن أعمال صالحة] . أما غيرهم من المؤمنين الحقيقيين وإن كانوا سيتمتعون بالله إلى الأبد بفضل كفارة المسيح ، لكنهم سيخسرون الأجرة السابق ذكرها . فقد قال الوحي « إن احترق عمل أحد فسيخسر (أي يخسر الأجرة) ، وأما هو فسيخلُص (من الدينونة الأبدية) ، ولكن (خلاص هذا المؤمن ، يكون) كما بنار » (١كورنثوس ٣ : ١٥) ، أي كخلاص شخص شبت النار في بيته فأحرقت كل ما لديه ، أما هو فنجا بنفسه فحسب ، كما كانت الحال مع لوط قديماً (تكوين ١٩ : ٢٠) .

٥ ـــ [أليس الاعتقاد بأن المؤمنين الحقيقيين الذين يخطئون لا يتعرضون للدينونة الأبدية ، يدفعهم للتباهي بأنفسهم ، وهذا ما لايليق بهم أو بغيرهم على الإطلاق] .

الرد : فضلاً عن أن هؤلاء المؤمنين يتعرضون لتأديب الله في الزمن الحاضر كما ذكرنا فيما سلف ، الأمر الذي يدعوهم للسلوك بكل تواضع أمامه . فإن عدم تعرضهم للدينونة لا يدعوهم للتباهي بأنفسهم ، لأن خلاصهم منها يتوقف أولاً وأخيراً على كفارة المسيح . ولذلك فإنهم إذا افتخروا ، لا يفتخرون بأنفسهم بل بالرب دون سواه (٢كورنثوس ١٠ : ١٧) .

أما الذين يتباهون بأنفسهم فهم الذين يفتخرون بالأعمال التي تدعى الصالحة ، ويعتقدون أنهم أهل بها للحصول على الحياة الأبدية ، دون الذين لم يقوموا في نظرهم بمثل هذه الأعمال ، كما كانت الحال مع الفريسي الوارد ذكره في (لوقا ١٨ : ٩ ـــ ١٤) ، غير عالمين أن هذه الأعمال فضلاً عن أنها لا تكفر عن خطيئة واحدة من خطاياهم ، فهي ملطخة بنقائص متعددة تجعلهم خطاة أمام الله كما ذكرنا في الباب الثاني . وحتى إذا كانت أعمالهم خالية من هذه النقائص فإنها ليست فضلاً منهم يستحقون عنه جزاء ، بل هي واجب إذا قصروا في أدائه ، أضافوا إلى خطاياهم خطايا أخرى .

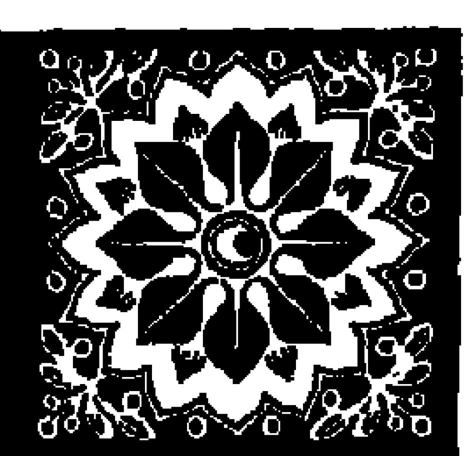
٦ ـــ [إذا كان المسيح قد خلص المؤمنين الحقيقيين من قصاص الخطيئة ، وكان الموت الجسدي جزءاً من قصاصها ، فلماذا يموتون هذا الموت مثل غيرهم من الناس ؟]

الرد : إن الموت لا يتطرق إلا إلى الأشخاص الخالين من الخطيئة والمعصومين منها ، والحال أن أجساد المؤمنين الحقيقيين ، مثل أجساد غيرهم من الناس ، تكمن فيها الطبيعة الخاطئة (والفرق الوحيد بين الفريقين أن المؤمنين الحقيقيين يَسْمُون بنعمة الله فوق هذه الطبيعة ، أما غيرهم من الناس فيخضعون لها) ، ولذلك كان من البديهي أن

يتطرق الموت إلى أجسادهم أيضاً . ومع كل ، فبسبب حصول المؤمنين المذكورين على الغفران والقبول الأبدي أمام الله في المسيح ، لم يعد الموت الجسدي موتاً لهم بل أصبح انتقالاً إلى السماء . كما أنه عن طريق هذا الانتقال ، ينتهي أمر الطبيعة العتيقة فيهم . ولذلك صاح أحدهم قائلاً « لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح — ذاك أفضل جداً ، لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح » (فيلبي ١ : ٢١ — ٢٣) . وأيضاً « لأننا نعلم أنه إن نقض بيت خيمتنا الأرضي (أي أجسادنا الأرضية المؤقتة) ، فلنا في السموات بناء من الله (أي جسد سماوي) بيت غير مصنوع بيد ، أبدي . فنثق ونسّر بالأولى أن نتغرب عن الجسد (أي ننتقل من هذا العالم) ، ونستوطن عند الرب » (٢كورنثوس ٥ : ١ — ٨) . ولذلك يطلق الوحي على الموت بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين « رقاداً » أو « نوماً » (يوحنا ١١ : ١٢) ، لأنهم يقومون بعده بنشاط روحي إلى حياة سعيدة ، بأجساد سماوية مثل جسد المسيح نفسه . فمكتوب عنه أنه سيغيّر شكل جسد تواضعنا لكي يكون على صورة جسد مجده (فيلبي ٣ : ٢١) ، ولذلك فإنهم دون غيرهم من الناس ، لا يخشون الموت ولا ما بعد الموت .

فما أعظم محبة الله التي تجلت في الفداء الذي قام به لأجلنا في المسيح ، وما أثمن البركات التي آلت إلينا بسبب هذا الفداء !! إننا مهما شكرنا الله لا نستطيع أن نفيه ذرة مما يجب علينا إزاء أفضاله ولذلك لا يسعنا إلا أن نخرّ أمامه ساجدين معطين إياه الكرامة والمجد والعظمة والسلطان إلى أبد الآباد — آمين .





مسابقة القسم الثاني
كيف تنتفع بكفارة المسيح ؟

أيها القارىء الكريم ، ان كنت قد درست القسم الثاني من هذا الكتاب ، فستجاوب على الأسئلة التالية . إن أرسلت لنا رداً صحيحاً على عشرين سؤالاً من الأسئلة الخمسة والعشرين ، نرسل لك جائزة . لا تنس كتابة اسمك وعنوانك بوضوح على رد المسابقة ، وليس على المظروف الخارجي فقط .

١ ـــ ما هي الأدلة على صدق شهادة المسيح لموته الكفاري ؟
٢ ـــ ما سبب انتشار الظلام وقت صلب المسيح ؟
٣ ـــ لماذا لم تُكسر ساقا المسيح ؟
٤ ـــ ما هي الآلام التي احتملها المسيح ليزيح عنا عذاب ولعنة الخطية ؟
٥ ـــ ما هي الوقائع التي تشهد بكفاية كفارة المسيح ؟
٦ ـــ لماذا كانت الولادة الروحية من الله ضرورية ؟
٧ ـــ كيف يمكن للانسان أن يولد هذه الولادة ؟
٨ ـــ ماذا حدث من تغيير في علاقتنا بالله بعد كفارة المسيح الكافية عنا ؟
٩ ـــ ما هو الإيمان الحقيقي ؟
١٠ ـــ ما هي الشروط الواجب توافرها في شخص يريد أن يكون مؤمناً حقيقياً ؟
١١ ـــ كيف يتأكد الشخص أنه قد نال الإيمان الحقيقي ؟
١٢ ـــ ما الذي يجعل المؤمن الحقيقي متأكداً من امتلاكه للخلاص ؟
١٣ ـــ هل نقدر أن نتجنّب الخطية بعد ان تعرفنا على ماهيتها ؟
١٤ ـــ هل صفح لنا الله من أجل حياة المسيح الرائعة ، أم من أجل كفارته عنا بموته ؟ اشرح اجابتك .
١٥ ـــ إذا كان المسيح قد توافق مع الله كل التوافق من جهة الفداء ، فلماذا طلب منه في جثسيماني أن يجنّبه الصَّلْب في أول الأمر ؟

١٦ ـــ هل هناك داعٍ للإيمان الشخصي بالمسيح ؟
١٧ ـــ لو كان الله يريد أن يكفر عن خطايانا في المسيح ، فلماذا لم يقم بهذا العمل بينه وبين المسيح ، دون أن يكون لأحد من البشر يد في صلبه ؟
١٨ ـــ كيف استطاع المسيح أن يفي في ثلاث ساعات الظلمة وحدها مطالب عدالة الله التي لا حدَّ لها ؟
١٩ ـــ ما معنى « التبرير » ؟
٢٠ ـــ إن كان المسيح بقوله : « قد أُكمل » أعلن إتمامه لعمل الفداء ، فلماذا لم ينزل عن الصليب بعد ما قال هذا مباشرة ؟
٢١ ـــ هل تشمل كفارة المسيح الخطايا التي لم تُرتكب بعد ؟ كيف ؟
٢٢ ـــ لماذا خلق الله آدم حر الإرادة وهو يعلم أنه سيسيء استخدام الحرية ؟
٢٣ ـــ ما الذي يجعل المؤمنين الحقيقيين يبغضون الخطية، مع أنهم لن يعاقبوا عنها ؟
٢٤ ـــ ما موقف الله إزاء مؤمن حقيقي يسقط في الخطيئة ، ولا ينهض للتو منها ؟
٢٥ ـــ لماذا يموت المؤمنون الحقيقيون موتاً جسدياً مثل بقية الناس ؟

يسعدنا أن نجاوب على أسئلتك

إن كان لديك سؤال عن الإيمان المسيحي ، يُسعدنا أن نجاوب عليه .

أرسل لنا سؤالك ، مع عنوانك الكامل الواضح ـ لا تَنْسَ أن تكتب اسمك وعنوانك في داخل الخطاب ، وليس على مظروفه فقط .

عنواننا
كنيسة قصر الدوبارة
٧ شارع الشيخ ريحان جاردن سيتي . القاهرة

مراجع الكتاب

أولاً — كتب مسيحية

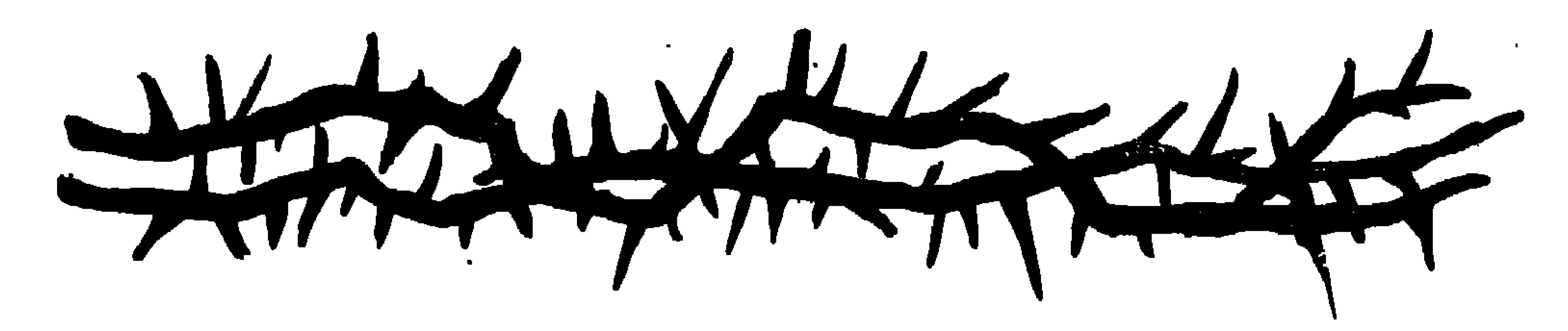
١ — الكتاب المقدس وتفسيره — لداربي وكلي وبنكرتن وكانون جاردنر
٢ — نظام التعليم في علم اللاهوت القويم — دكتور جيمز أنس
٣ — تجسد الكلمة — القديس أثناسيوس الرسولي
٤ — رب المجد — لجنة من رجال الدين المسيحي
٥ — الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة — الأسقف ايسوذوروس
٦ — تاريخ الآباء في القرون الثلاثة الأولى — دكتور أسد رستم
٧ — الكنيسة لغاية القرن العشرين — مستر رولند بتن
٨ — History of Doctrine, By Dr. Shedd.
٩ — Outlines of Christian Doctrine, By Dr. Moule
١٠ — Summary of Christian Doctrine, By Dr. Erdman
١١ — Christian Doctrine, Book Club
١٢ — Outlines of Theology, By N. Y.Armatray
١٣ — What We Must Believe, By Kupper
١٤ — The Changed Life
By dr. Drammond
١٥ — Psycology in the Service of Religion
١٦ — The Fundamentals By Dr. Philip
١٧ — Happy Christian By An Unknown Christian.
١٨ — The Glory of the Cross By Dr. Samuel Zwemer
١٩ — The Christian of Bible
٢٠ — The Christian Faith By Dr. Meshler

ثانياً — كتب فلسفية

١ — الفلسفة اليونانية
للأستاذ يوسف كرم
٢ — الفلسفة في العصر الوسيط
٣ — الفلسفة في العصر الحديث — للأستاذ يوسف كرم
٤ — الفلسفة الاغريقية
دكتور محمد غلاب
٥ — مشكلة الألوهية
٦ — قصة الفلسفة اليونانية — دكتور أحمد أمين
٧ — قصة الفلسفة الحديثة — ودكتور زكي نجيب محمود
٨ — دراسة في النظم والمذاهب الفلسفية — دكتور لويس عوض
٩ — فلسفة المحدثين والمعاصرين — دكتور أبو العلا عفيفي

ثالثاً — مراجع عامة

١ — التاريخ الكامل — العلامة ابن الأثير الجزيرى
٢ — تاريخ مصر القديمة — دكتور حسن سليم
٣ — أديان العالم الكبرى — الأستاذ حبيب سعيد
٤ — محاضرات في الأدب المسرحي — دكتور عبد الواحد
٥ — عقائد الأديان — للأستاذ محمد أبو زهرة
٦ — نظرات في العقائد المسيحية — للأستاذ مصطفى سعداوي
٧ — العقائد الوثنية في الديانة النصرانية — للأستاذ محمد طاهر
٨ — Hindu Religion, Customs & Manners, By Thomas
٩ — Hindu Religion & Legends By Thomas
١٠ — The Religion of Buddhism, By Prett
١١ — World Faith, By Ruth Cranston
١٢ — Eastern & Western Religion, By Redhakrishman
١٣ — The Golden Bough, By Sir James Freezer
١٤ — The Origin of Christianity
١٥ — Encyclopedia Britanica



هذا الكتاب ..

إن أعظم أمنية يتطلع اليها المؤمنون بالله في كل دين من الأديان ، هي الحصول على الغفران . لذلك نرى داود النبي يرنم : « طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته . طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية » (مزمور ٣٢ : ١، ٢) .

لكن مما يُؤسف له أن معظم هؤلاء المؤمنين يختلفون فيما بينهم إختلافاً كبيراً من جهة السبيل إلى الغفران . فيقول فريق منهم إنه يكون بالصلاة والصوم ، ويقول فريق آخر إنه يكون بالتوبة والصَّدقة ، ويقول فريق غيرهم إنه يكون بشفاعة القديسين والصالحين ، أو بهذه الوسائل مجتمعة . ومما زاد الموقف غموضاً وتعقيداً لديهم ، أن الذين يقومون منهم بهذه الأعمال بكل دقة وإخلاص ، لا يثقون أنهم حصلوا على الغفران الذي ينشدونه . فإذا سألنا واحداً منهم : هل يثق أن الله غفر كل خطاياه ؟ أجابنا بالقول : إن الثقة بذلك هي من باب الرجم بالغيب ، لكنه يقوم بالأعمال المذكورة ، عسى أن يغفر الله له .

والآن لنسأل أنفسنا سؤالين : (الأول) هل يمكن أن يضع الله أكثر من سبيل واحد للغفران ؟ و(الثاني) هل يليق بكماله تعالى أن يتركنا طوال وجودنا على الأرض في شك من جهة الصفح عن خطايانا ؟ والاجابة عن هذين السؤالين هي طبعاً : كلا وكلا .

ولما كان الأمر كذلك ، درس الكاتب السُّبل السابق ذكرها في ما استند عليه من كتب القائلين بها ، كما درس السبيل الذي أعلن الكتاب المقدس للسالكين فيه الحصول على الغفران التام منذ الآن ، فأسفرت الدراسة عن الكتاب .

الثمن ٤٠٠ قرشاً

دار الطباعة القومية بالفجالة